مذاهب وشخصيات

دروس من الحياة

بقلم سومرست موم

ترجمة حسين القباني



مذاهب وشخصيات

دروس
من الحياة

بقلم : سومرست موم
ترجمة : حسين القبانى

مؤلف الكتاب

وليم سومرست موم الكاتب الروائى المعاصر اشتهر بكثرة انتاجه ، وانتشار مؤلفاته التى لا يقل عددها عن ستين مؤلفا ما بين روايات مسرحية وقصص تاريخية وسير وكتب سياسية . ويمتاز بأنه كاتب واقعى يستمد قصصه من الحياة ومن دراساته للناس فى أسفاره العديدة . وهو يكره الحواشى والأوصاف ويعمد الى الواقع مباشرة ، ويمزج الحقيقة بالخيال مزج كاتب خبير بفن القصص عليم بطبائع الناس ، ميال للسخرية .

ولد فى عام ١٨٧٤ ، وتعلم فى مدرسة « الملك » بكانتربرى ، ورحل فى صباه الى باريس حيث تعلم الفرنسية وأتقنها، ثم عاد يدرس فى انجلترا، ثم انتقل الى جامعة هيدلبرج بألمانيا ، ثم سافر الى ايطاليا حيث تعلم الايطالية بمدينة فلورنسا ، وهكذا جمع فى سنى شبابه محصولا وافرا من المعارف والمعلومات ، وأتقن عدة لغات .

الف أول رواية بعنوان «ليزا أوف لاميث» وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، واستمد موضوعها من ملاحظاته وهو طالب طب .

ورغم انه درس الطب، فانه لم يلبث أن احترف الأدب بعد تخرجه ولا سيما بعد أن نالت روايته الاولى نجاحا ضخما .

وعالج التأليف للمسرح ، وبعد محاولات فاشلة ، بلغ فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير . ومع ذلك فقد أقلع عن التأليف المسرحى بعد بضع روايات ، وقصر قلمه على التأليف الروائى والقصص وتاريخ السيرة .

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٤ ، دخل الخدمة العسكرية الطبية بفرنسا ، ثم نقل الى قلم المخابرات البريطانية فى انجلترا، وتأثرت صحته بالعمل المرهق ، فسافر الى جزر الجنوب بالمحيط الهادى ، مارا بأمريكا ، وهناك ، فى تلك الجزر ، وجد الهدوء الذى ينشده ، وعاد بملاحظات ومعلومات وذكريات أعانته على تأليف مجموعة من الروايات والقصص ، أشهرها رواية « القمر وستة بنسات » .

وقبل أن يتم هذه الرواية ، أوفد فى مهمة الى روسيا ، وهناك عاوده المرض فرجع الى انجلترا مريضا بذات الرئة . ودخل مصحة أمضى فيها عدة شهور حتى شفى من دائه . ثم عاود السفر والترحل من بلد الى آخر ، مستمدا المادة التى يصوغ منها مؤلفاته .

وهو يوزع وقته الآن بين الحيـاة فى قصره بانجلترا ، وقصره فى الريفييرا الفرنسية ، مكتسبا ملايين الجنيهات من كتبه التى يعاد طبعها فى مختلف انحاء العالم .

وكتابه هذا « الموجز » أو « دروس من الحياة » يعتبر من أعظم كتبه شأنا ، لأنه يضم بين غلافيه الجانب الكبير من سيرة حياة مؤلفه ، والجانب الاكبر من آرائه ووجهات نظره فى مختلف شئون الحياة .

حسين القبانى

- ١ -

ليس هذا الكتاب ترجمة ذاتية ، ولا هو كتاب ذكريات ، فقد سبق في كتاباتي المختلفة ان ذكرت بطريقة أو بأخرى ، ما حدث لي في مراحل حياتي . وفي بعض الاحيان كنت أتخذ من تجربة ذاتية موضوعا ابتكر له مجموعة من الأحداث لتصويره ، وفي أغلب الأحيان كنت أتخذ من الأشخاص الذين اتصل بهم من قريب أو من بعيد أساسا لشخصيات من ابداعي . وهكذا امتزجت الحقيقة بالخيال في انتاجي الأدبي حتى انني الآن كلما أعدت النظر اليها لا أكاد أفرق بين الاثنين ، ولن يهمني كثيرا أن أسجل الحقائق — حتى لو استطعت أن اتذكرها — بعد أن استنفدتها فيما هو أفضل ، ثم انها ، فوق هذا ، سوف تبدو مألوفة. فقد كانت حياتي منوعة الأحداث ، وغالبا ما كانت شيقة ، الا أنها لم تكن زاخرة بالمغامرات. وفوق هذا فان لي ذاكرة ضعيفة ، فأنا لا أستطيع أن اتذكر قصة جيدا الا اذا سمعتها مرة أخرى ، ومع هذا فانني لا البث أن أنساها قبل أن تتاح لي فرصة سردها على مسامع شخص آخر . بل انه لم يكن في وسعي ابدا أن أتذكر فكاهاتي الخاصة نفسها ، ومن ثم أجد نفسي مضطرا الى « تأليف فكاهات جديدة » واني لأدرك أن هذا العجز هو الذي جعل الناس أقل استمتاعا بصحبتي في المجتمعات مما ينبغي .

انني لم أكتب في حياتي يوميات ، ولشد ما أتمنى الآن لو أني فعلت ذلك خلال العام التالي لأول نجاح لي ككاتب مسرحي ، فقد التقيت حينئذ بكثير من الشخصيات الهامة ، وربما أثبتت يومياتي اذا كتبت — أنها دقائق ممتعة ، ذلك لأن الرأى العام في ذلك الوقت كان قد فقد ثقته في الطبقة الارستقراطية وملاك الارض بعد تعقيدهم للأمور في جنوبي أفريقيا (١) ، ولكن الطبقة الارستقراطية من ملاك الارض والاعيان لم يدركوا هذه الحقيقة ، وظلوا محتفظين بثقتهم القديمة في أنفسهم ، وفي بعض المنتديات السياسية التي كنت أتردد عليها كانوا — ولا يزالون — يتحدثون كأنما ادارة الامبراطورية البريطانية جزء من أعمالهم الخاصة ، وكان مما يثير في نفسي احساسا غريبا أن أسمع القوم يجادلون — ولا سيما عند اقتراب الانتخابات العامة — فيما اذا كان هذا الشخص سيرضى برياسة الوزارة أو أن ذلك سيقبل حكم ايرلندا ، ولست أظن أن أحدا اليوم يقرأ روايات مسز همفرى راود . ولكنها ان بدت اليوم مثيرة للملل والسأم ، فقد كان بعضها على ما أذكر : يرسم صورة جيدة لمظاهر الحياة بين الطبقة الحاكمة وقتئذ .

وكان الروائيون حتى ذلك الوقت شديدى الاهتمام بحياة هذه

---

(١) يقصد الكاتب حرب البوير : المترجم

الطبقة ، بل ان بعض الكتاب الذين لم يسبق لهم معرفة أحد اللوردات كانوا يجدون من اللازم الاكثار من الكتابة عن ذوى الألقاب ، وقد تدهش الآن اذا ما قرأت اعـلانات المسرحيات القـديمة وكيف كانت زاخرة بالشخصيات من ذوى الالقاب ؛ ذلك أن مديرى المسارح كانوا يعتقدون أن مثل هذه الشخصيات تجذب الجماهير الى المسرحية ، وكـذلك كان الممثلون يحبون القيام بهذه الادوار ، ولكن الرأى العام لم يلبث أن قـل اهتمامه بهذه الطبقة عندما بدأت أهميتها السياسية فى التضـاؤل ، وأصبح جمهـور المسرح مسـتعدا لملاحظة تصرفات من هم من طبقتـه الاجتماعية ، كالتجار الأثرياء ، وذوى المهن الذين أصـبحوا يصرفون أمور الدولة ، ومن ثم غدت القاعدة السائدة ــ التى لم تكن محـدودة تماما ــ ألا يقدم الكاتب ذوى الألقاب فى انتاجه الا اذا كان وجـودهم جوهريا بالنسـبة للموضوع . وكان من المستحيل وقتئذ أن يثير الكاتب اهتمام القراء بشئون الطبقات الدنيا ، ذلك أن الروايات والمسرحيـات التى تدور حول هذه الطبقات كانت تعتبر من الأدب السوقى ، وانه لمن الطريف أن نرى ما سوف يحدث بعد أن أصبح لهذه الطبقات أهميـة سياسية عامة ، هل يبدى الجمهور الاهتمام نفسه بحياة هذه الطبقـات الدنيا الذى أبداه طويلا بحياة الطبقة الارستقراطية ، وفى فترة ما ، بحياة الطبقة البرجوازية الموسرة .

انني فى خلال هذه الفترة ، التقيت بأشخاص كثيرين كانوا يعتقدون بما لهم من ألقاب أو شهرة أو مركز أنهم خليقون بأن تسجل أسـماؤهم فى صحف التـاريخ ، ولكننى لم أجدهم أشخاصـا لامعين كمـا كنت أتصورهم ، والانجليز شعب شغوف بالسياسة . وكثيرا ما كنت أدعى الى منازل كانت السياسة فيها هى المحور الاساسى للحديث . ولم أستطيع أن أجد فى رجال الدولة البارزين الذين التقيت بهم هناك أية كفاية ملحوظة . والنتيجة التى وصلت اليها ــ ولعلى كنت متسرعا ــ هى أن حكم الشعوب لا يستلزم درجة عالية من الذكاء ، وقد تعرفت منذ ذلك الحين بعدد كبير من الساسة فى دول مختلفة وصلوا الى أعلى المـراكز وما زلت مدهوشا لما عرفته عن مستوى عقليتهم العادية . ولقد وجـدت أن معرفتهم بشئون الحياة قاصرة ، كما انني لم أجد فى كثير منهم دقة فى التفكير أو حيوية فى الخيال ، وكنت أميل فى وقت ما الى الاعتقاد بأنهم لم يصلوا الى هذه المراكز الرفيعة الا بما لديهم من موهبة فى الحديث ، ذلك انه يكاد يكون فى حكم المستحيل أن تصل الى السلطة فى بلد ديمقراطى ما لم تكن قادرا على جذب انتباه الرأى العـام ، وقلما تقترن موهبـة الحديث فى شخص ما ــ كما تعرف ــ بقوة التفكير ، ولكن بما أننى رأيت سياسيين لم أتوسم فيهم البراعة الفائقة ، ومع ذلك نجحوا الى حـد كبير فى ادارة الشئون العامة ، فلا بد أنى كنت مخطئا ، ولعل الشـخص الذى يتصدى لشئون الحكم يحتاج الى موهبة خاصة ، ومن المحتمـل جدا وجود هذه الموهبة دون الكفاية العامة . وعلى نفس هذا المنوال عرفت بعض رجال الأعمال ممن جمعوا ثروات طائلة أو أداروا شـئون بعض المنشآت الضخمة بنجاح كبير ، ومع ذلك فانهم بدوا فى المسائل التى تتصل بأعمالهم انهم يعوزهم الادراك السليم .

وكذلك لم تكن الأحاديث التى سمعتها يوم ذاك بارعة كما كنت اتوقع . انها نادرا ما كانت تقدم شيئا يثير التفكير ، فقد كانت أحاديث سهلة — وان لم تكن هكذا دائما — مرحة لطيفة . أما الموضوعات الجادة فلم يكن لها مجال ، ذلك أنه كان هناك شعور بأن الأحاديث فى مثل هذه الموضوعات فى مجتمع عام مدعاة للحرج ، ونظرا لان الخوف من الاقتصار على الموضوعات الخاصة بالعمل كان يمنع الكثيرين من التحدث فى المسائل التى تهمهم بالذات فقد كانت الأحاديث — على قدر حكمى — مجرد كلام منمق ، وقلما كنت تسمع عبارة بارعة تستحق الترديد فى مجالس أخرى ، وقد خطر لي حين ذاك أن الفائدة الوحيدة للثقافة هى تمكين الشخص من الثرثرة بطريقة بارعة .

واننى بوجه عام صرت أعتقد أن « أدموند جوسن » هو أكثر المتحدثين تشويقا وتسلية ، والواضح انه كان يقرأ كثيرا دون اهتمام بالغ كما يبدو ، وكانت احاديثه تدل على غاية الذكاء كما كانت له ذاكرة خارقة وروح فكاهية وميل الى الخبث والمكر . وقد عرف الكاتب سوينبرن معرفة وثيقة ، فكان فى مقدوره ان يتحدث عنه بطريقة مشوقة ، ولكنه كان يستطيع ايضا أن يتحدث عن الشاعر شيلى مع أنه من المستحيل أن يكون قد عرفه كصديق حميم ، وقد ظل على اتصال وثيق بشخصيات كثيرة اعواما طوالا ، وأعتقد أنه كان رجلا مغرورا عرف كيف يلاحظ سخافاتهم بعين الرضا ، وأنا واثق أنه كان يجعل هذه التصرفات تبدو أكثر تسلية مما هى فى الواقع .

— ٢ —

كثيرا ما تعجبت لهذه الرغبة الشديدة التى تدفع الناس الىالتعرف بالمشاهير ، فانالمكانة التى تكتسبها منالتحدث الى أصدقائك عنمعرفتك بالمشاهير ليست الا دليلا على أنك انت نفسك ضئيل الشأن . وقد اصطنع المشاهير لانفسهم أسلوبا فى اتصالاتهم بمن يصادفونهم . انهم يظهرون امام العالم بأقنعة غالبا ما تكون مهيبة ، الا أنهم حريصون على اخفاء حقيقة نفوسهم . انهم يلعبون الدور الذى يتوقعه الناس منهم ، وقد علمتهم التجارب كيف يحسنون القيام بهذا الدور ، ولكن من الحماقة أن نظن أن مظهرهم العام الواضح يتفق مع حقيقة مخبرهم .

وقد تعلقت تعلقا شديدا بأناس قليلين ، ولكننى أهتم بالناس عموما، لا لذواتهم وانما منأجل عملى ، لم أكن أنظر الىالفرد كما يقولالفيلسوف « كانت » على انه غاية فى ذاته ، وانما على أنه خاصة قد افيد منها فى عملىككاتب، وقد كان اهتمامىبالمغمورين أكثر من اهتمامىبالمشهورين. ذلك أن الأولين غالبا ما يتركون انفسهم على السجية ، فلا يحتاجون الى أن يصطنعوا صورا لهم يحتمون بها من الناس أو ليؤثروا بها فيهم ، ان الخصائص الفردية قد وجدت فرصة أكثر لتنمو فى مجال نشاطهم المحدود . ولما لم يكونوا يوما أمام الرأى العام ، فانه لم يخطر ببال أحدهم أن لديه ما يخفيه عن الناس . ومن ثم تراهم يكشفون عنالنواحى

الغريبة فيهم دون أن يدركوا البتة أنها غـــريبة . ومهما يكن فان عامة الناس هم الذين يجب أن نتناولهم نحن معشر الكتاب أما الملوك والطغاة وأصحاب الملايين من رجال الاعمـــال فانهم من وجهة نظرنا مادة غير صالحة ، لان الكتابة عنهم مغامرة كثيرا ما اغرت الكتاب ، ولكن الفشل الذى صادف مجهوداتهم يدل على أن هذه الشخصيات من الاستثنـاء بحيث لا تصلح أن تكون أساسا سليما لعمل فني . وهم عدا هذا لايمكن أن يظهروا فى تصوير الكاتب لهم اشخاصا حقيقيين . ومن ثم فان الشيء العادى هو حقل الكاتب الخصيب ، لانه فريد غير متوقع فضـلا عن أنه موفور التنوع ، فالرجل العظيم يكون عادة وحدة منسجمة ، أما الرجــل العادى فانه مجموعة من العناصر المتناقضة التى لاينضب لها معين ، ولا نهاية للمفاجآت التى تزخر بها جعبته . وأنا من ناحيتى أفضل أن أعيش شهرا فى جزيرة موحشة مع طبيب بيطرى على أن أمضى مثل هذا الشهر مع رئيس وزارة .

- ٣ -

سأحاول فى هذا الكتاب أن أنسق أفكارى عن الموضـوعات التى كانت قد اثارت اهتمامى بصفة رئيسية فى مراحل حياتى ، ولكن النتائج التى انتهيت اليها ظلت طافية على سطح أفكارى كأنهـا حطام سـفينة غرقت فى بحر مضطرب ، وبدا لى انى اذا سجلتها بشيء من الترتيب فسأرى بنفسى ، فى وضوح أكثر ، حقيقة ما كانت عليه ، ومن ثم أستطيع أن أضفى عليها لونا من الانسجام ، وقد فكرت طويلا فى القيام بهــذه المحاولة ، وانتويت القيـام بها أكثر من مرة ، وذلك عندما كنت أبـدأ احدى رحلاتى التى تستغرق بضعة أشهر ، وكانت الفرصة تبدو مناسبة جدا ، ولكننى كنت دائما أجدنى مغمورا بانطباعات كثيرة ، وكنت أرى كثيرا جدا من الاشياء الغريبة ، والتقى بالكثير من الناس ممن يثـيرون خيالى بحيث لم اكن اجد مجالا للتأمل ، فقد كانت التجربة فى حينهــا حية بحيث لم أكن أستطيع أن أوجه عقلى الى التأمل الذاتى .

ومما عاقنى عن هذه المحاولة أيضا ، هو شعورى بصعوبة تدوين أفكارى بضمير المتكلم ، اذ على الرغم من أنى كثيرا ما كتبت من وجهــة النظر هذه الا أنى كنت أكتب كروائى ، ولهذا كنت أستطيع الى حد ما أن أعتبر نفسى أحد أشخاص الرواية . وقد جعلنى طول التعود أشعر بأنه من الأيسر لى أن أعبر عن آرائى بطريق الشخصيات التى ابتدعها . وفى استطاعتى ان اقرر ما يمكن أن يفكروا فيه بسهولة أكثر مما أستطيع أن أقرر ماأفكر فيه أنا شخصيا ، فالطريقة الاولى كانت دائما مبعث سرور لى أما الثانية فكانت عملا ثقيلا أرجئه عن طيب آخر ، الا أنه لم يعــد فى وسعى ان أطيل ارجاءه الآن ، ففى مرحلة الشباب ، تمتـد الاعوام أمام الانسان حتى ليصعب عليه أن يعتقد أنها ستنقضى يوما ما ، وحتى فى منتصف العمر وفى هذه الأيام التى ارتفع فيهـا متوسط العمر عنــد الفرد ، يكون من السهل عليه أن يلتمس الأعذار التى يبرر بها تأخيره لما

يتمنى أن يفعله . ولكنه يتغاضى عن ذلك حتى يحين الوقت الذى لا بد أن يفكر فيه الانسان فى الموت ، اذ يرى معاصريه يموتون الواحد تلو الآخر . ونحن نعرف أن الانسان زائل « سقراط كان انسانا اذن فهو . الخ» (١) الا أن هذه المسألة تبقى بالنسبة لنا مجرد فرض منطقى حتى نضطر الى الاعتراف بأن النهاية لم تعد بعيدة ، فهذه سنة الحياة . ولقد أوحت الى النظرة العابرة الى عمود الوفيات بصحيفة التايمز أن تدهور الصحة يبدأ فى الستينات ، وكثيرا ما كنت أفكر فيما قد ينتابنى من الغيظ والألم النفسى لو اننى مت قبل اتمام هذا الكتاب ! ومن ثم بدا لى انه من الأفضل ان ابدأ كتابته فورا ، وحين افرغ منه يصبح فى مقدورى أن أواجه المستقبل بهدوء ، لأنى أكون قد أتممت العمل الذى قمت به فى حياتى . ولهذا فانى لن أستطيع بعد الآن أن أقنع نفسى بأنى على غير استعداد للكتابة ، لأنى اذا لم أكن قد قررت حتى الآن الأشياء التى تبدو ذات أهمية لى ، فان الاحتمال ضعيف فى أننى سوف افعل هذا فى المستقبل . وانى لسعيد أن أجمع أخيرا هذه الافكار التى طالما كانت على غير هدى فى مستويات مختلفة من مشاعرى . وعندما اسجل هذه الافكار كتابة فسأستريح منها ويتحرر عقلى لاشياء اخرى ، ذلك أنى آمل الا يكون هذا كتابى الأخير فالانسان لا يموت بمجرد أن يكتب وصيته ، وانما يكتبها على سبيل الاحتياط ، لان تنسيق الانسان لشئونه اجراء طيب يستطيع معه مواجهة الحياة دون قلق من المستقبل ، وحين أفرغ من هذا الكتاب ، سأعرف أين أقف ، وعندئذ استطيع أن افعل ما أريد فيما تبقى لى من أعوام .

– ٤ –

ولا مفر من أن أذكر فى هذا الكتاب أشياء كثيرة سبق أن ذكرتها . وهذا ما حدا بى الى تسميته بالمجمل . فعندما يجمل القاضى أو يلخص موضوع القضية ، فانه يستعيد الحقائق التى ذكرت أمام المحلفين ، ويعلق على أقوال الدفاع والاتهام ، ولكنه لا يقدم أدلة جديدة . ولما كنت قد وضعت تفاصيل حياتى كلها فى كتبى ، فان الكثير مما سأذكره هنا قد سبق بالطبع أن وجد له مكانا فى هذه الكتب ، وليس هناك الا موضوعات قليلة فى نطاق اهتمامى لم أتناولها من قريب أو من بعيد ، وكل ما يمكن أن أحاول القيام به الآن أن أقدم صورة مرتبة لمشاعرى وآرائى . ومن وقت لآخر ربما استطعت أن أسهب فى توضيح فكرة ما لم أسمح لنفسى الا بمجرد الاشارة اليها بسبب الحدود التى رأيت أن أتقبلها فى كتابة الرواية أو المسرحية .

ولا مفر أيضا من أن يكون هذا الكتاب حديثا عن النفس ، فهو يتناول موضوعات معينة ذات اهمية لى ، كما أنه يدور حول نفسى ، لأنى لا أستطيع أن اعالج هذه الموضوعات الا من ناحية تأثيرها فى نفسى ، ولكنه

---

(١) يشير المؤلف هنا الى القضية المنطقية المعروفة « سقراط انسان ، وكل انسان زائل فسقراط زائل » .

لا يدور حول تصرفاتى ، لأنى لا ارغب فى كشف مكنون صدرى ، وانما اضع حدودا للعلاقة التى أرغب فى أن تكون بينى وبين القارىء ، فهنـاك مسائل أفضل أن تظل فى طى الكتمان ، وليس هناك من يسـتطيع أن يذكر الحقيقة كاملة عن نفسه ، ولم يـكن الغرور وحده هو الذى منع أولئك الذين حاولوا أن يكشفوا أنفسهم للعالم من أن يذكروا الحقيقة كلها، وانما هو اهتمامهم بأشياء دون أخرى، فان خيبة أملهم فىانفسهم، أو دهشتهم لاستطاعتهم القيام بأعمال بدت لهم غريبة خارقة ، تجعلهم يركزون اهتمامهم تركيزا بالغا فى أحداث هى أقرب ما يظنون الى ان تكون احداثا عادية . فجان جاك روســو فى اعترافاته يروى أحـداثا صدمت بعنف مشاعر الجنس البشرى . وهو فى وصفه لها بمثل هذه الصراحة قد زيف قيمتها ، وبذلك أضفى عليها فى كتابه اهمية أكثر مما كان لها فى حياته . فمن بين الاحداث الكثيرة كان هناك بعض الوقائع الفاضلة ، أو المعتدلة على الاقل ، التى اغفلها ، لانها كانت فى نظره عادية لا تستحق التسجيل . وهناك نوع من الرجال لايهتمون بأعمالهم الطيبة، وانما تؤرقهم أعمالهم الشريرة ، وهذا هو النوع الذى يكتب عن نفسه عادة ، مغفلا فى كتاباته مزاياه الطيبة . ولهذا لايبدو الا شريرا ضعيفا لا مبدأ له .

— ٥ —

انني اكتب هذا الكتاب لأحرر نفسي من بعض الافكار التيطالماطافت حولها بدرجة أقلقت راحتى . ولست أبغى أن أستميل أحدا ، فأنا بعيد عن غريزة الاشياء ، ومتى عرفت شيئا لم أشعر بالرغبة فى نقله الىالغير. ولا يهمنى كثيرا ان يتفق الناس معى فىالرأى فأنا اعتقد طبعا أن رأيى هو الصواب ، والا لما فكرت على هـــذا النحو ، اى لما فكرت أن رأيهم خاطىء . غير أنه لايسيئنى أن يكون الآخرون على خطأ ولا يقلقنى كثيرا اذا اكتشفت أن كلمتى لا تتفق مع حكم الأغلبية من الناس ، فان لدى نوعا من الثقة فى غريزتى .

ولا مندوحة لى من ان اكتب عن نفسي كأنى شخصية ذاتأهمية، والواقع أنى كذلك ، فى نظر نفسي. فأنا أعتقد انني أهم شخص فىالعالم « ان كنت لا أنسى انه لا قيمة لى على الاطلاق فى هذا العالم » ، حتى لو لم آخذ الأمر من وجهة النظر المطلقة ، وانما من وجهة نظر الادراك الســليم. فلو لم أولد على الاطلاق لما أحـدث ذلك أى تغيير يذكر فى الوجود ، وبرغم أنه قد يبدو أنى أكتب ــ وكأن هنـاك أهميـــة خاصـــة لبعض أعمالى ــ فانما أعنى انها ذات اهميـــة لى عند أية مناقشة قد أعرض لها خلالها . وانى لأعتقد ان قليلا جدا من الكتــاب الجادين ، وأقصد الكتاب الذين يكتبون فى الموضوعات الجدية ، يمكنهم ألا يحفلوا على الاطلاق بمصير أعمالهم بعد وفاتهم ، فانه لا يسر الكاتب أن يعتقد ان مؤلفاته مصيرها الخلود ، فالخلود بالنسبة للانتــاج الأدبى لا يدوم الا بضعة قرون ثم يختفى الا من قاعات الدرس ، وانما يسره أن يجد له مكانا ــ مهما يكن متواضعا ــ فى تاريخ الأدب ببلاده .

اما فيما يتعلق بي ، فاني انظر الى هذا الاحتمال المتواضع نظرة شك ، فلقد رأيت فى خلال حياتى كتابا أثاروا فى عالم الأدب ضجة لم ار مثلها أبدا ؛ ثم مضوا الىعالم النسيان ، اذ اننى عندما كنت صغيرا، كان يبدو لى أنه من المؤكد أنجورج ميريديث وتوماس هاردى مصيرهما الخلود ولكنهما الآن لم تعد لهما أهمية كبيرة بالنسبة للشباب . ومما لاشك فيه أنهما يجدان بين الحين والآخر ناقدا أدبيا يبحث عن موضوع مقال يكتبه مما يجعل احد القراء هنا أو هناك يستعير من احدى دور الكتب كتابا أو آخر لهما ؛ ولكننى أظن ان من الواضح أن ايا منهما لم يكتب شيئا سيتداوله الناس كما يتداولون « رحلات جاليفو » أو « تريسترام شاندى » أو « توم جونز » .

فاذا بدا انى فى الصفحات التالية أعبر عن نفسى فى شىء من التأكيد فانما يرجع هذا الى شعورى بأنه مما يجلب الملل الشديد ان يجد القارىء ان كل عبارة مسبوقة ب « أظن هذا » أو « يخيل الى » فان ما أذكره هو مجرد راى شخصى من حق القارىء أن يتقبله أو يرفضه ، فاذا استطاع أن يصبر على قراءة الصفحات التالية ، فسيجد أن الشىء الوحيد المؤكد لى هو أن الأشياء التى يمكن أن يكون الانسان على يقين منها قليلة جدا .

— ٦ —

عندما بدات الكتابة ، فعلت هذا كأنه أمر طبيعى ، ويمكن القول بأنى ألفتها ألفة البط للماء وما زلت حتى الآن مدهوشا لكونى أصبحت كاتبا ، لأنه لا يبدو ثمة سبب يبرر احترافى لمهنة الأدب الا وجود ميل اليها لا يقاوم ، ولست أدرى لماذا استبد بى مثل هذا الميل ، ذلك اننى انحدر من اسرة يمارس أفرادها الشئون القانونية منذ اكثر من مائة عام ، فطبقا لما ورد فى المعجم القومى لتاريخ السير ، كان جدى أحد الاثنين اللذين أسسا الجمعية القانونية المتحدة ، ولاتوجد قائمة طويلة بمؤلفاته القانونية فى سجلات المكتبة العامة بالمتحف البريطانى . وقد الف كتابا واحدا خارج نطاق الشئون القانونية ، وهو مجموعة المقالات التى نشرها فى المجلات المحترمة فى عهده ، وكان ينشرها بدافع من اللباقة بلا توقيع . وقد وقع هذا الكتاب فى يدى ذات مرة ، وكان جميلا متقن التجليد ، ولكنى لم اقرأه ، ولم استطع أن اظفر بنسخة اخرى منذ ذلك الحين ، وتمنيت لو استطعت ذلك ، لأنى ربما تمكنت من أن أعرف منه شيئا عن طباع واخلاق جدى هذا، فقد عاش سنوات عدة فى حى شانسرى لين لانه أصبح سكرتيرا للجمعية التى انشأها ، ولما اعتزل الحياة العملية ، واستقر فى منزل بحى « تنجستون جور » يطل على حديقة هايدبارك ، قدمت اليه هدية هى صينية فضية ، و «طاقمان» للشاى والقهوة واناء زينة فضى للمائدة كان من الضخامة وجمال النقش بحيث لم يدر أبناؤه ماذا يفعلون به . وقد ذكر لى محام عجوز كنت أعرفه فى صباى ؛ انه دعى ذات مرة وهو شاب مبتدىء لتناول العشاء مع جدى ، ولما وزعت اللحوم فى مستهل الطعام ، أحضر الخدم صحفة

من البطاطس المشوية بقشرها ، وهذا اللون من الطعام كان من الاطعمة القليلة اللذيذة الطعم ، ولا سيما اذا أضيف اليه كثير من الزبدة والملح والفلفل ، ولكن يبدو أن جدى لم يكن يرى هـذا ، فنهض من مقعده على رأس المائدة ، وتناول حبات البطاطس من صـحنه الخاص ، وراح يلقى بها الواحدة وراء الأخرى ، على كل لوحة من اللوحات المصـورة المعلقة بالجدران ، ثم جلس ـ بهدوء تام ـ واستأنف تناول الطعام ، وقد سألت صاحبى هذا المحامى العجوز عن اثر ذاك التصرف فى نفوس بقية المدعوين ، فقال لى انهم لم يحفلوا بالأمر ، وكأن شيئا لم يحدث. وقد ذكر لى ايضا أن جدى كان اقبح رجل ضئيل الحجم رآه ، ومن ثم ذهبت الى دار الجمعية القانونية المتحـدة فى « شانسرى لين » لأرى بنفسى : هل كان جدى دميم الشكل حقا الى هذا الحد ؟ ان كانت ثمة صورة له هناك ، وقد رأيتها .. واذا كان ما قاله المحامى العجوز حقا فلا شك أن المصور أعمل «فرشاته» واستغل فنه لتجميل جدى بقدر المستطاع ، اذ جعل له عينين جميلتين سوداوين تحت حاجبين أسودين تكاد تطل منهما نظرة ساخرة ، وفكين حازمين ، وأنف مستقيم ، وشفتان ناتئتان حمراوان . وكان شعره الاسود مشعثا بعض الشيء ، ولكنه ناعم كشعر سيدة ، وكان ممسكا بريشة للكتابة فى يده وبجانبه مجموعة من الكتب لاشك أنها مؤلفاته . وقد بدا لى ، رغم معطفه الأسـود ، انه اقرب الى الرجل المغرم بتدبير المقالب منه الى الرجل الوقور ـ كما كنت اتوقع ، وقد حدث منذ أعوام طوال وانا أمزق أوراق أحد ابنائه ـ عمى ـ بعد وفاته ان عثرت على مفكرة لجدى هذا كان يحتفظ بها وهو شاب فى مستهل القرن التاسع عشر ، وقد ذكر فيها أنه قام برحلة الى فرنسا والمانيا وسـويسرا ، وأذكر أنه حين وصف شـلالات الراين فى مدينة شانهوزين ، قدم الشكر الى الله القدير لانه « بخلقه لهـذا الشـلال المهيب » أتاح الفرصة لعباده المساكين أن يتبينوا تفاهتهم أمام روعـة « أعماله الكبرى » .

— ٧ —

لقد مات والداى وانا صغير .. كنت فى الثـامنة حين ماتت أمى ، وفى العاشرة عند وفاة أبى . وهـكذا لم تتح لى معـرفة الشيء الكثير عنهما الا بالسماع . وقد ذهب أبى الى باريس ليكون محاميـا بالسفارة البريطانية . ولست أدرى لماذا فعل هـذا الأنه كان مدفوعا بالقلق من المجهول مثل ابنه ؟ وكان له مكتب محاماة فى مواجهة مبنى السفارة بشارع نوبورج سان أو ثريه ، ولكنه كان مقيما فيما يسـمى يوم ذاك « افينو دانتين » . وهو شـارع واسع تحف بجانبيـه أشجار الكستناء ، ويمتد الى « روندبونيت » . وكان أبى رحالة عظيما فى ذلك الحين ، فسافر الى تركيا واليونان وآسيا الصغرى ، وجال فى مراكش حتى مدينـة فاس التى لم يكن قد زارها حينذاك الا عـدد قليـل من الناس ، وكانت لديه مكتبة ضخمة من كتب الرحلات ، وقد امتلأ مسكنه الخاص فى « أفينو دانتين » بألوان من الأمتعة والطرائف والتحف التى

عاد بها من رحلاته : تماثيل صغيرة من تنـاجرا ، ومصنوعات يدوية من رءوس ، وخناجر من تركيا فى جرابات مموهة بأسلاك الفضة ، وكان فى الأربعين من عمره عندما تزوج أمى التى كانت تصغره بأكثر من عشرين عاما ، وكانت وهى فتاة رائعة الجمال فى حين كان هو دميم الوجه الى حـد كبير ، وقد علمت أنهما كانا يعـرفان فى باريس يوم ذاك باسـم « الجمال والوحش » ، وكان أبوها يشتغل فى الجيش ، وقد مات فى الهند ، ثم استقرت أرملته ــ جدتى ــ بعد أن بعثرت الجانب الأكبر من ثروته فى فرنسـا حيث عاشت بقية حياتها معتمدة على معاشها ، واكبر الظن أن جدتى هذه كانت سيدة ذات شخصية قوية ، وربمـا كانت ذات مواهب ايضا ، لانها كتبت بضع روايات بالفرنسية للفتيات الصغيرات ، ووضعت بعض الالحان الموسيقية التى تعزف فى حفلات قاعات الاستقبال الراقصة ، ويسرنى أن اذكر ان رواياتها كانت تقرأ ، وان الحانها كانت تغنيها اوكتاف نوبلر المطربة المشهورة فى ذلك الحين ، ولدى صورة صغيرة لجدتى وهى تبدو فيها سيدة فى منتصف العمـر ترتدى تنورة مبطنة بسلك ، جميلة العينين ، مرحة السمات ، أما أمى فكانت صغيرة جدا ، واسعة العينين لونهما بنى ، وشعرها ذهبى مشرب بالحمرة ، وملامح رائعة ، وبشرة بديعة ، وكانت موضع الاعجاب الشديد. ومن بين صديقاتها كانت الليدى آنجليس ، وهى سيدة أمريكية ماتت منذ عهد قريب بعد أن عمرت طويلا . وقد ذكرت لى هذه السيدة ذات مرة انها قالت لامى « انك رائعة الجمال ، وكثير من النـاس يحبونك فلماذا تصرين على الوفاء لهذا الرجل الدميم الذى تزوجته ؟ » فقالت لها أمى : « انه لم يجرح مشاعرى أبدا » .

ان الخطاب الوحيد الذى رايته منها ، عثرت به بين أوراق عمى بعد وفاته ، وكان من رجال الدين ، وكانت تطلب منه أن يكون اشبينا لأحد أبنائها ، وقد عبرت له ببساطة وتقوى أنها ترجو أن تحل بركته على الصـلة التى تربطه بوليدها فيكون لهـا اثرها على المولود الجديد فينمو طيبا متدينـا يخشى الله . وكانت مشـغوفة بقراءة الروايات ، وتوجد فى قاعة البلياردو بمسكن فى شارع « ادنتين » خزانتان كبيرتان زاخرتان بالكتب والروايات ، وكانت مريضة بداء الصـدر . واتذكر أنى كنت أرى عددا من أتان الحمير تقف كل يوم بباب مسكننا لتزودها بلبن الجحوش الذى كان يعتبر يوم ذاك نوعا من العـلاج . وكنـا فى الصيف نسـتأجر ــ عـادة ــ بيتا فى دوفيل . ولم يكن فى ذلك الحين مصيفا رائعا ، وانما كان مجرد قرية صـغيرة للصـيد تحجبه روعة مصيف تروفيل . وفى المرحلة الأخيرة من عمرها كنا نقضى فصول الشتاء فى «بو» وفى ذات مرة ، وكانت راقدة فى الفراش بعد نزيف دموى عرفت منه أن النهـاية قريبة ، خطر لها أن أولادها حين يكبرون لن يعـرفوا كيف كان شكلها عند موتها فنادت خادمتها ، واستعانت بها على ارتداء ثوب سهرة من الساتان الابيض ، وذهبت الى أحد المصورين وكان لها ستة أبناء ، ثم ماتت فى اثناء الوضع . وكان الاطبـاء فى ذلك العهد يعتقدون أن الحمل والوضع مفيـدان للمريضات بالتدرن الرئوى ، وكانت فى الثامنة والثلاثين عند وفاتها .

وبعد موتها ، أصبحت خادمتها مربيتي ، وكانت مربياتي في ذلك الحين فرنسيات ، وقد ألحقت باحدى المدارس الفرنسية ، ولا شك أن معرفتي باللغة الانجليزية يوم ذاك كانت بسيطة ، وقد قيل لي انى هتفت بالفرنسية ذات مرة حين رأيت من نافذة القطار حصانا ، اذ قلت : « انظرى يا أماه .. هذا حصان »

واعتقد انه كان لأبى عقلية رومانية ، فقد أصر ذات مرة أن يبنى بيتا يقضى فيه مواسم الصيف ، فاشترى قطعة أرض على قمة تل ببلدة سورسينين ، وكان الواقف فيها يرى الوادى جميلا ، ويرى مدينة باريس من بعيد ، وكان ثمة طريق يفضى الى النهر الذى تقع على ضفته احدى القرى ، لقد كانت تشبه فيلاشيدت على مضيق البوسفور ، ذات سطح محاط بسياج من الزجاج . وكنت أذهب معه فى كل يوم أحد فى زورق يشق نهر السين لنرى تقدم مراحل البناء . ولما وضع السقف ، بدأ أبى يزوده بالمفروشات . وقد اشترى لهذا الغرض مدفأتين قديمتين وكميات كبيرة من ألواح الزجاج ، كما نقش على واجهته نقشا يمنع عنه « العين الشريرة » وكان قد اقتبس هذا النقش من مبانى مراكش ، أما لون الطلاء الخارجى ، فكان ابيض واطارات النوافذ حمراء ، وبعد أن مهدت الحديقة للزرع ، وفرشت الغرف للسكنى .. مات أبى .

— ٨ —

واخرجت من المدرسة الفرنساوية وبدأت اتردد كل يوم على شقة القس الانجليزى للكنيسة الملحقة بالسفارة البريطانية ؛ وكانت طريقته فى تعليمى اللغة الانجليزية ، هى أن يجعلنى أقرأ بصوت واضح الحوادث البوليسية بمجلة « ستراند » وما زلت أذكر شعورى بالفزع وأنا أقرأ تفاصيل جريمة قتل رهيبة حدثت فى القطار بين باريس وميناء كاليه . وأكبر ظنى أنى كنت فى التاسعة من عمرى يوم ذاك ، وقد ظللت فترة طويلة وأنا لا أحسن النطق بالكلمات الانجليزية ، ولست أنسى ضجيج الضحكات التى كانت تحز فى نفسى كلما تلعثمت فى نطق بعض العبارات الانجليزية .

وأذكر أنى لم أتلق غير درسين فى اللغة الانجليزية طوال حياتى ، فبرغم أنى كنت أكتب الموضوعات الانشائية بالمدرسة ، فاننى لا أذكر أنى تلقيت أية توجيهات عن طريق تركيب الجمل معا . وأما هذان الدرسان فقد تلقيتهما فى مرحلة متأخرة من حياتى بحيث أخشى القول بأنى لن أستفيد منهما كثيرا . أما الدرس الاول فكان منذ أعوام قليلة فقط ، ذلك أنى كنت أمضى بضعة أسابيع فى لندن ، فاستخدمت سيدة شابة لتكون سكرتيرة مؤقتة . وكانت على شىء من الحياء ، والجمال ، وغارقة الى أذنيها فى حب رجل متزوج ؛ وكنت قد فرغت من كتابة رواية عنوانها « كعك وبيره »وجاءت أصولها المنسوخة على « الآلة الكاتبة » ذات صباح ، فطلبت من السكرتيرة أن تتكرم وتحمل هذه الأصول الى بيتها لتصحح ما قد يكون بها من أخطاء النسخ فى أثناء

عطلة نهاية الاسبوع، وكنت أقصد فقط أن تكتب قائمة بالاخطاء الهجائية التى قد تكون وقعت من الناسخ ، وأن تشير الى الاخطاء الاخرى التى نشأت بسبب رداءة خط يدى التى لا تسهل قراءته دائما. ولكن يبدو انها كانت سكرتيرة مدبرة لها فأدركت أكثر مما كنت أقصد ؛ وهكذا حين جاءت بالأصول فى صباح يوم الاثنين ؛ احضرت معها أربع صفحات كبيرة زاخرة بالتصحيحات. وأعترف أنى شعرت بشيء من الاستياء لأول نظرة ، ولكنى أدركت انه من الحماقة الا أستفيد ، اذا أمكن ؛ من هذا الجهد الذى بذلته ، وهكذا جلست وشرعت أفحص التصويب. وأعتقد ان هذه السكرتيرة قد درست برنامجا جامعيا لفن السكرتارية ، وأنها تناولت روايتى بالتصحيح كما كان أساتذتها يتناولون موضوعاتها الانشائية ، فقد كانت ملاحظاتها التى ملأت بها الصفحات الأربع حازمة، وقاسية ، وأكبر ظنى أن أستاذ اللغة الانجليزية فى معهد السكرتارية لم يكن يعرف الهوادة أو الرحمة مع المخطىء ؛ كما بدا لى أنه كان لا يعرف من قواعد اللغة الانجليزية الا طريقا واحدا لا يحتمل النقاش او الجدل . ذلك أن تلميذته النجيبة لم توافقنى ابدا أن من الممكن وضع « حرف الاضافة » فى نهاية الجملة ، أما علامة التعجب فكانت تضيق بها اذا رأتها فى نهاية عبارة دارجة ، ويبدو انها كانت تكره أن ترى الكلمة الواحدة تتكرر مرتين فى الصفحة الواحدة ، وكانت على استعداد دائم لأن تضع مرادفا مكان الكلمة المتكررة ، واذا خطر ببالى أن استمتع بكتابة جملة مركبة تتكون من عشرة أسطر، كتبت عليها هذه الملاحظة « أوضح المعنى » يحسن أن تقسمها الى جملتين أو ثلاث قصار ، واذا رأيت أن التقط انفاسي ووضعت « شاولة مكان نقطة » وضعت هى مكانها « نقطة» فقط. واذا وضعت فاصلة ، كتبت بعنف « أبطل استعمالها » أما أقسى ملاحظاتها التى ارغمتنى على الضحك ، فهى قولها « هل أنت واثق من الحقائق التى أوردتها » وأكبر ظنى أن أستاذها ما كان ليمنحنى ، اذا وقع الكتاب فى يده ، درجات ممتازة .

أما الدرس الثانى فقد تلقيته على يدى عميد جامعى لطيف ذكى، كان مقيما معى فى أثناء تصحيحى لأصول كتاب آخر بعد نسخه على الآلة الكاتبة ، وقد تكرم وعرض على أن يقرأه قبل الطبع . وترددت .. فقد كنت أعلم انه يحكم على الكتاب من وجهة نظر ممتازة لا تبارى ؛ وبرغم أنى كنت أعلم أنه واسع الالمام بآداب عهد الملكة اليزابيث الا ان اعجابه الشديد بأسلوب الكاتبة «استر ووترز» جعلنى أشك فى ملاحظاته على انتاجنا العصرى ، فليس هناك من يكون على معرفة وثيقة بالرواية الفرنسية فى القرن التاسع عشر دون أن يقدر كتابة « استر ووترز » تقديرا عظيما ، ومع هذا فقد كنت مشوقا لأن أضيف على كتابى من التحسينات ما أستطيع ، ومن ثم كنت آمل أن أستفيد من نقده ، وأعترف أنه كان على جانب كبير من الرقة والتسامح ، وقد أثار نقده اهتمامى بوجه خاص ، لاننى لا أشك فى أنه عامل أصول الكتابة بالطريقة التى كان يعامل بها موضوعات طلبته الجامعيين . وأعتقد أنه كان يتمتع بموهبة طبيعية لغوية وكان من دأبه أن يعمل على تنميتها ، وكان يبدو لى أن تذوقه للغة لا غبار عليه . وقد ادهشنى كثيرا اصراره على

ان للكلمات المفردة قوة ، فهو يفضل الكلمة القوية المحددة للمعنى على الكلمة ذات الجرس والرنين . ومن الأمثلة على هذا انى كتبت أن « تمثالا سيوضع فى ميدان معين » فاقترح ان اكتب « ان التمثال سيقام فى الميدان » . وكنت كتبت كلمة «Placed» بدلا من كلمة «Stand» لأتجنب تجنيس الحروف فى بدء الكلمتين المتتابعتين وهما «Staud—Statue» ولاحظت أيضا أن من رأيه أن الكلمات لا تستعمل لموازنة الجمل فقط، وانما لموازنة الفكرة أيضا ، وانى اتفق معه فى هذا الرأى ، لان الفكرة قد تفقد تأثيرها اذا جاءت فى جملة مبتورة حاسمة ، ولكن الأمر يحتاج الى شىء من اللباقة حتى لا يؤدى الى اللغو ، وتوضيحا لما اقول، أذكر ما هو معروف عن الحوار المسرحى : فكثيرا ما يأتى الممثل الى المؤلف ويقول له : « الا يمكن أن تزيد عبارات هذا الحوار كلمة أو كلمتين فانى اشعر أن معنى الحوار سيضيع اذا لم أنطق ببضع كلمات أخرى »

وفيما أنا انصت الى ملاحظات العميد الجامعى ، لم يسعنى الا أن افكر فى مدى التحسينات التى كان يمكن أن تضاف الى كتاباتى الآن لو انى ظفرت فى ايام الشباب بمثل هذه النصائح التى تنم عن رحابة الصدر وسعة الأفق ورجاحة العقل .

- ٩ -

اما الذى حدث فهو انه كان على أن اعلم نفسى . وقد اعدت النظر فى القصص التى كتبتها فى بكور الصبا لكى اكتشف كيف كانت ميولى الطبيعية يوم ذاك ، وماذا كان فى جعبتى الذهنية قبل أن انميها بالتفكير، وقد وضح لى أن أسلوبى لم يخل من عجرفة . وربما كان عذرى فى ذلك هو صغر السن ، كما كان ينم عن نفاذ الصبر ، وهو نقص أو قصور طبيعى ولكنى اتحدث الآن فقط عن الطريقة التى بها عبرت عن نفسى . ويبدو لى أن أسلوبى كان يمتاز بالوضوح والصفاء ، وبالمهارة فى كتابه الحوار السهل .

وعندما قرأ هنرى آرثر جونز — وكان يوم ذاك كاتبا مسرحيا مشهورا — روايتى الاولى قال لاحد اصدقائه : اننى سأصبح فى يوم ما من انجح الروائيين فى العالم ، وأعتقد أنه رأى فى هذه الرواية قدرة على التصوير الذى يوحى بالنجاح فى التأليف المسرحى . وكانت لغتى فى الكتابة عادية ، ومحصولى فى الكلمات محدودا ، واتقانى لقواعد اللغة مهزوزا ، وعباراتى مبتذلة . ولكن الكتابة فى ذاتها كانت عملية طبيعية فى نفسى كعملية التنفس ، ولهذا لم أتوقف لأرى هل أكتب جيدا أو رديئا ، ولم اكتشف الا بعد سنوات عدة أن الكتابة فن جميل يحتاج الى جهد شاق لاتقانه ، ولم اكتشف هذه الحقيقة الا حين تبينت صعوبة التعبير عن المعنى بالكتابة . لقد كنت اكتب الحوار ببساطة وانسياب، ولكن عندما أواجه ضرورة كتابة صفحة وصف كاملة ، اجد نفسى

متعثرا في جميع انواع المآزق . وقد أجهد نفسي ساعتين في كتابة جملتين أو ثلاث دون أن أستطيع أن اقومها كما ينبغي ؛ ومن ثم قررت أن أعلم نفسي كيف أكتب . ومن سوء الحظ أنني لم أجد احدا يعاونني ، وهكذا كثرت أخطائي ، ولو أتيح لي يوم ذاك علامة جامعي لطيف كهذا الذي تحدثت عنه الآن ، لوفرت على نفسي كثيرا من الوقت . فمن المحتمل أن مثل هذا الموجه كان سيحدد الاتجاه المناسب لمواهبي فقد كان من العبث أن أحاول انتاج شيء لا يتفق مع ميولي ، ولكن القراء كانوا في ذلك الحين يعجبون بالأسلوب المنمق ، وكانت ثروة البناء الفني تعتمد على العبارات المرصعة والجمل العسيرة ذات التشبيهات الغريبة. وكان الأسلوب النموذجي هو الذي يبدو كنسيج حريري موشى بالكثير من الذهب حتي يقف متماسكا صلبا ، وكان القراء المثقفون من الشبان يقرءون بحماسة للكاتب « ولتربانز » ولكني أدركت بتفكيري السليم ان هذا الاسلوب لا قيمة له ، وانه يخفي تحت المظهر المزخرف المنمق شخصية ضعيفة مرهقة . أما أنا ، فكنت شابا قوي البنية ، نشيطا أريد الهواء الطلق ، والحركة ، والعنف . ومن ثم وجدت من العسير على أن أتنفس في ذلك الجو الراكد المنعم برائحة الصور البلاغية، وان أجلس في تلك الغرفات «الساكنة» التي لا يليق أن يتحدث فيها الناس الا همسا . وبرغم ذلك ، فاني لم أصل الى ما وصلت اليه بادراكي السليم ، وانما أقنعت نفسي بأن هذا الاسلوب الأدبي السائد هو ذروة الثقافة ، وهكذا أوليت العالم الخارجي ظهري في احتقار ، العالم الخارجي الذي يضج فيه الناس ويعربدون ويسكرون ! ورحت أقرأ كتب الأدب الجامد ، وروايات من نوع «صورة دريان جراي» وأعترف اني انتشيت بلون الكلمات الخيالية وندرتها التي تحتشد في كل صفحة من رواية «سالومي» . ولما صدمت بفقر محصولي في الكلمات الضخمة ذهبت الى المتحف البريطاني ومعي القلم والأوراق وشرعت أنقل أسماء الجوهرات الغريبة والزخارف البيزنطية المموهة بالميناء والملمس الحسي للمنسوجات ، وكونت منمقة للتعريف بهذه الكلمات ، ولحسن الحظ لم تتح لي أية فرصة لاستغلال هذه العبارات ، وهي لا تزال راقدة في كراسة قديمة تحت أمر أي شخص يريد أن يكتب كلاما فارغا .

وكان المعروف يوم ذاك أن الترجمة الرسمية للكتاب المقدس، هي أرفع ما وصل اليه النثر في اللغة الانجليزية ،فقرأتها بامعان ، ولا سيما « تشيد الانشاد » لسليمان ، وكنت أنقل في كراستي بعض العبارات التي تستهويني لاستخدامها في المستقبل، كما كنت أضع قوائم بالكلمات الغريبة أو الجميلة ، وكذلك درست كتاب جريمي تايلور « الموت المقدس » ولكي أتمثل أسلوبه ، كنت أنسخ منه صفحات ثم أحاول اعادة كتابتها من الذاكرة .

وكانت الثمرة الأولى لهذا الجهد ، هي كتاب صغير عن الاندلس أسميته « أرض العذراء المباركة » وقد أتاحت لي الفرصة أن اقرأ صفحات منه منذ عهد قريب ، واني لأعرف الآن بلاد الاندلس أكثر كثيرا مما كنت اعرفها يوم ألفت الكتاب ، وهكذا غيرت رأيي في أشياء

كثيرة مما كتبت ، ولما كان الكتاب قد وجد له سوقا ذات نطاق ضيق فى أمريكا ، فقد رأيت انه جدير بالتنقيح ، ولكنى وجدت هذا مستحيلا، فقد تبينت كأن الكتاب كتبه شخص نسيته تماما . وقد أسأمتنى محاولة التنقيح الى حد محير . والمهم الآن هو الأسلوب الذى كتبت به ذلك الكتاب ، فقد كتبته باعتباره تدريبا على أسلوب منمق جذاب فيه مادة تثير التفكير أو مجالا لاختيار كلمة بدل أخرى ، وكانت له على الجملة رائحة النباتات النامية فى الخزائن الزجاجية ، ونكهة الطعام فى أمسيات الآحاد . انه مفعم بالنعوت المنغمة والكلمات العاطفية وانه لا يذكر الانسان بالنسيج الحريرى الايطالى المطرز بالذهب ، وانما بقماش ستائر وضع تصميمه بيرن جونز ، ونسجه موريس !

— ١٠ —

لست أدرى هل هو الشعور الباطنى الذى جعلنى أدرك أن هذا الأسلوب فى الكتاب لا يتفق وميولى ، أو هو التفكير المتزن الذى دفعنى الى الاتجاه نحو كتاب عصر « أوغسطس » لقد فتننى نثر «سويفت». ومن ثم قررت أن هذه هى الطريقة المثلى للكتابة ، فشرعت فى دراسته بالطريقة نفسها التى اتبعتها فى دراسة «جيريمى تايلور» ، ووقع اختيارى على كتابة «حكاية برميل» فقد قيل ان سويفت حين أعاد قراءة هذا الكتاب فى أواخر أيامه ، هتف قائلا «ما أعظم عبقريتى يوم ذاك» ولكنى أعتقد أن عبقريته كانت أروع فى كتب أخرى ، فان استعاراته مثيرة للملل ، ولواذعه مكشوفة ، ولكنه رائع الأسلوب ، ويخيل الى أنه لايمكن لأحد أن يكتب أفضل من هذا الأسلوب باللغة الانجليزية ، فانك لن تجد فيه هذه العبارات المزخرفة ولا الجمل الخيالية الملتوية ، ولا الصور الطائرة ، وانما هو فتى متحضر ، طبيعى ، محكم ، سديد ، انه خال تماما من هذه المحاولات المراد بها ادهاش القارىء بالكلمات الحوشية ، والمعانى المولدة . وقد يبدو كأن سويفت يستخدم فى التعبير أول كلمة تخطر بذهنه . ولما كان يتمتع بذهن منطقى دقيق ، فقد كانت الكلمة التى تخطر له هى الكلمة المناسبة . وكان يضعها فى المكان المناسب ، وترجع قوة عباراته وتوازنها الى ذوق أدبى رفيع ،وكما فعلت من قبل فقد نسخت صفحات كاملة منه ثم حاولت اعادة كتابتها من الذاكرة ، وكذلك حاولت أن أستبدل بعض الكلمات أو أغير مواضعها ، ولكنى وجدت أن الكلمة التى أختارها «سويفت» غير قابلة أبدا للتبديل بأخرى، أو لتغيير أوضاعها ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على أنه نثر محكم لاخطأ فيه .

ولكن لمثل هذا النثر المحكم عيبا واحدا خطيرا ، هو احتمال اثارته للملل . فأسلوب «سويفت» يشبه القناة الفرنسية التى تحف بها أشجار الحور ، وتجرى فى ارض سهلة مستوية . ان سيرها الهادىء يفعم نفسك بالرضا ، ولكنه لا يثير انفعالاتك، ولا يحرك خيالك ، فأنت تمر على القناة فتجد السأم قد أصابك بعض الشىء ، وهكذا ، بقدر

ما تفتتن بوضوحه الرائع وأناقة تعبيره ، وطبيعته ، وعدم تكلفه، فانك لن تلبث أن تجد انتباهك ينحرف الى أشياء أخرى الا اذا كان الموضوع يهمك بالذات . وأعتقد أني لو عدت الى ذلك العهد مرة أخرى ، لبذلت من الجهد فى دراسة أسلوب الكاتب « درايدن » مثل الذى بذلته مع «سويفت» . ولكننى لم ألتق بكتبه الا بعد أن نفضت يدى من هذه المحاولات المضنية . وأن نثر درايدن لممتع .. وبرغم حرمانه من احكام نثر سويفت ورشاقة أسلوب أديسون ، فانه موفور ببهجة ايام الربيع، وسهولة الفهم وبشاشة التعبير الى حد الانتشاء . وقد كان درايدن شاعرا مجيداً ، ولكن شاعريته لا ترجع ، كما هو شائع عنه ، الى ملكته الغنائية وانما الى الايقاع الموسيقى الجميل الذى يبدو فى نثره المتألق المنساب .

ان احدا فى انجلترا لم يكتب مثل هذا النثر من قبل. وقلما كتب احد مثله من بعد . لقد ازدهر درايدن كاللحظة السعيدة ، فقد كانت تسرى فى دمائه اهازيج النثر فى مختلف العصور . وقد استطاع بتأثير الرشاقة وسلاسة التعبير اللذين تعلمهما عن الفرنسية ان يستخدمهما فى الموضوعات الحديثة ، وفى التعبير ايضا عن الافكار الخفيفة فى اللحظة العابرة . لقد كان درايدن أول فنانى مذهب «الركوكو» . واذا كان سويفت يذكرك بالقناة الفرنسية فان درايدن يذكرك بالنهر الانجليزى الذى يتسع مجراه المرح حول التلال وخلال المدن الهادئة المزدحمة ، والقرى الهاجعة ، ثم يتوقف برهة ، فى مرتفع رفيع ، ثم يعود مندفعا فى ارض مكسوة بالغابات . انه موفور الحيوية ، متنوع النشاط ، واسع الانتشار ، له رائحة نسيم انجلترا الطلق المنعش .

ولا شك ان هذا الجهد الذى بذلته أفادنى الى حد كبير، فقد بدأت احسن الكتابة ، ولكن ليس الى حد الاجادة . كنت أكتب بجمود ووعى ذاتى . وقد حاولت أن أجعل لعباراتى طابعا خاصا ، ولكنى لم أنجح فى أن أجعل هذا الطابع واضحا . وحاولت أن أعنى بكيفية ترتيب كلماتى ، ولكن لم يخطر ببالى أن الأسلوب الذى كان أمرا طبيعيا فى أوائل القرن الثامن عشر لم يعد طبيعيا فى أوائل عصرنا هذا . ان محاولاتى للكتابة على نمط سويفت جعلت من المستحيل على أن أبلغ ما بلغه من قوة واحكام ، وهو الشىء الذى كان موضع اعجابى به . ومن ثم كتبت مجموعة من المسرحيات ، ولم أعد أشغل نفسى بشىء الا بالحوار. ولم أعد الى كتابة الرواية الا بعد مرور خمس سنوات ، ولم يكن لدى عندئذ أى طموح فى أن أكون من اصحاب الاساليب ، وعدلت عن كل تفكير فى الكتابة المنمقة ، لقد أردت أن أكتب بدون تزويق لغوى ، أى بأسلوب سهل بسيط بقدر الامكان ، فقد كان لدى الكثير مما أريد أن أقول بحيث لا استطيع بعثرة الكلمات فيما لا يجدى . وكان كل همى الا أسجل الا الحقائق . وبدأت الكتابة واضعا نصب عينى هذا الهدف المستحيل، وهو أن أتجنب استعمال النعوت والاوصاف، وكنت اعتقد ان الكاتب اذا استطاع أن يعثر على الكلمة المحدودة ، فمن الممكن أن يتحرر من استعمال النعوت لتوضيحها . وكنت أرى — بعين خيالى — أن كتابى سيكون أقرب شىء الى البرقية «المطولة» التى تحذف منها كل كلمة

لا تلزم لتوضيح المعنى توفيرا للنفقات . ولما فرغت منه ، لم أقرأه بعد أن صححت تجاربه المطبعية ، ومن ثم لا أدرى الى أى حد حققت ماكنت أحاول ، وكل ما كنت أشعر به — على الاقل — هو أنى كتبته بطريقة أكثر طبيعية وبساطة من أى شىء آخر سبق أن كتبته ، ولكنى مع هذا أستطيع القول بانه لم يكن يخلو من اخطاء كثيرة ، بل انى لأستطيع القول بأنه كان به عدد كبير من الاخطاء النحوية .

وقد ألفت منذ ذلك الحين كتبا كثيرة ، ولكنى برغم انقطاعى عن دراستى المنهجية للأساتذة القدامى ، « وذلك لأن الروح تريد ولكن الجسد ضعيف » ، فقد واصلت بمثابرة متزايدة محاولة تحسين كتابتى ، واكتشفت أخيرا حدود جهدى، وبدا لى أنه ليس أفضل من أن أستهدف الكمال فى نطاق هذه الحدود . وادركت أنى لا اتمتع بملكة موسيقية فى الأسلوب ، وأن محصولى من الكلمات بسيط ، وأن كل جهودى التى بذلتها لزيادة هذا المحصول لم تجد ، وكذلك كنت أعرف ان قدرتى محدودة فى ابتكار التشبيهات، وقلما تخطر ببالى الاستعارات المبتكرة المثيرة اما التهويمات الشعرية والانطلاق فى آفاق الخيال الرحيب فهما أبعد ما يكونان عن قدرتى ، اننى قد أعجب بهما فى غيرى ، كما قد أعجب بالكفايات والنسيج اللغوى العجيب الموحى الذى يغلفون به أفكارهم ، ولكنى مع هذا لم أستطع قط أن أجاريهم فى هذا الأسلوب المزخرف . وقد مللت بذل المحاولات فيما ليس فى وسعى أن أفعله . ومن ناحية اخرى كانت لى قدرة دقيقة على الملاحظة، وبدا لى انى أستطيع رؤية اشياء كثيرة يغفل عن رؤيتها غيرى ، وأن فى مقدورى التعبير بوضوح عما أرى ، وان لى احساسا منطقيا ، واذا كنت محروما من الاحساس القوى بروعة الكلمات وغرائبها ، فانى لست محروما على أية حال من القدرة على تذوق رنينها ، وادركت انى أستطيع أن أبلغ الاجادة فى الكتابة كما أتمنى ، ولكنى تبينت بأسف أنى لن أستطيع أن أحسن الكتابة فى نطاق مقدرتى المحدودة ، وانه ليبدو لى انه يجب أن استهدف فى كتابتى الوضوح والبساطة وحسن الجرس. وقد رتبت هذه الأهداف الثلاثة على أساس أهميتها فى اعتبارى .

- ١١ -

اننى لم أطق يوما هؤلاء الكتاب الذين يطالبون القارىء ببذل الجهد فى فهم معانى كتابتهم . وما عليك الا أن تقرأ للفلاسفة الكبار حتى تدرك أنه من الممكن التعبير عن أدق الخلجات النفسية بوضوح وجلاء . وقد تجد من العسير عليك أن تفهم آراء الفيلسوف « هيوم » ومالم تكن ذا دراية بالفلسفة ، فمما لاشك فيه أن مضمون هذه الآراء سيند عن فهمك . ولكن ليس ثمة انسان ، أيا كانت درجة ثقافته يعجز عن فهم معنى كل عبارة فى كتابات الفيلسوف « بيركلى » فهما تاما . وأعتقد أن قليلا من الكتاب الانجليز استطاعوا أن يجاروه فى وضوح الاسلوب وصفاء العبارة . وهناك نوعان من الغموض فى الكتابة : أحدهما يرجع

الى التهاون والآخر يكون مقصودا . والناس عادة يكتبون بغموض لانهم لايريدون أن يشقوا على أنفسهم بدراسة الوسائل التى تتيح لهم القدرة على الكتابة بجلاء . وهذا اللون من الغموض والتعقيد تلمسه عادة فى ادب الفلاسفة المحدثين ، وفى أساليب رجال العلم ، بل فى كتابات نقاد الادب ، وهذا هو أعجب ماق الامر . فالمفروض أن يكون الناقد الذى يقضى حياته فى دراسة أدب النوابغ ، شديد الاحساس بجمال اللغة بحيث أنه اذا لم يستطع الكتابة بأسلوب جميل ، فليكتب على الاقل بوضوح وجلاء . ومع ذلك فانك تجد فى كتابتهم عبارات يجب أن تقرأ مرتين لكى تكتشف معناها ، وغالبا ماتفهمها بالتخمين فقط ، لانالكاتب فى الواقع لم يستطع التعبير عما يريد .

وثمة سبب آخر للغموض ، هو أن الكاتب ليس واثقا من المعنى الذى أراد التعبير عنه . ان لديه فكرة غامضة عما يريد أن يقول ؛ ولكنه لقصر فى قواه الفكرية ، أو لكسله ، لايصوغها صياغة دقيقة ، وهكذا يعجز ، بطبيعة الحال ، عن التعبير بوضوح عن فكرة مضطربة . ويرجع هذا الى حد كبير ، الى أن الكثيرين من الكتاب لايفكرون قبل الكتابة ، وانما فى اثنائها فالقلم لديهم هو الذى يولد الفكرة . ولكن العيب فى هذا بل فى الواقع ، الخطر الذى ينبغى أن يتحاشاه الكتاب ، هو أن ثمة لونا من السحر فى الكلمة المكتوبة . ان الفكرة تستمد مادتها عندما تتخذ طبيعة منظورة ، ولكنها فى الوقت نفسه تقف فى طريق توضيحها . على أن هذا النوع من الغموض يظهر بسهولة عند ما يكون مقصودا . وبعض الكتاب الذين يفكرون بوضوح يميلون الى الاعتقاد بأن لآرائهم معانى أعظم مما يبدو من النظرة الاولى . وهم يشعرون بالزهو لاعتقادهم أن آراءهم أعمق من أن يعبر عنها بوضوح بحيث يفهمها عنهم كل من «هب ودب » . ومن الطبيعى انه لايخطر ببال هؤلاء الكتاب أن الخطأ كان فى عقولهم المحرومة من القدرة على التفكير الدقيق . وهنا مرة أخرى يبرز سحر الكلمة المكتوبة فليس أسهل على الانسان من أن يقنع نفسه بأن العبارة التى قد لايستطيع فهم معناها تماما قد تنطوى على معان اكثر مما يدرك . وعندئذ يقترب الكاتب من الوقوع فى قبضة عادةالتعبير عن آرائه بكل غموضها الاصلى . ولايخلو الامر عادة من وجود مغفلين يكتشفون فيها معانى خفية .

وهناك نوع ثالث من الكتاب يتعمدون الغموض فى التعبير ، وتعبيرهم ينطوى على شعور ذاتى بالارستقراطية الفكرية . ومثلهؤلاء الكتاب يغلفون معانيهم بالغموض حتى لايتيحوا للدهماء فرصة قراءتها أن أفكارهم هى جنة خفيةلايجوز دخولها الاللصفوة الذين قد يستطيعون الوصول اليها بعد التغلب على عدد من العقبات الخطرة . وهذا النوع من الغموض ليس تكلفا فحسب ، وانما هو أيضا دليل على قصر النظر ، ذلك لان الزمن يسخر منهم عادة ، فاذا كانت كتابتهم تافهة المعانى ، فانها تصبح على مر الزمن ثرثرة لامعنى لها ، ولايخطر ببال أحد أن يقراها ، وهذا هو المصير الذى انتهى اليه الانتاج الذهنى للكتاب الفرنسيين الذين حاولوا السير على نهج جيوم أو فولتير . ولكنه أى الزمن ، قد يرسل أحيانا أضواءه الباردة الساطعة على هذا الانتاج الذى

كان يبدو « عظيما » ، فيكشف أن الاستار اللغوية لاتحجب الا المعانى التافهة . ولا يوجد غير القليل من أشعار مالارميه التى لم تعد واضحة الآن ، ومن السهل على الانسان أن يلاحظ أن أفكاره كانت تنقصها الاصالة بشكل واضح ، لقد كانت بعض عباراته تتسم بالجمال ، ولكن مادة اشعاره كانت من التفاهات الشعرية السائدة فى عصره .

- ١٢ -

أن البساطة ليست ميزة واضحة كالصفاء . وقد استهدفت البساطة لاني محروم من فخامة البيان اللغوى . ورغم اعجابى المحدود بهذه الفخامة التى يتمتع بها الغير ، فاني أراها عسيرة الهضم فى مجموعها فأنا أستطيع أن اقرأ صفحة واحدة لراسكين فى متعة وانتشاء ولكنى أزهق اذا قرأت عشرين صفحة . حقا ان فى العبارة الملفوفة وجزالة التعبير ، والكلمة التى تثير تداعيا شعريا للمعانى ، والعبارات التى تضفى رونقا وجلالا ، والفخامة التى تشبه الموجة تتبع الموجة فى البحر المتسع ، دليلا على مالدى الكاتب من ايحاء والهام . فمثل هذه الكلمات المنظومة على هذا النمط يكون لها فى الآذان وقع الموسيقى ، ولكن أثرها أقرب الى المتعة الحسية منه الى اللذة العقلية ، فان جمال ايقاعها يدفع الانسان فى سهولة الى عدم الاهتمام بمعانيها . غير أن للكلمات طابعا استبداديا ، وهى لم توجد الا للتعبير عن معانيها ، فاذا أنت لم تنتبه الى هذه المعانى فانك لاتستطيع أن تنتبه الى شيء على الاطلاق . وهكذا يشرد ذهنك . ومثل هذا اللون من الكتابة يحتاج الى موضوعات خاصة تناسبه ، فمن خطأ الرأى أن يكتب الانسان بمثل هذه الجزالة فى موضوعات تافهة . ولم يستطع كاتب أن يكتب بهذه الطريقة بنجاح كبير أكثر من السير « توماس براون » . وحتى هو لم ينج من الوقوع فى هذا المزلق . ففى آخر فصل من كتابه « هيدروثانيا » تبدو مادة الموضوع ـ وهى تتعلق بمصير الانسان ـ متناسبة مع القالب اللغوى الفخم ، وفيه يقدم أحد شخوص الكتاب « وهو الطبيب النرويجى » مقطوعة من النثر ليس لها مثيل فى الادب الانجليزى ، ولكنه حين أراد أن يصف عثوره على قواريره بنفس هذه الروعة والجزالة كان التأثير ـ بالنسبة لذوقى على الاقل ـ أقل امتاعا ، ومن حقك أن تشعر بالنفور والاشمئزاز اذا حاول كاتب معاصر أن يستخدم هذا الاسلوب الفخم الضخم ليصف لك كيف تذهب احدى الغانيات التافهات الى الفراش مع شاب عادى .

ولكن اذا كانت جزالة الاسلوب تستلزم مواهب لايتمتع بها كل كاتب ، فان البساطة بغير شك ليست موهبة طبيعية ، فان اكتسابها يحتاج الى التدريب الدقيق . وأكبر ظنى أن اللغة الانجليزية هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تحتم اطلاق اسم على مقطوعة نثرية كالمقطوعة القرمزية . وماكان هذا ضروريا مالم تتميز المقطوعة بطابع خاص . فالنثر الانجليزى أقرب الى البهرجة منه الى البساطة . ولم يكن هذا حاله دائما ، فليس هناك أكثر أصالة واستقامة ووضوحا من نثر

« شكسبير » ولكن ينبغي أن نذكر ان نثره هذا كتب ليكون حوار النطق على خشبة المسرح. ونحن لانعرف كيف كان يمكن ان يكتب لو انه وضع – مثل كورتيه – مقدمات لمسرحياته ، فربما جاء اسلوبه فى أناقة التعبير التى كتب بها رسائل الملكة اليزابث، ولكن النثر السابق، مثل نثر السير توماس مور – مثلا – غير مثقل بالبهرجة والزخارف والمحسنات اللفظية بوجه عام .. انه يتجاوب مع الطبيعة الانجليزية ، وفى رأيى أن اسلوب الترجمة الانجليزية للكتاب المقدس التى اجازها الملك جيمس ، كان له اثر سيء جدا على النثر الانجليزى . وأنا لست غبيا الى حد انكار مافيه من جمال ، فهو من هذه الناحية رائع ، ولكن الكتاب المقدس كتاب شرقى ، كما أن صوره اللفظية الاجنبية غريبة عنا ، وكذلك أيضا مافيه من روائع التشبيهات ولا يسعنى الا الاعتقاد بأن من بين المساوى التى تغلغلت فى الحياة الروحية بسبب تدخل باباوات روما ، هى أن هذا الكتاب أصبح الكتاب الذى يقرؤه الناس كل يوم ، بل الكتاب الوحيد بالنسبة للكثيرين منهم ، أجيالا عدة ، فان مافيه من ايقاع موسيقى ، ومافيه من قوة تعبيرية وجزالة أصبح جزءا لايتجزأ من الذوق الادبى العام ، وهكذا تغلبت ألوان البهرجة على اللغة الانجليزية البسيطة الواضحة ، بل أن الاشخاص الانجليز أصبحوا يلوون الحديث على طريقة الانبياء العبريين . ولاشك أن هناك سببا لهذا التجاوب بين العقلية الانجليزية وهذا اللون من الكتابة . ولعله راجع الى نقص فى دقة التفكير لدى الانجليز ، أو الى هذه البهجة الساذجة بالالفاظ الرشيقة فى ذاتها ، أو الى شغف خفي بألوان البهرجة . فأنا فى الواقع لاأدرى ، ولكن الحقيقة تظل باقية ، وهى أن النثر الانجليزى كان عليه أن يكافح منذ ذلك الوقت الميل الى ألوان البيان والبديع . وكلما استطاعت روح اللغة أن تثبت وجودها بين الحين والآخر ، كما حدث فى عهد درايدن وغيره من الكتاب فى عهد الملكة آن ، اذا بها تعود لتغرق تحت بهار جيبون ، والدكتور جونسون . ولما استرد النثر الانجليزى مرة أخرى بساطته وصفاءه فى عهد هازليت ورسائل شيللى وتشارلس لامب فى مجده ، عاد ففقدها مع دى كوينسى ، وكارليل ، وميريديث ، وولترباتر . وانه لمن الواضح أن الاسلوب البيانى الفخم أسطع من الاسلوب العادى ، بل ان كثيرا من الناس يعتقدون أن الاسلوب الذى لايلفت النظر ، ليس أسلوبا على الاطلاق . انهم يعجبون بأسلوب وولتر باتر ، ولكنهم يقرءون مقالة بقلم ماتيو أرنولد دون أن يحفلوا بالجهد الذى بذله لكى يقدم اليهم أفكاره فى أسلوب واضح جميل بسيط .

ان المبدأ القائل بأن الاسلوب هو شخصية الكاتب ، معروف للجميع . ولكنه احدى « العبارات المأثورة » التى تنطوى على معنى واسع ، فأين شخصية جوته ! هل هى فى أهازيجه التى تشبه أغاريد الطيور ، أم فى نثره السمج ؟! وأين هازليت فى انتاجه ؟ على أنى أعتقد ان الرجل ذا العقلية المضطربة ، لابد أن يكتب باضطراب . فاذا كان هوائيا جاء نثره خياليا . أما اذا كان ذا ذهن ذكى سريع الفهم ، قادر على الاحاطة بمئات الاشياء المتعلقة بالموضوع الذى يفكر فيه ، فانه سيحشو صفحاته بالتشبيهات والاستعارات مالم يكبح جماح نفسه الى

حد كبير . ان هناك اختلافا ضخما بين فخامة أسلوب الكتاب فى عهد الملك جيمس الاول الذين كانوا منتشين بالثروة اللفظية الجديدة التى هبطت على اللغة ، وبين المبالغات البيانية فى أسلوب جيبون والدكتور جونسون اللذين كانا من ضحايا النظريات الرديئة . اننى أستطيع أن أقرأ كل كلمة كتبها الدكتور جونسون فى بهجة وسرور ، لانه كان متمتعا بذوق جميل ، وبجاذبية وبديهة حاضرة ، وأعتقد أنه ليس هناك من يفضله فى الكتابة لو لم يتعمد الكتابة بأسلوب فخم . لقد كان يعرف اللغة الانجليزية الجيدة حين يراها ، ولم يمتدح ناقد نثر درايدن كما ينبغى مثلما امتدحه جونسون ، فقد قال عنه « ان الفن فى نثره ليس الا القدرة على التعبير بوضوح عما يفكر فيه بحماسة » وقد أنهى احدى السير التى كتبها بهذه الكلمات « ان الذى يريد أن يصل الى كتابة أسلوب انجليزى مألوف فى غير سخف ، ورشيق فى غير بهرجة ، فعليه أن يوفر الايام والليالى لقراءة مؤلفات أديسون » .

ومع ذلك فانه ـ أى هذا الناقد نفسه ـ حين يجلس ليكتب ، فانما يكتب بأسلوب مغاير تماما ، كأن يخطىء فيحسب الجعجعة طحنا فقد كان محروما من الذوق الأدبى الذى يجعله يفهم أن البساطة والطبيعة هما أصدق الأدلة على الكفاية والمقدرة .

ولكى تكتب نثرا جيدا ، ينبغى أن تكون على ذوق مهذب ، لان النثر بعكس الشعر من الفنون المدنية ، أما الشعر فهو قالب خاص .. قالب درامى ضخم غامض . انه يستلزم عمقا وسعة فى الخيال . اننى لاأشعر الا أن كتاب عصر البيان ، أى المؤلفين فى عهد الملك جيمس الذين نقلوا الكتاب المقدس الى اللغة الانجليزية : سير توماس براون ، وجلانفيل وغيرهما ، هم فى الواقع شعراء ضلوا الطريق . أما النثر فهو فن دقيق أصيل ، انه فى حاجة الى الذوق أكثر من حاجته الى القوة ، والى اللباقة منه الى الالهام ، والى الحركة منه الى الفخامة . والقالب الفنى بالنسبة للشاعر هو السرج والعنان اللذان لايستطيع بدونهما أن يركب جواده مالم يكن بهلوانا . أما بالنسبة للناثر ، فهو « هيكل » السيارة التى لاوجود لها بدونه . وليس من المصادفة فى شىء أن يبلغ النثر ذروة القوة فى العصر الذى بلغت فيه فنون التطريز والنمنمة روعتها وعظمتها وقد بدأ هذا العهد فى الوقت الذى أخذ الناس فيه يضيقون بالمظاهر الجوفاء ، والابهة الفارغة . وكان هذا الاتجاه تعبيرا طبيعيا من أشخاص يقدرون الحياة المتحضرة ، وكانت روح المرح والاناة والذوق الحسن قد جعلت الموضوعات الدرامية الكبيرة التى شغلت الناس فى النصف الاول من القرن السابع عشر تبدو مضحكة .. وكانت الدنيا قد أصبحت مكانا أكثر راحة للحياة ، ربما لاول مرة منذ أجيال عدة ، مما مكن للطبقات المثقفة أن تستمتع بوقت فراغها . وقد قيل ان النثر الجيد يجب أن يشبه حديث الرجل الكريم المحتد ، وأن الاحاديث الطيبة لاتتبادل الا بين أشخاص خلت عقولهم من القلق ، كما ينبغى أن يكون هناك ضمان معقول لمعيشتهم مع خلو حياتهم من الهموم الثقيلة ، فان مثل هؤلاء الاشخاص يكون اهتمامهم موجها الى ألطاف المدنية ، مع تقديرهم الحتمى لدماثة الخلق ، ولمظهرهم العام « ألم تسمع أيضا أن

النثر الجيد كملابس الرجل الأنيق .. جيدة التفصيل فى غير خلاعة » انهم يحرصون على أن يكونوا فى لطف لايثير الملل ، وألا يتبسطوا الى حد التهريج ، أو يتزمتوا الى حد الجمود ، وانما يكونون بارعين دائما ، كما يجب أن ينظروا الى « المبالغة » بعين نافذة . هذه هى البيئة المناسبة لازدهار النثر ، فلاعجب اذن أن كانت الاساس الذى مهد لظهور أعظم كتاب النثر فى العصور الحديثة ، وأعنى به « فولتير » . أما كتاب الانجليز ، فان السبب الذى جعلهم قلما يصلون الى مستواه انما يرجع الى منافى لغتهم من طبيعة شاعرية ، وبقدر مايبلغون من سهولة التعبير ورصانته ودقته ، كما هو الشأن عند كبار الكتاب الفرنسيين ، بقدر مايظفرون بالاعجاب .

- ١٣ -

وأيا كان رأيك فى أهمية التطريب فى الاساوب وهو احد الخصائص الثلاث التى سبق ذكرها، فانه يعتمد عادة على رهافة الاذن. ولكن الكثيرين من القراء – ومن نوابغ الكتاب – لايتمتعون بهذه الرهافة ، ونحن نعرف أن الشعراء يستغلون على نطاق واسع تجنيس الحروف لانهم مقتنعون بأن لتكرار الصوت وقعا جميلا . ولكنى لا أعتقد أن الامر هكذا مع النثر ، فانه يبدو لى ان تجنيس الحروف لايجوز فى النثر الا لاسباب خاصة ، فهو اذا جاء عفوا ، كان له فى الاذن وقع سىء جدا . ولكن كثرة مجيئه عفوا جعل الناس يظنون أن رنينه ليس رديئا على وجه العموم . فان كثيرا من الكتاب يضعون كلمتين من وزن واحد جنبا الى جنب دون مبالاة ، أو يضعون صفة طويلة ثقيلة بجانب اسم طويل ثقيل ، أو يحشرون بين نهاية كلمة وبداية كلمة أخرى مجموعة من حروف عطف ساكنة تكاد تكسر الفك عند القراءة ، وهذه صفات وأمثلة واضحة أذكرها فقط لأبين أن الكتاب الحريصين الذين يرتكبونها ، انما يفعلون هذا لحرمانهم من حساسية الاذن ، فان للكلمات وزنا ، ورنينا ، ومظهرا فاذا أنت أدركت أهمية هذه الحقيقة استطعت أن تكتب عبارات جميلة المظهر أمام العين ، عذبة الرنين فى الاذن .

لقد قرأت كثيرا من الكتب عن النثر الانجليزى ، ولكنى وجدت أن من العسير الاستفادة منها، ذلك لانها، فى الاغلب، غامضة، ونظرية جدا، وسليطة فى الغالب ، ولكنك لاتستطيع أن تقول هذا كله عن معجم « فاولر » فى استعمال الانجليزية ، فهو كتاب قيم ، ولاأظن أن هناك من يجيد الكتابة دون أن يستفيد منه كثيرا ، وهو أيضا ممتع لمن أراد أن يقرأ ، فان فاولر يحب البساطة ، والوضوح ، والتزام المنطق ولايطيق التكلف . وقد كان لديه احساس سليم بأن العبارات الاصطلاحية هى أساس اللغة ، كما كان دائما يؤثر العبارة الاصيلة ، ولم يكن اعجابه بالمنطق يستعبده ، وكان على استعداد لان يبيح استخدام العبارة فى نطاق النحو السليم . والمعروف أن قواعد اللغة الانجليزية عسيرة معقدة ، وأن قليلا من الكتاب هم الذين استطاعوا تجنب الوقوع فى أخطائها ، وحتى الكاتب الحريص

مثل هنرى جيمس ـ مثلا ـ كان يرتكب أحيانا فى قواعد اللغة من الاخطاء مايسخط أستاذ اللغة فى مدرسة ثانوية لو انه رأى مثلها فى موضوع انشائى لأحد التلاميذ . ان معرفة قواعد اللغة أمر ضرورى ومن الافضل أن تكتب طبقا لهذه القواعد من أن تكتب خطأ . ولكن ينبغى أيضا أن تذكر أن قواعد اللغة ليست الا تنظيما للحديث العادى ، وأن اختيار صلاحيتها الوحيد لايكون الا باستعمالها ، وأنا أفضل العبارة السهلة الطبيعية ، على العبارة النحوية . ومن الفوارق بين اللغتين الفرنسية والانجليزية هى أن فى مقدورك أن تتحدث الفرنسية على نحو طبيعى دون خطأ نحوى ، وليس الامر كذلك دائما فى اللغة الانجليزية . فمن مصاعب الكتابة باللغة الانجليزية هى أن رنين الصوت الحى يطغى على منظر الكلمة المطبوعة . وأعتقد أنى أوليت موضوع الاسلوب اهتماما كبيرا وجهدا بالغا . لقد كتبت صفحات قليلة شعرت أنى لاأستطيع تحسينها ، وأخرى لاعدد لها ، تركتها فى سخط ، لانى عبثا حاولت تحسينها برغم مابذلت من جهد ، واننى لاأستطيع أن أقول عن نفسى ماقاله الدكتور جونسون عن بوب : « انه لايتجاوز خطأ دون أن يقومه ، ولاييأس من تقويم خطأ يراه » . فأنا لاأكتب كما أحب ، وانما كما أستطيع ، ولكن فاولر لم يكن مرهف الاذن ، فهو لايعرف أن البساطة ، أحيانا ، ينبغى أن تخضع للتطريب ، فأنا لاأجد بأسا فى استعمال كلمة نادرة حوشية ، أو حتى كلمة متكلفة ، اذا كان رنينها أفضل من كلمة غليظة واضحة ، أو اذا أتاحت للجملة توازناً أجمل . ولكننى أبادر فأضيف قائلا : انه لايجوز أن يفضل التطريب وتوازن الجملة على وضوح المعنى ، فالوضوح هو أهم من أى شىء آخر . فليس هناك مايمكن أن يؤخذ على السهولة والبساطة الا احتمال جفاف الاسلوب ، فان هذه مخاطرة نخوضها عندما تدرك أيهما أفضل لك : أن تكون أصلع الرأس أو أن تضع شعرا مستعارا مموجا . أما التطريب فانه ينطوى على خطر ينبغى الحذر منه وهو احتمال الرتابة المملة ، فعندما بدأ « جورج مور » الكتابة ، كان أسلوبه ضعيفا بحيث أنك تكاد تشعر أنه يكتب على ورق لف بقلم غليظ ، ولكنه استطاع تدريجيا أن يشيع فى أسلوبه ايقاعا موسيقيا جميلا ، وتعلم كيف يكتب عبارات لها فى الاذن ايقاع عذب غامض . وقد أسعده هذا النجاح فواصله الى مالانهاية ، وهكذا لم يستطع أن ينجو من الرتابة فأصبح أسلوبه كخرير الموج المتكسر على شاطىء من الحصباء ، ناعم الى حد أنك لاتحس به . وقد يتمادى فى رقته حتى يهفو الانسان الى شىء من الخشونة والنشاز المضطرب الذى يقلل من نعومة توافق الالفاظ . وأنا لاأعرف كيف يتجنب الكاتب هذا ، ولكنى أظن أن خير مايمكن أن يتمتع به الكاتب هو أن يكون أقوى احساسا بالملل من القارىء ، وذلك بأن يدرك الملل قبله ، وينبغى على الانسان أن يحذر التصنع ، فاذا رأى الكاتب أن بعض العبارات الموسيقية الرنين تنثال على قلمه بسهولة فعليه أن يتساءل : لماذا لم تكن قد انثالت عليه آليا ؟ فان من العسير أحيانا أن يكتشف الانسان فى العبارة التى صاغها ليعبر بها عن ذات النقطة التى فقدت عندها هذه العبارة قوتها وتأثيرها ، كما قال الدكتور جونسون « ان الذى كون بالجهد والدرس لنفسه أسلوبا ، من النادر أن يكتب فيما بعد بسهولة » ومع اعجابى الشديد بأسلوب ماتيو ارنولد

الذى يتناسب مع أغراضه الخاصة ، الا انى اضيق احيانا بما قد يكون فيه من تصنع ، فقد كان أسلوبه طريقة اتبعها وظل يستخدمها الى الابد انه ليس كاليد الآدمية القادرة على أداء مختلف الحركات ·

وانت اذا استطعت ان تكتب بسهولة وبساطة وايقاع مع حيوية ورشاقة ، فانك قد بلغت حد الاجادة ، وانك قد أصبحت فى مستوى فولتير . ومع ذلك فنحن لانعرف ماقد ينطوى عليه استهداف الحيوية فى الاسلوب من مخاطر ، ذلك انها قد تؤدى الى بهلوانية ميرويث المملة.! وأن ماكولى وكارليل لرائعان على اختلاف أسلوبهما ، ولكن هذه الروعة تقوم على حساب الطبيعة فى الاسلوب ، ومن ثم فان تأثيرهما الخاطف يؤدى الى شرود الذهن ، فتضيع قوة الاقناع منهما ، فأنت لاتستطيع أن تقتنع بأن فلاحا يحرث الارض بمحراث وفى الوقت نفسه يمسك بطوق يقفز من داخله بين كل خطوة واخرى . ان الاسلوب الجيد هو الذى لايبدو فيه اثر جهد الكاتب ، وانما ينبغى أن تبدو الكتابة كأنها عملية ممتعة للكاتب . واعتقد انه لايوجد فى فرنسا الآن من هو أبرع فى الكتابة من كوليت ، فان سهولة تعبيرها تجعلك تعتقد انها لاتبذل أى جهد فى الكتابة · وقد سمعت أن ثمة عازفى بيانو يتمتعون بمقدرة طبيعية تجعلهم يعزفون فى بساطة بطريقة لايستطيع أن يجاريهم فيها غيرهم الا اذا بذلوا أعنف الجهد ، وأنا أعتقد أن هناك كتابا من هذا النوع الممتاز، من بينهم فى رأيى « كوليت » ولما سألتها ، كانت دهشتى بالغة حين سمعت عنها أنها تعيد كتابة الموضوع مرات ومرات ، وأنها قد تستغرق طوال الصباح فى كتابة صفحة واحدة . ولكن ليس من المهم أن تعرف كيف يصل الكاتب الى سهولة التعبير ، فأنا مثلا قد وصلت اليه ــ اذا كنت قد وصلت ــ بالجهد والمشقة ، فان الطبيعة قلما تسعفنى بالكلمة أو بمجمل العبارة المناسبة دون أن ألجأ الى الغريب الحوشى أو العادى المألوف .

قرأت ذات مرة ان أناقول فرانس حاول الا يستعمل الا التعبيرات والالفاظ التى كان يستعملها كتاب القرن السابع عشر الذين كان يحمل لهم كل تقدير واعجاب ، ولست أدرى مبلغ الصدق فى هذا ! ، فاذا صح ماسمعته فانه قد يفسر لنا : لماذا يفتقر أسلوبه الفرنسى الجميل البسيط الى نبض الحياة ، ولكن البساطة فى التعبير تصبح زائفة عند ما لا تكتب شيئا كان ينبغى أن تكتبه ، لانك لاتستطيع أن تكتب بطريقة معينة . فعلى الانسان أن يكتب بالطريقة السائدة فى عصره ، لان اللغة تنبض بالحياة ، وهى دائمة التطور والتغير ، فاذا أنت حاولت أن تكتب بطريقة القدامى ، جاءت كتابتك مصطنعة . وأنا لاينبغى لى أن أتردد فى استعمال العبارات الشائعة فى عصرى برغم ادراكى لما فيها من شعبية أو سوقية ، وبرغم احساسى بأنها قد تصبح بعد عشر سنوات غير مفهومة اذا كانت تشيع فى أسلوبى الحيوية والواقعية ، فاذا كان للاسلوب قالب فنى ، فانه لايضار بالاستعمال البارع لعبارات لاتلقى الا قبولا محليا الى وقت محدود ، وانى افضل أن يكون الكاتب سوقيا على أن يكون متكلفا متعجرفا ، لان طبيعة الحياة سوقية ، وهويستهدف لادبه الحياة .

أعتقد أننا ـ معشر الكتاب الانجليز ـ ينبغي أن نتعلم الشيء الكثير من زملائنا الأمريكيين ، ذلك ان الكتابة الامريكية نجت من سيطره أسلوب « الكتاب المقدس » الذى ترجم فى عهد الملك جيمس ، كما أن الكتاب الامريكيين أقل تأثرا بأساليب النوابغ القدامى التى أصبحت جزءا من الثقافة الانجليزية . لقد صنعوا لانفسهم أسلوبا ، لعله ناتج ـ دون أن يشعروا ـ من الاحاديث الحية الدائرة حولهم ، وهو فى أحسن حالاته يمتاز بالوضوح والحيوية اللذين يجعلان أسلوبنا يبدو بجانبهما فاترا واهنا . ومن الفوائد التى عادت على المؤلفين الامريكيين ـ وأغلبهم عمل فى وقت ما مراسلا صحفيا ـ ان صحافتهم تكتب باسلوب أكثر حدة وعصبية ووضوحا من أسلوب الصحافة الانجليزية .. ذلك أننا نقرأ الصحف الآن ، كما كان أسلافنا القدامى يقرءون الكتاب المقدس ، وليست هذه القراءة بلا فائدة . فان الصحف ولاسيما الواسعة الانتشار تزودنا بجزء من التجارب التى لايسع الكاتب أن يغفلها . انها زاخرة بالمواد الخام الآتية من مصادرها . وأنه من الحماقة أن نهملها لما فيها من رائحة الدم والعرق . اننا لانستطيع مهما حاولنا ـ أن ننجو من تأثير هذا النثر اليومى .. ولكن لصحافة كل عصر أسلوب واحد ، وكأنما قام بتحريرها شخص واحد .. لأنها خالية من السمات الفردية ومن المستحسن أن يقاوم الكاتب تأثير أسلوبها بقراءة كتب من نوع آخر . ويمكن أن يتأتى هذا بالحرص على قراءة كتب عصر ليس جد بعيد عن عصرنا ، وهكذا يتاح للانسان مستوى يستطيع به أن يقارن بين أسلوبه ومثل أعلى يمكن أن يجعله هدفا له بعد تطويعه للطراز العصرى . وقد وجدت أن أفضل اثنين أمكننى الاستفادة منهما فى هذا الشأن ، هما هازليت والكاردينال نيومان ، ولكنى لم أحاول أن أقلد أحدهما ، لان هازليت يسرف أحيانا فى التعبيرات البلاغية . ويلجأ أحيانا الى ألوان من البهرجة الصارخة الغليظة كالتى كانت سائدة فى العصر الفكتورى ، وكذلك نيومان ، ولكن بدرجة أقل ، ولكنهما فى أحسن حالاتهما رائعان . فان الزمن لم يؤثر على أسلوبهما الا قليلا ، حتى لكأنه من الاساليب العصرية وأسلوب هازليت فى جملته واضح نشيط زاخر بالحيوية وبالقوة وبالجمال . وانك لتشعر بشخصيته فى أسلوبه ، فلا تراها ضعيفة مشاغبة منفرة ، كما كانت معروفة للعالم فى عهده ، وانما تحس بشخصيته الداخلية التى تعيش لمثلها العليا . والشخصية الداخلية حقيقية كالشخصية الرحيمة المتوددة التى يبدو بها فى العالم الخارجى. أما أسلوب نيومان فانه يمتاز بالرشاقة البديعة ، والموسيقى ، والعبث أحيانا . وأحيانا بالجد . وعباراته جميلة زاهرة ذات وقار وعذوبة . وكلاهما كان يكتب بوضوح رائع ، ولكن لم يبلغ أحدهما من البساطة الحد الذى يفترضه الذوق الكامل ، وفى رأيى أن ماتيو أرنولد يتفوق عليهما فى ذلك . وكانت لكل منهما قدرة مدهشة على توازن الجمل ، وعلى كتابتها بطريقة تسر العين ، ولاعجب فقد كان كل منهما مرهف الأذن الى حد كبير . واذا أتيح لاحد أن يستغل مميزاتهما الاسلوبية فى الكتابة على طريقة العصر الحديث ، لاستطاع أن يكتب كأحسن ماينبغى أن يكون عليه فن الكتابة .

لقد سألت نفسي بين الحين والآخر : هل كان يمكن أن أبلغ فى الكتابة شأوا أفضل لو انى كرست كل حياتى للادب ؟! لقد قررت فى مرحلة من العمر سابقة ــ ولست أذكر متىعلىوجهالتحديد انأستبدل بقدر الامكان بحياتى التى ليست لى ، على الارض ، حياة غيرها ، وبدا لى ان الكتابة وحدها لاتكفى . ولقد رايت أن الونحياتى على ان تكونالكتابة أحد عناصرها الأساسية التى تنطوى على كل مجالات النشاط الآخرى المناسبة للرجل ، بحيث اذا جاء الموت ، واجهته فى هدوء واطمئنان . لقد كانت نواحى ضعفى كثيرة .. كنت ضئيل الجســم ، ضعيف البنية برغم قدرتى على الاحتمال ، تاتاء ، خجولا ، سقيم الجسم ، عاجزا عن المشاركة فى الألعاب الرياضية التى تلعب دورا كبيرا فى حياة الرجل الانجليزى . وقد يكون هذا كله سببا ، أو قد يكون السبب طبيعيا ، فى نفورى الغريزى من زملائى الرجال ، مما منعنى من توطيد الصلات الودية بهم . اننى أميل الى الرجال كأفراد ، ولكنى لا أحفل بهم كثيرا كمجموع ، فأنا محروم من هذه الجاذبية وخفة الظل التى تربط بين الأفراد عند أول لقـــاء ، ولكنى استطعت ، مع مرور الزمن ، أن أكتسب هذه الطبيعة الودودة التى أبرزها عندما أرغم على الاتصال بشخص غريب ، وأعترف أنى لم أشعر بالميل الى أى انسان فى أول لقاء ، ولا أعتقد أنى خاطبت انسانا لا أعرفه فى أثناء السفر بقطار أو بباخرة ما لم يبدأنى هو بالحديث . ان ضعف بنيتى هو الذى حرمنى من متعة التعارف باخوانى على موائد الشراب . ذلك أنى قبل أن أبلغ حد النشوة التى تجعل الشاربين ينظرون الى جميع الناس على أنهم اخوة ، أجد معدتى تثور على ، واذ أنا مريض ككلب سقيم . هذه هى عيوبى كانسان ، وككاتب . وكان على أن أعالجها بقدر الامكان ، وأن أسير على الخطة التى رسمتها لنفسى باصرار ، ولا أستطيع الزعم بأنى بلغت من النجاح فى هذا الشأن أكمله ، ولكنى أعتقد أنى بذلت فى سبيل النجاح كل ما فى وسعى برغم الظروف المحيطة بى ، وبرغم امكانياتى المحدودة التى سمحت بها الطبيعة لى .

ونحن اذا نظرنا الى المهمة الاساسية للانسان كما حددها أرسطو ، وجدنا أنه يقول : ان الانسان ينمو كالنبات ، ويشترك فى الاحساس مع الحيوان ، ولكنه ينفرد بجوهر خاص يجعل مهمته الأساسية تخضع لنشاط الروحى ، وأنتهى من هذا الى أن على الانسان أن يتخذ ثلاثة أوجه للنشاط حددها له ، ولكنه أوجب عليه أن يمضى فى وجه واحد منها وهو الوجــه المناسب له . والفلاسفة والمصلحون ينظرون الى الجسم الانسانى فى ريبه وشك . وكثيرا ما بينوا أن مباهجه قصيرة الأمد ، ولكن البهجة لن تفقد حلاوتها ، لأنها لا تبقى الى الأبد . فمن البهجة أن تغطس فى حوض مـــاء بارد فى يوم شديد القيظ برغم أن شعورك ببرود الماء لن يستغرق الا لحظات ، وأن اللون الأبيض لن يزداد بياضا سواء ظل يوما أو عاما . وقد جعلت هذا كله فى تقديرى على أنه جزء من الخطة التى وضعتها للاستمتاع بكل ما فى وسعى من المباهج الحسية ، ولم أكن أخشى الغلو : فالغلو قد يثير ــ فى بعض الاحيان ــ النشوة . انه يمنع الاعتدال من أن يتخذ ذلك

السمت الرهيب للعادة .. انه ينشط الذهن ، ويريح الأعصاب ، وان النفس لتبلغ ذروة الانطلاق - أحيانا عندما يستغرق الجسم فى البهجة . فأحيانا تبدو النجوم أكثر لمعانا من الحضيض عنها من قمة الجبل ! وان أمتع المباهج التى يحس بها الجسم هى المستمدة من الاتصالات الجنسية وأنا أعرف رجـالا كرسوا حيـاتهم كلها لهذا اللون ، وأنهم الآن فى سن الشيخوخة ، ولكنى ألاحظ ، فى غير دهشـة ، أنهم يعتقدون أنهم لم يضيعوها سدى ، وأنه من سوء حظى أن منعنى شعورى الذاتى « بالحنبلة » من الاستمتاع بهذا اللون من البهجة بقدر ما أستطيع وقد لزمت الاعتدال ، لانى من النوع الذى لايبتهج بسهولة. وأنا حين التقى بين الحين والآخر بأشخاص فرغوا لتوهم من الاستمتاع بأحبائهم ، أشعر بالدهشة لشهيتهم العارمة أكثر مما أشعر بالغيرة لنجاحهم فى مضمار الغرام ، فالواضح أنه لا داعى لأن تعيش جائعا مادام فى مقدورك أن تأكل ما تشاء من لحم وخضر.

وكثير من الناس يعيشون كيفما يكون حسب ما تأتى به رياح الحظ . وكثيرون غيرهم يرغمون بحكم الظروف التى نشئوا فيها وبحكم الحاجة الى التماس الرزق ، على السير فى طريق ضيق مستقيم ليس فيه مجال للانحراف يمينا أو يسارا . ومثل هؤلاء يعيشون طبقا لخطة فرضت عليهم رسمتها لهم الحياة وأرغمتهم على السير فيها . وليس هناك أى سبب يمنع من القول بأن الكثير من هذه الخطط المفروضة ، هى الخطط التى قد يختارها الكثير من الناس لأنفسهم لو كان لهم حق الاختيار . ولكن للفنان وضعاً خاصا . وأنا حين أكتب كلمة « فنان » لا أفترض أهمية خاصة لانتاجه ، وانما أعنى بها الشخص المشتغل بالفن ، وأتمنى لو كان فى مقدورى أن أجد كلمـة أدق ، فاذا اخترت بدلا منها كلمة « الخالق » وجدت أنها أكبر مما يجب . لان الانسان «الخالق» يجب أن يكون انتاجه متفردا كله بالاصالة وقلما يمكن هذا . وكلمة « الصانع » لا تكفى للتعبير ، لأن النجار صانع ، وبرغم أنه من الممكن أن يكون فنانا فى أضيق الحدود فانه على وجه عام ليست له حرية الحركة والعمل التى يتمتع بهـا أصغر كاتب أو أخيب رسام . فالفنان يستطيع فى نطاق معين أن يفعل بحيـاته ما يشاء أما فى المهن الأخرى ، كالطب مثلا ، أو القانون ، فأنت حر الاختيار فى امتهانها أولا ، فاذا اخترت ، فقد فقدت نهائيا هذه الحرية ، لأنك ستصبح مقيدا بقوانين مهنتك ، وبمستوى التصرفات والسلوك المفروضة عليك بحكم امتهانك لها . لقد وضعت المنهج ورسمت حدوده .. ولكنه الفنان فقط ، وربما المجرم أيضا ، هو الذى يحتفظ بحرية سلوكه وتعرفه دائما .

ولعل احساسى الطبيعى بالترتيب والتنظيم هو الذى دفع بى، وأنا شاب الى رسم منهج معين لحياتى . أو لعل السبب شىء آخر اكتشفته فى نفسى سوف أتحدث عنه قليلا فيما بعد ، ولكن العيب فى مثل هذا القرار أنه قد يؤدى الى قتل الشخصية . فان من الفوارق الكبيرة بين الأشخاص فى الحياة الحقيقية وبين شخوص الروايات الخيالية، هو أن أشخاص الحياة مخلوقات خاضـعة للاغراء ، فقد قيل ان علم النفس قائم على البحث عن الأسباب الشريرة لما نعتقده عن طباع الغريزة : وكذلك يمكن القول بأننا فى مراحل الحياة نستغل حريتنا فى الاختيار لنبرر به لأنفسنا فعل ما نريد

أن نفعل . وان خضوعنا للاغراء يعتبر جزءا للنهج المرسوم لحيـــاتنا .
وأعتقد أن من العيوب الكبيرة أيضا لمثل هذا القرار أنه يجعل الانســـان يعيش أكثر مما ينبغي في المستقبل ، وقد عرفت منذ أمد بعيد هذا الخطأ الذي ارتكبته باتخاذي لهذا القرار ، وأعني به وضع منهج معين لحياتي، فحاولت تصحيحه عبثا . انني لم أتمن أبدا ــ الا بقوة الارادة ــ أن تطول لحظات البهجة حتى استمد منها مزيدا من الاستمتاع ، لأنهـــا ، حتى لو أضفت على هذا الاستمتاع الذي طالما انتظرته ، فان ذهني في هذه اللحظات البهيجة يكون عادة مشغولا ببهجة ما سوف يأتي بعد ذلك . انني لم أسر أبدا على الناحية الجنوبيةمن ميدان بيكاديليدون أن أشغل نفسيبالتفكير فيما يجرى بالناحية الشمالية منه . وهذه حماقة ولا شك ، فان اللحظة التي تمر هي التي تحياها تأكيدا ، ومن الحكمة أن تستنفد كل ما فيهامن قيم . أما المستقبلفسوف يصبح ، فيالوقتالمناسب ، حاضرا ، وعندئذ يغدو بلا قيمة كحاضرنا الآن . ولكنني لم أكن أتبع هذه الحكمة الا قليلا . فأنا لا أجد الحاضر غير مرض ، وانما أتقبله كما هو ، لأنه أصبح مختلطا بالمنهج الموضوع لحياتي ، ولكن الذي يهمني هو ما سوف يأتي ..

لقد ارتكبت كثيرا من الأخطاء .. وقعت في بعض الأحيان ضحية هذا الفخ الذي يقع فيه الكثيرون من الكتاب ، ألا وهو الرغبة في القيـام ببعض التصرفات التي جعل الكاتب شخوص رواياته يقومون بهـا . لقد حاولت القيام بأعمال لاتتفق مع طبيعتي وأصررت على الاستمرار في المحاولة ، لان كبريائي كانت تمنعني من الشعور بالهزيمة . وقـد بذلت الكثير من الاهتمام ، والانتباه ، لآراء الغير ، وتحملت كثيرا من التضحيات في سبيل أهداف تافهة لاني لم أجد الشـجاعة على ايلام غيري . وارتكبت كثيرا من الحماقات ، ولي ضمير حســاس يجعلني لا أنسى أبدا بعض الاخطاء التي ارتكبتها في حياتي ، ولو كنت محظوظا ادين بالمذهب الكاثوليكي ، لخففت هذا العبء عن ضميري بالاعتراف والتطهير ، ولاستراح ضـميري وذهني الى الابد . لقـد كان علي أن أواجه هذه الاخطاء بوحي من التفكير السليم . ولست أشعر بالنـدم على مافعلت ، لأني تعلمت من هــذه الاخطاء الكبيرة أشـياء كثيرة في علاقاتي مع الغير . وقد استغرق هذا كله وقتا طويلا ، ففي أيام شبابي كنت عنيفا ضد مالا يرضيني من الآراء . واني لأذكر شدة استنكاري حين سمعت شخصا يدلي بملاحظة .. ملاحظة قديمة ، ولكنها كانت جديدة علي ، مؤداها ان النفاق هو الضريبة التي تدفعها الرذيلة الى الفضيلة ، فقد كانت لي مثلي العليا عن الأمانة والشرف والاستقامة والصدق . ولم أكن ضيق الصدر بنقائص البشر ، وانما بالجبن . وما كنت لألتمس أي عذر للجبناء والمنافقين . ولم يخطر ببالي أبدا أني سأجد نفسي يوما أحوج ما أكون الى التسامح والتساهل .

من العجيب أن تبدو لنا اساءاتنا ـ لأول وهلة ـ أقل قسوة من اساءات الغير وأعتقد أن السبب فى هذا يرجع الى أننا ندرى كل الظروف التى سببت اساءاتنا لغيرنا ، وهكذا نتمكن من أن نلتمس من الأعذار لنا ما لا نلتمسه لغيرنا . ونحن لا نتجه عادة الى عيوبنا ، فاذا اضطرتنا الظروف الى مواجهتها ، وجدنا أنه من السهل علينا التهوين من أمرها . وأكبر ظنى اننا على حق فى هذا ، فنحن جزء من أنفسنا ينبغى أن نتقبل ما فينا من خير وشر على السواء . ولكننا حين ننظر الى الآخرين ، فاننا لا ننظر اليهم على أنهم بشر مثلنا لهم عيوبهم ومحاسنهم ، ولكن ننظر اليهم على أنهم الصورة الجميلة التى نريدها لأنفسنا بعد أن نسقط منها كل العيوب والنقائص التى تسىء الى كبريائنا أو تقلل من قيمتنا فى أعين الآخرين ، ولنضرب مثلا بسيطا . فالى أى حد يبلغ اشمئزازنا حين نضبط شخصا يكذب فى حديث ، ومع ذلك فليس بيننا من لم يكذب فى حياته ، لا مرة واحدة بل مائة مرة ! ، ونحن نصدم حين نعرف أن بين العظماء من هو ضعيف ، أو مشاكس أو وضيع ، أو أنانى ، أو زير نساء أو تافه أو مغرور وكثير من الناس يعتقدون أنه من العار أن تكشف للملأ عيوب العظماء والابطال . وليس هناك مجال واسع للاختيار بين الرجال ، فانهم جميعا « شلة غجر » من العظمة والانحطاط ، ومن الفضيلة والرذيلة ومن السمو والوضاعة ، بعضهم يمتاز بقوة الشخصية ، وبعضهم بالفرص المواتية ، وهكذا يتاح لهم فى هذا المجال أو ذاك فرصة انطلاق غرائزهم ومقدراتهم ، ولكنهم من الناحية الطبيعية ، متماثلون . وأنا شخصيا ـ لا أعتقد أنى أفضل أو أسوأ من معظم الناس ولكنى أعلم أنى لو دونت كل ما يخطر بذهنى من صغيرة وكبيرة فى تصرفاتى وأفكارى ، لاعتبرنى العالم زعيم الفجار فيه !!

اننى أعجب كيف يجرؤ أى شخص على نقد غيره وهو قادر على التأمل وتقليب الأفكار فى ذهنه ، فان جزءا كبيرا من حياتنا يشغل بالتأمل والتفكير ، وكلما اتسعت آفاق خيالنا ازداد تأملنا وتفكيرنا قوة وحيوية ، فكم منا من يستطيع تسجيل تأملاته آليا ووضعها أمام عيوننا ؟ ! اننا فى هذه الحالة سنشعر بالعار يغرقنا .. سنهتف قائلين : اننا لسنا ، فى الواقع ، هكذا منحطين ، أشرارا ، مشاكسين ، أنانيين ، مغرورين ، رقعاء! ومع ذلك فان تأملاتنا هى ـ تأكيداً ـ جزء من حياتنا كتصرفاتنا وسلوكنا ، فاذا كان هناك كائن يطلع على أدق خلجات نفوسنا وأفكارنا ، فاننا نغدو مسئولين عنها كمسئوليتنا عن تصرفاتنا وسلوكنا ، والناس ينسون الأفكار الرهيبة التى تتمشى فى خلايا أذهانهم ، ومن ثم يشمئزون اذا اكتشفوا مثيلها فى أذهان الآخرين ، وقد ذكر جيته فى كتابه « وارهيت وديشتورنج » كيف أنه فى شبابه لم يكن يحتمل التفكير فى أن أباه كان مجرد محام بسيط من الطبقة المتوسطة فى مدينة فرانكفورت ، كان يشعر بأنه ينبغى أن تكون الدماء النبيلة هى التى تجرى فى عروقه ، وهكذا راح يوحى الى نفسه أن أحد الأمراء الذين مروا بالمدينة التقى بأمه وبادلها الحب ، وأنه ـ أى جيته ـ كان ثمرة هذه العلاقة ، وقد كتب ناشر هذه الطبعة من الكتاب الذى قرأته ، ملاحظة استنكار على حاشية هذا الموضوع ،

فقد بدا له أنه لا يليق بشاعر عظيم كهذا أن يشكك الناس فى طهـارة أمه ، لكى يرضى طباعه التواقة الى الارستقراطية والعجرفة ، وبرغم أن هذا بطبيعة الحال أمر شائن ، فانه ليس شاذا ، بل يمكن القول بانه ليس خارجا عن المألوف ، فان قليلا جدا من الخياليين والعاطفيين والثائرين فى صباهم لم يداعبهم التفكير فى أنهم ليسوا أبناء لهؤلاء الآباء النقلاء الحمقى. وانما هم بصورة ما حسب مزاج كل منهم أبناء لعظماء مجهولين لهم ، او لامراء حاكمين . ان نظرة جيته المتعاليه ، جعلتنى ، فيما بعد ، ازيد من تقديرى له ، فان اعترافه أثار فى نفسى عواطف حارة نحوه ، لأن الرجل الذى يستطيع أن يكتب أشياء عظيمة ، هو فى الواقع أعظم من الرجل العادى .

هذه الأفكار الدنيئة ، الحقيرة ، التى تستقر فى الأذهان رغما عنا ، هى فى رأيى التى عذبت القديسين الذين وهبوا حياتهم للخير ، والغفران، ومحو ذنوب الماضى فان القديس اجناتيوس ليولا — كما نعـرف — أدلى باعترافاته العامة حين ذهب الى مونسيرات ، ونال المغفرة . ولكنه ظل عبدا للشعور بالخطيئة الى حد الرغبـة فى قتل نفسه . وكان قبل أن يكرس حياته للخير — يعيش شابا من أصل كريم ، وكان معتدا بمظهره ، اتصل بالنساء وقامر ، ولكنه فى احدى المناسبات أبرز بعض فضائله النادرة . وكان شريفا — فى جملته — مخلصا ، كريما ، شجاعا ، فاذا كان قد حرم الشعور بالسلام وسكينة النفس ، فقد كان هذا يرجع الى أنه لم يستطع أن يغفر لنفسه ما كان يدور بذهنه من أفكار ، وأنه لمن راحة الضمير أن نعلم أنه ، حتى القديسين ، لا تخلو أذهانهم من هذه الأفكار الشريرة . وأنا حين كنت أرى عظماء العالم يجلسون فى مهابة وعظمة وخيلاء ، أسائل نفسى : ترى هل هم يذكرون الآن بماذا كانت عقولهم مشغولة فى فترات الوحدة والتأمل ، وهل سبق أن شعروا بوخز الضمير لما تزخر به عقولهم الباطنة من أفكار أبعد ما تكون عن العظمة والأبهة ؟ انه يخيل الى أن ادراك هذه الحقيقة .. حقيقة شيوع هذه التأملات الخاصة فى الأذهان البشرية عموما ، تجعل الانسان يلتمس العذر لنفسه وللآخرين ، والأهم ، أنهـا تجعلنا أيضا ننظر الى غيرنا حتى العظماء والكبراء من هؤلاء الغير فى شىء من المرح ، والتلطف ، وكذلك تجعلنـا نخفف من الغلو فى نظرتنا الى أنفسنا . وعندما كنت أرى القضاة فى منصات الحكم جالسين فى جمود ومهابة ، أعود فأسائل نفسى : هل يمكن حقا أن ينسى هؤلاء كل مشاعرهم الانسـانية — تماما — كما يبدو من مظهرهم ومن احكامهم. لشد ما أتمنى لو أنهم وضعوا مع اناء الزهور الذى يزين مكتب القاضى لفافة من « ورق التواليت » لتذكره بأنه لا يزال رجلا يأكل الطعام ؟ !

لقيد قيل عنى انى فظ جاف أحب التهكم .. وقد اتهمت بأنى أميل الى أن أجعل الناس يبدون أسوأ من حقيقتهم . ولست أعتقد أنى فعلت هذا ، وكل ما فعلته انى ابرزت للناس خصائص معينة كان الكثير من الكتاب يغمضون أعينهم عنها . وأعتقـد أن أهم ما أثار انتباهى الى النـاس هو حرمانهم من الثبات والتماسك . فأنا لم أر فى حياتى شـخصا متماسك الشـخصيـة ، وكثيرا ماأدهشنى أن أجـد أكبر كمية من المتناقضات فى شخص ما ، ومع ذلك تبدو كلها فى انسجام وتوافق ؟ وقد سـاءلت نفسى

كثيرا : كيف يمكن أن تبقى مثل هذه المتناقضات ، التى تبدو شاذة عجيبة فى نفسية شخص واحد ؟! فمثلا عرفت مجرمين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية بالنفس من أجل الغير ، ولصوصا حقراء يتمتعون بطبائع لطيفه محببة ، والتفسير الوحيد الذى يمكن أن أقدمه ، هو أن شعور الانسان الغريزى بأنه جزء من وحدة الوجود ، وأنه ممتاز عن بقية المخلوقات يجعله يدرك بأنه مهما كانت اساءته الى الغير ، ومهما فعل من سوء غير طبيعى ، فانه فى النهاية ، ظافر بالمغفرة ، لأنه يعتقد أن كل ما فعله أمر عرضى ، لا يلبث أن يزول أثره من النفوس • وأن المفارقات التى أراها فى النفوس البشرية تثير اهتمامى ، ولكنى أعتقد أنى لم أتعمد ابرازها وتأكيدها ، ولعل النقد الذى وجه الى بين الحين والآخر ، هو لأنى لم أعرب عن سخطى على « أفعال الشخوص الشريرة » فى رواياتى ، ولم امتدح أعمال الشخوص الخيرة فيها • ولا شك أنه من عيوبى النفسية أنى لا أصدم بخطايا الغير ما لم يكن لها أثر مباشر على شخصى ، بل حتى اذا اساءوا الى ، فقد تعلمت كيف ألتمس لهم العذر • لقد تعلمت ألا أنتظر الشيء الكثير من الغير ، وحسبك أن تشعر بالرضا اذا ظفرت منهم بمجرد المعاملة الطيبة ، ولكن لا تدهش أو تضطرب اذا أساءوا معاملتك ، لان « كلامنا » كما قال سترانجو الاتينى « مصنوع على الاكثر من اتجاه ميوله ومن طبيعة نفسه» • ان ضيق الافق هو الذى يجعل الانسان لا ينظر الى الاشياء الا من زاويته الخاصة، وليس من الحكمة أن تغضب منهم ، لانهم محرومون من هذه الموهبة ، وأعنى بها موهبة سعة الافق فى التفكير •

وأعتقد أنى أكون جديرا باللوم لو أنى فتحت عينى على نقائص البشر ، واغمضتها عن فضائلهم ،وأنا واثق أن الامر ليس هكذا ، فليس هناك ماهو أجمل من الخير ، ولشد مايسرنى أن أبرز مبلغ الخير الكامن فى أعماق شخص هو فى عرف الناس جميعا بغيض مرذول • اننى أبرز عوامل الخير هذه فى مثل هذا الشخص لانى أراها ، بل يخيل الى أحيانا أن هذه العوامل تبدو فيهم أشد تألقا لانها محوطة بظلام الخطايا • أما فى الناس الطيبين ، فانى أرى عوامل الخير أمرا طبيعيا ، ومن ثم يلذ لى أن أكتشف عيوبهم ونقائصهم . وانى لأتأثر جدا حين أرى لمحات الخير تتألق بين الحين والآخر فى نفوس الاشرار ، وأهز كتفى فى غير مبالاة وأنا أرى مساوئهم •• انى لا أحب أن أكون حكما بين زملائى فى الانسانية •• حسبى أن ألاحظهم، وأتأمل تصرفاتهم . وقد أدت ملاحظاتى الى الاعتقاد بصفة عامة بأنه لا فرق بين الاشرار والاخيار كما يحاول المصلحون أن يجعلونا نؤمن بوجود هذا الفرق •

اننى فى الجملة ، لا آخذ الناس بقيمهم الظاهرة ، ولست أدرى: هل ورثت هذا النوع من التأمل الهادىء عن آبائى ، فانهم — على الارجح — لو لم يكن لديهم هذا النوع من المكر الذى يحول بينهم وبين الانخداع بالظواهر لما كانوا محامين ناجحين . ولعل السبب هو حرمانى من عادة الاندفاع السار عند الالتقاء بالناس لاول مرة . . فان هذا الاندفاع أو الحماس، يجعل الانسان ينخدع بظواهر الناس ، أو كما يقول المثل يجعله يظن « البطة

أوزة » ولكن المؤكد أن قدرتي على التأمل الهادىء قد ازدادت حـدة بدراستي الطبية .. انني لم أكن راغبا في أن اغدو طبيبا ؛ ولم أكن راغبا في أن اكون أي شيء ، الا كاتبا ؛ ولكن الخجل الشديد منعني ، في صباي ، من أن اصرح بهذا ، فلم يكن من المعقول ، أو المقبول ، على اية حال ، أن يعرب شاب في الثامنة عشرة من عمره ، وذو أصل كريم ؛ عن رغبته في امتهان حرفة الأدب ، فقد كان مجرد هذه الفكرة بعيدة عن كل احتمال بحيث لم اجرؤ أن أذكرها لأي شخص . وكنت اظن دائما اني سأشتغل بالمحاماة ، ولكن اخوتي الثلاثة ، وكلهم أكبر مني سنا ، كانوا يشتغلون بها ومن ثم لم يكن لي مجال في محيط هذه المهنة .

- ١٦ -

لقـد تركت المدرسـة في سن باكرة ، اذ كنت بائسـا وأنا طالب في المدرسة الاعدادية التي التحقت بها عقب وفاة أبي - لانها كانت في كنتربري التي تبعد ستة أميال عن مدينة هوتسابل التي كان يعمل بها عمي ــ وهو الوصي علي ــ قسيسا ، وكانت هذه المدرسة قسما من مدرسة «الملك» وتقوم في بناء عتيق كنت أمضي اليه ، مرغما ، وأنا في الثـالثة عشرة من عمري ؛ فلما تجاوزت السنوات الاولى ــ التي كان مدرسوها طغاة مستبدين ــ شعرت بالراحة والرضا ، ولكني لم ألبث أن شقيت حين أرغمني المرض على قضاء فصل دراسي في جنوبي فرنسا ، وكانت أمي وأختها الوحيدة قـد ماتتا بداء الصدر ، ولما تبين أن العدوى سرت الى صدري ، اشـتد اهتمام عمي وزوجته بامري ، فارسلت الى مدرس خاص بمدينة هايرز . ولما عدت الى مدرستي في كنتربري ، لم أحس بكثير من الرضا . فقد كان اصدقائي قد اتخذوا أصدقاء غيري ، وهكذا بقيت وحيـدا ، وكنت قد انتقلت الى فرقة أعلى ، برغم ضياع ثلاثة أشهر من العام الدراسي ، ومن ثم لم أجد لنفسي مجالا مناسبا وبدأ الاساتذة ينوشونني ، فأقنعت عمي بأنه من الافضل أن أمضي الشتاء التالي على ساحل الريفييرا ، وانه من المهم بالنسبة لي أن أمضي بعد هذا الى المانيا لأدرس اللغة الالمانية ، ويمكنني أن أواصل دراسة المواد اللازمة لالتحاقي بجامعة كمبردج في الوقت المناسب . وكان عمي رجلا مسالما ، وكانت حجتي قوية ، وكان أيضا لايميل الي كثيرا ، واني لألتمس له العـذر ، لاني لم أكن غلاما محبوبا ، وكان الانفـاق على تعليمي من مالي الخاص الموروث ، وهكذا توافرت له الرغبة لان يدعني أفعل ما اقترحته عليه . وقد أيدت زوجته رأيي وآزرتني بقوة ، فقد كانت المانية الأصل . فقيرة ولكنها من محتد كريم ، فقد كان لأسرتها شعار خاص وأعوان وأتباع ، وعدد كبير من الاعمال المجيدة التي كانت هي شديدة الفخر بها . وقد ذكرت في مكان آخر أنها ، وهي زوجة قس فقير كانت ترفض زيارة زوجة رجـل مالي ميسور الحال كان قد استأجر منزلا صيفيا بالقرب منا ، لانه من أصحاب الحرف ! وكانت هي التي اتخذت الترتيبات لـكي أقيم في مدينة هيلدبرج الالمانية مع أسرة عرفتها من أقارب لها في ميونيخ .

ولكن ، حين عدت من المانيا ، شابا في الثامنة عشرة ، كنت قد قررت لنفسي الطريق الذى سأسير عليه في المستقبل ، وكنت أشعر بسعادة لم يسبق أن شعرت بمثلها من قبل ، فقد أحسست لاول مرة بلذة الحرية ، ولم أعد أطيق التفكير في القيود التي سأرغم عليها اذا أنا التحقت بكامبردج . كنت أشعر بنفسي رجلا ، واستبدت بي اللهفة الى دخول معترك الحياة ، وأحسست أنه لا ينبغي اضاعة دقيقة واحدة ، وكان عمي يأمل دائما أن ألتحق بالكنيسة برغم يقينه بأن حالة « التأتأة » التي أعانيها تجعلني آخر من يصلح للعمل قسيسا ، ولهذا لم يعارض كثيرا حين رفضت تحقيق أمله ، وكذلك لم يعارض أيضا حين أعلنت له أني لن التحق بجامعة كامبردج .
ولا زلت أذكر المناقشات التي جرت بشأني عن المهنة التي يجب أن أحترفها ، لقد اقترح أحدهم أن اشتغل مستخدما مدنيا « موظفا حكوميا » ومن ثم كتب عمي الى صديق له من زملاء الدراسة في أوكسفورد يشغل منصبا حكوميا يستشيره في هذا الامر ، وقد رد الصديق قائلا ان وظائف الحكومة المدنية لم تعد تليق لذوى الأصول الكريمة بسبب النظم المعقدة ، والاختبارات التقليدية ، والطبقة المعينة التي يختار منها الموظفون . وأخيرا تقرر أن أدرس الطب .

ولم تكن مهنة الطب تستهويني ، ولكنها أتاحت لى الفرصة للاقامة في لندن ، أى أنها أتاحت لى من تجارب الحياة ما كنت أرجو ، والتحقت بمستشفى سانت توماس في خريف عام ١٨٩٢ . وقد وجدت الدراسة في العامين الاولين باعثة على الملل ، ولهذا لم أبذل في سبيلها من الجهد الا ما هو ضرورى للنجاح بأية صورة . وهكذا لم أكن طالبا نجيبا ولكني استمتعت بالحرية التي طالما هفوت اليها . لقد سرني أن أنفرد بنفسي في مسكن خاص حيث استطيع أن أفعل ما أريد ، وكنت حريصا على تجميل مسكني بقدر ما أستطيع ، وكنت أنفق الكثير من وقت فراغي ، وجزءا من وقت استذكار دروسي في القراءة والكتابة . لقد قرأت كثيرا جدا ، وملأت كراسات بالآراء والخواطر والافكار والموضوعات القصصية ، والمسرحية ، وبالمقطوعات الحوارية ، وبالتأملات وبالملاحظات التي كنت استمدها من قراءاتي ومن تجاربي المنوعة .. وكان اختلاطي بالحياة في المستشفى قليلا ، وكذلك كان أصدقائي ، وذلك لاشتغالي بأشياء أخرى ، ولكني حين أصبحت طالبا تحت التمرين بالعيادة الخارجية ، بدأت أهتم بدراستي الطبية. ولما حان الوقت للعمل في العنابر الداخلية ، ازددت اهتماما بالامر بحيث لم استطع مقاومة رغبتي ذات يوم في أن آخذ معي الى البيت لوزتين استخرجتها من جثة كنت أقوم بتشريحها ، وذلك لأوالي دراستي عليهما . وكان على أن أتولى عمليات الوضع لعدد معين من الحوامل حتى أظفر بشهادتي النهائية ، وكان هذا يعني ترددي على مباءات حي لامبث ، وارتياد منازل كان رجال البوليس أنفسهم يترددون في دخولها ، ولكن حقيبتي الطبية السوداء كانت خير

درع لى ، وقد شغلتنى هذه العمليات عن كل شيء ، ثم اشتغلت مدة قصيرة فى قسم « الاستقبال » لمعاونة الاطباء على اسعاف الحالات العاجلة، وخرجت من هذا كله مرهقا ، ولكنى ، فى الوقت نفسه كنت راضيا مغتبطا ٠

- ١٧ -

وكان سبب رضاى أنى وجدت نفسى على اتصال بأهم ما كنت أحب الاتصال به وهو الحياة على طبيعتها البدائية ٠ ففى خلال هذه السنوات الثلاث الاخيرة من دراستى كنت أرى تماما كل خلجة ترتسم على وجوه الناس ، وقد تجاوب هذا بطبيعة الحال ، مع احساسى الروائى .. لقد أثارت الاديب الكامن فى أعماقى، وبرغم أنه قد مضت على هذا العمل أعوام طوال، فانى لازلت أذكر أشخاصا حتي لأكاد أستطيع رسمهم من الذاكرة ، وان عبارات من التى سمعتها لا تزال ترن فى أذنى ٠ لقد رأيت الناس كيف يموتون ورأيتهم كيف يحتملون الالم ، ورأيت شكل الامل كيف يبدو ٠٠ والخوف .. والفرح .. ورأيت الخطوط السوداء التى يرسمها اليأس على الوجوه ، ورأيت الشجاعة والثبات ٠٠ رأيت الايمان يلمع فى عيون أولئك الذين يؤمنون بما كنت أحسبه يوم ذاك وهما ! ورأيت الجرأة التى تجعل الانسان يستقبل قرار الموت بفكاهة تهكمية ، لانه كان ارفع من أن يجعل من حوله يشاهدون الفزع الذى استبد بنفسه ٠

وفى ذلك الوقت « وكان وقتا يشعر الناس فيه بالامن والسلام والرخاء » كانت ثمة مدرسة من الكتاب الذين يؤمنون بأن الآلام هى غذاء الروح .. كانوا يؤمنون بأن الألم مطهر للنفوس ، وأنه مزيد لروابط التعاطف ، ومشحذ للتفكير والتأمل ٠٠ كانوا يؤمنون بأنه يفتح للروح آفاقا جديدة من الجمال ، ويزودها بالقدرة على الاتصال بمملكة الله السرمدية.. كانوا يؤمنون بأنه يقوى الاخلاق ويطهرها من أدران الحيوانية الآدمية ويتيح لمن يطلبه ، لا لمن يفر منه ، أسباب السعادة الحقة ، ان كثيرا من الكتب التى وضعت على هذا الاساس ، أساس جمال الالم ، ظفرت بنجاح ضخم ، وأتاحت لمؤلفيها أن يعيشوا فى منازل فاخرة ، وأن يأكلوا فى اليوم ثلاث وجبات دسمة ، وأن يستمتعوا بأتم الصحة ، وأن ينالوا أوسع الشهرة ٠ وقد دونت فى كراساتى ، لا مرة أو مرتين ، وانما عشرات المرات ، الحقائق التى شاهدتها ٠٠ لقد عرفت أن العذاب لا يسمو بالانسان وانما يهبط به ، انه يجعله أنانيا ، وضيعا ، شكسا ، متشككا ، انه يشغل أصحابه بالتوافه ، لقد دونت بعنف شديد : اننا لا نتعلم الاستسلام بآلامنا نحن ، وانما بآلام الغير .

كان هذا كله من التجارب الحية لى ٠ اننى لا أعرف مكانا حافلا بالتجارب للكاتب أفضل من قضاء بضعة أعوام فى دراسة مهنة الطب ، فليس من شك فى أنك ستعرف الشيء الكثير عن الطبائع البشرية فى مكتب محاماة ، ولكنك ، فى المحاماة ، ستتعامل مع أناس فى أتم حالات السيطرة على النفس ٠٠ انهم قد يكثرون من الكذب على المحامى بالمقدار الذى يكذبون

به على الطبيب ، ولكنهم مع المحامى ، يصرون على الكذب ويستمرون فيه ، لأن الحقيقة فىرأيهم ، بالنسبة للمحامى، غير مهمة، ومايتعامل به المحامى يكون عادة مسائل مادية ، فهو من هذه الناحية يرى الطبيعة البشرية من زاوية خاصة ٠ أما الطبيب ، ولا سيما طبيب المستشفى ، فانه يراها ٠٠ عارية ٠٠ ان محاولة التكتم واخفاء الحقائق كثيرا مالاتجدى ، والخوف فى أغلب الاحوال يحطم كل وسائل الدفاع ، وحتى الكبرياء تضطرب وتتزلزل تحت وطأته . ولمعظم الناس شهوة عارمة للحديث عن أنفسهم، ولايمنعهم عن هذا الا عدم انتباه الآخرين اليهم ، والتحفظ فى الواقع صفة مصطنعة نمت فى معظمنا ، كنتيجة لكثرة ما لقينا من صدود الغير ٠ والطبيب عادة رجل عاقل حكيم ، ومن مهمته أن ينصت ، وليس هناك سر يمكن أن يسمو على أذنيه ٠٠

ومن الممكن بطبيعة الحال أن تتعرى أمامك الطبيعـة البشرية دون أن تتعلم منها شيئا ، لان لك عينين لا ترى بهما كماينبغى، فاذا كنت مغلفا بذاتيتك ، أو كنت هوائى المزاج، فيمكنك أن تمر خلال عنابر المستشفى ثم تخرج منها دون أن ترى أو تعرف الا ما يراه غيرك من سطحية المظاهر ٠ أما اذا أردت أن تخرج بفائدة من هـذه التجربة ، فينبغى أن تفتح عقلك للاهتمام بالجنس البشرى ، وأعتقد أنى من هذه الناحية جد محظوظ برغم انى لم أكن أشعر بالميل الشديد الى الناس ، لقد وجدت فى طبائعهم ماكان يبعد عنى كل شعور بالملل فى اتصالاتى بهم ، فأنا لم أكن شديد الاهتمام بأن أتحدث ، وكان لدى كل استعداد لأن أنصت ، ولم يكن يهمنى ان كان الناس يعنون بأمرى أو لا . ولم تكن لدى أية رغبة فى أن انقل اليهم أية معلومات لدى أو أحس بالرغبة فى تقويمهم اذا أخطئوا ، وان فى مقدورك أن تستمتع بالكثير من تصرفات وأقوال الثقلاء من الناس اذا عرفت كيف تتدرع بالصبر ، وأذكر أنى دعيت الى رحلة فى بلد أجنبى فى سيارة مع سيدة أرادت أن تفرجنى على بعض معالم بلدها ، وكان حديثها مثيرا للملل ، كما كانت عباراتها زاخرة بالالفاظ المبتذلة بحيث لم أستطيع أن اتذكر منها شيئا ، ولكن عبارة منها استقرت فى ذهنى كما سبق استقرار القليل من العبارات الطريفة ، وذلك حين قالت لى ونحن نمر أمام صف من المنـازل الصغيرة المطلة على البحر : « هذه مثابات صيفية لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ٠٠ أو بعبارة أخرى مثابات يذهب الناس اليها يوم السبت ويغادرونها صباح الاثنين » : لعلها كانت تشعر أنى سأندم لو فاتتنى هذه الحقيقة ٠

ولكننى لا أحب طبعا أن أنفق أوقات طويلة مع الاشخاص الثقلاء ، وكذلك لاأحب ان أنفق مثل هذه الاوقات مع الظرفاء ، فانى أشعر أن الاتصالات الاجتماعية مرهقة ، واعتقد أن معظم الناس يفرحون ويبتهجون بتبادل الأحاديث ، ولكننى أجد فى الحديث عملية متعبة ، فعندما كنت شابا تأتاء ، كان الحديث الطويل ــ من جانبى ــ يجهدنى ، وحتى الآن ، بعد أن جهدت فى علاج الثأثأة ، لازال الحديث ثقيلا على أعصابى ، فليس أحب الى ــ وأروح ــ من تجنب الناس ومن مصاحبة الكتاب ٠

وأنا لا أستطيع الزعم بأن هذه السنوات التى امضيتها فى مستشفى سانت توماس قد زودتنى بكل المعلومات اللازمة عن الطبيعة البشرية ، ولا أظن أن هناك من يرجو هذا · لقد ظللت أدرس هذه الطبيعة البشرية بعقلى الظاهر ، وعقلى الباطن ، أكثر من أربعين سنه ، ومع ذلك فانى لا أزلت جاهلا بجوانب كثيرة من هذه الطبيعة · فكثيرا ما يفجؤنى - او يدهشنى - الذين أعرفهم من قرب حريب بتصرفات لم يخطر ببالى يوما أنها ستصدر منهم ، أو يكشفون لى عن خصائص معينة لم أكن أتوقع وجودها فيهم ، وانه لمن المحتمل أن تكون دراستى الطبية قد زودتنى بنظرة منحرفة الى طبيعة الناس ، فان الأشخاص الذين اتصلت بهم فى أثناء الدراسة والتمرين كانوا فى الأغلب مرضى ، وفقراء ، وجهلة . وقد حاولت ان أحصن نفسى ضد هذا الاحتمال كما حاولت تحصين نفسى ضد الانحياز الى جانب دون آخر ، فليست لى ثقة طبيعية بالغير · وانني لأشد ميلا الى توقع السوء منهم قبل الخير ، وهذا هو الثمن الذى يدفعه الانسان ذو المزاج الساخر ، فالشخص الساخر المزاج هو الذى يستمتع بما فى الطبيعة البشرية من نقائص ومفارقات ، وهو الذى لا يحفل كثيرا « بالعظماء » من البشر ، ويبحث عن النوازع الحقيرة التى يحاولون اخفاءها فى أعماق نفوسهم ، ويهمه أن يرى المفارقات بين المظهر والمخبر ، فاذا لم يجدها فهو كفيل بايجادها من وحى خياله ، وهو أيضا ميال الى أن يغمض عينيه عن الحق ، والجمال ، والخير ، لأنها لا تتفق مع مزاجه الساخر الباحث عن الغرائب والمفارقات ، ولكن له عين لماحة الى كل نقص ، وهو عادة لا يعترف بالقداسة فى الانسان . واذا كان نفور الناس من الساخر هو الضريبة التى يدفعها ، فان هناك نواحى أخرى تعوضه عن هذا ، فالساخر لا يغضب من الناس ، بل يضحك منهم ، واذا أساء اليه أحد فانه يتنهد ، وربما يهز كتفيه ، ولكنه لا ينقم . انه لايحب الوعظ والارشاد ، لأنه مقتنع بالفهم والادراك ، وانك حين تدرك عن يقين حقائق الطبيعة البشرية ، فلا يسعك الا أن ترثى وتصفح ·

ولكن ينبغى أن أعترف بأنى ، مع تذكرى الدائم لهذه الحقائق ، وجدت تجارب السنوات التى تلت هذا كله تؤكد ملاحظاتى التى استقيتها من الطبيعة البشرية ، عفوا ، فى أثناء عملى كطبيب فى عنابر مستشفى سانت توماس ، وفى مساكن المرضى · اننى أرى الناس الآن كما كنت أراهم من قبل ، وهكذا ارتسمت شخصياتهم بذهنى · ولعل تصويرى لهم يكون مجانبا للحقيقة بعض الشىء ، فأنا أعلم أن الكثيرين يرون تصويرى للنفوس البشرية شنيعا ، وليس من شك فى تصويرهم لوجهة نظرى وهذا أمر طبيعى ، ومن المحتمل جدا أن يرى (الشخصيات التى صورتها بقلمى) شخص آخر ، خفيف متفائل ، سليم الجسم ، هوائى المزاج فى صورة أخرى مختلفة تماما · ويمكننى القول بأنى رأيت هذه الشخصيات عن خبرة واتصال ، ويخيل الى أن كثيرا من الكتاب لايلاحظون شيئا من الطبيعة البشرية على الاطلاق وانما يخلقون شخوص رواياتهم من وحى الخيال ، انهم كالرسامين الذين يرسمون صورهم من ذكرياتهم

عن نماذج أثرية قديمة ، وهم ــ على أحسن فرض ــ لا يستطيعون الا أن ينفخوا بعض الحياة فى هذه الصور الخيالية ، فاذا كانت عقولهم سامية فانهم يقدمون اليك صورا لشخوص سامية ، وربما لا يهم ، فى هــذه الحالة ، أن يكونوا غير ملمين بمشكلات الحياة العادية .

ولكنى كنت دائما أرسم شخوصى من نماذج حية ، وأذكر أنى كنت ذات يوم فى غرفة « التشريح » مشغولا بالجزء المخصص لى عندما سألنى المدرس عن اسم عصب معين فلم أعرف، فلما أخبرنى به ، جادلته، لأن هــذا العصب كان فى موضع مختلف ، ولكنه أصر على رأيه ، فتذمرت لشذوذ موضع هذا العصب ، فابتسم المدرس وقال: ان الشيء الطبيعى فى التشريح هو النادر · ولم أشعر حينئذ الا بالاستياء فقط ، ولكن هذه الملاحظة رسبت فى ذهنى ، وجعلتنى أعترف ، مع مرور الزمن بصدقها، لا فى التشريح فقط ، وانما فى الناس أيضا . ان الشيء الطبيعى فيهم هو النادر ·· ان الطبيعى هو المثل الأعلى انه الصورة التى يصوغها الانسان من السمات العادية للناس ، وليس من المتوقع أن تجد هذه السمات مركزة فى شخص واحد ، وانما هى الصورة المزيفة التى يتخذها أولئك الكتاب الذين أتحدث عنهم ، نماذج لشخوصهم ، وان تصويرهم لما هو نادر وشاذ جعلهم قلما ينجحون فى اشاعة نبض الحياة فى شخوصهم · ان الأنانية والتعاطف والمثالية والانحطاط والعجرفة والحياء ، والجبن والشجاعة ، والكسل ، والاضطراب ، والعناد ، يمكن كلها أن تتجمع فى شخص واحد وتتخذ منه سمتا منسجما متوافقا. ولقد استغرقت أمدا طويلا فى اقناع القارىء بصواب هذا الرأى ·

ولست أظن أن الناس فى العصور القديمة يختلفون عن الناس فى هذه الأيام ، ولكنهم كانوا يبدون ــ ولا شك ــ فى نظر معاصريهم أكثر تكاملا مما نراهم الآن ، والا لما صورهم الكتاب هكذا . وفى رأيهم أنه من الحكمة أن تصف الانسان بمزاجه ، فالبخيل ليس أكثر من بخيل ، والتافه تافه ، والشره شره ، وهكذا . ولا يخطر ببالهم أبدا أن البخيل قد يكون تافها ، وشرها أيضا ، ومع ذلك فاننا نرى كثيرا من البخلاء يجمعون بين البخل والتفاهة والشره ، وربما ايضا بين الامانة والاستقامة، وقد تجد رجلا لا يهتم اطلاقا بمصالح المجتمع ، ولكنه شديد الاهتمام بالفن : والروائى الصادق الذى يكشف عن نقائض ونقائص غــيره من الناس ، متهم بالعداء والتحامل على الجنس البشرى · وبقدر ما أعرف ، فان أول روائى اتبع هذا الأسلوب عن عمد ، هو الكاتب الفرنسى ستاندال فى قصته : « الاحمر والأسود » · وقد ثار عليه النقاد من معاصريه ، وحتى الناقد سانت ــ بيف الذى كان يكفيه أن ينظر الى نفسه ليرى المفارقات الخلقية الكامنة جنبا الى جنب فى توافق وانسجام ، لم يترفق به، ان شخصية « جوليين سوريل » هى أمتع الشخصيات التى صنعها كاتب روائى ، ولا أعتقد أن « ستاندال » نجح فى أن يجعلها تبــدو طبيعيــة تماما · وقد يرجع هذا ــ فى رأيى ــ الى أسباب سوف أذكرها فى موضع آخر من هذا الكتاب .. ولكنه كان فى ثلاثة الأرباع الاولى من روايته ، متكاملا ، متماسك الأسلوب ، فهو أحيانا يملؤك بالفزع ، وأحيانا يبدو

متعاطفا حانيا • وفى كل حين يبدو فاهما الحقائق الخفية للنفس البشرية. ومن ثم لا يسعك الا أن تتقبله أيا كان شعورك الخاص •

ولكن طريقة ستاندال استغرقت فترة طويلة حتى أثمرت ، فان بلزاك • بكل نبوغه ظل يرسم شخوصه بالطريقة القديمه • كان يشيع فيها حيويته العارمة حتى يجعلك تتقبلها على أنها شخوص طبيعية، ولكنها فى الواقع ممسوخة مثيرة للسخرية كشخوص الهزليات القديمة ؛ وهى مع هذا ، خالدة فى تاريخ الأدب ، ولكن القراء ينظرون اليها من زاويه العاطفة المسيطرة التى تترك أثرها فى نفوسهم فى أثناء القراءة ، واعتقد أنه ميل طبيعى فى الجنس البشرى أن ينظر الى الناس على أنهم متجانسون؛ فالواضح ان هذه النظرة تعفى الانسان من مشقة التفكير فى طبيعة كل انسان على حدة ، فهو يريد ان يطلق حكمه على غيره فى عبارة واحدة • وهو اما أن يكون هذا الانسان ، شريرا أو طيبا ، ولا شىء غير هذا. ومن ثم فانه يضطرب ويتبلبل فكره حين يكتشف أن بطل بلاده المنقذ بخيل مثلا أو أن الشاعر الملهم الذى فتح لعقولنا ونفوسنا آفاقا جديدة ، محدث متعاظم •• ان ميولنا الطبيعية تجعلنا نحكم على الأشخاص الآخرين بمدى علاقاتهم بنا ، ونريد أن نشعر بهم كحقائق ثابتة فى حياتنا • وهم فى الواقع كذلك . أما بقية حياتهم الخاصة فلا قيمة لها بالنسبة لنا، ولهذا فنحن نتجاهلها •

وهذه الاسباب قد تفسر لنا : لماذا يكره الكثيرون ان يروا هـــذه المحاولات التى تبذل لتصوير الناس على حقيقتهم ، ولماذا نشيح بوجوهنا فى استنكار حين نرى أحد المؤرخين يحاول أن يذكر بعض الحقائق عن العظماء والمشاهير • انه من المؤلم أن نعلم ـ مثلا ـ ان هذا الملحن العظيم لهذه القطعة الموسيقية الرائعة ليس مؤتمنا فى شئون المال ، أو أنه جاحد لفضل الذين عاونوه فى مستهل حياته . ولكن من المحتمل أيضا ؛ أنه ما كان ليتمتع بهـــذه المواهب العظيمة ، لو لم تكن له نقائص عظيمة ، اننى لا أتفق مع القائلين بأنه ينبغى اخفـاء الحقائق المشينة للعظمـاء والمشهورين ، واعتقد أنه من الافضل أن نعرفها عنهم ، وعندئذ ندرك أنه ، برغم احساسنا بأن لدينا من المساوىء الفاضحة مثل ما لهم ، فان هذا لايمنعنا من الشعور بأن لنا بعض أو كل فضائلهم أيضا .

- ١٩ -

ان دراستى لمهنة الطب قد زودتنى ـ فضلا عن الالمام بالطبيعة البشرية ـ ببعض المعلومات الأولية عن العلوم والأبحاث العلمية ، فقد كنت الى ذلك الحين مهتما فقط بالفن والأدب ، ولكن معلوماتى كانت محدودة فى نطاق ضيق ، لأن منهج العلوم فى ذلك الحين كان قصيرا ، الا انه ، على أية حال، أوضح لى الطريق الذى يؤدى بى الى مناطق كنت شديد الجهل بها • وقد وقفت منها على بعض المبادىء ، فعالم العلوم هذا الذى رأيت لمحات منه ، عالم مادى عنيف، ولأن بعض المعلومات كانت

تتجاوب مع ميولى الخاصة فقد أقبلت عليها بنشاط عظيم • وكما أشار البابا فى قوله : «ان الناس يقولون مايشاءون ولكنهم لايوافقون الا على ما يتجاوب مع طباعهم ونفوسهم » ولقد سرنى أن أعرف أن العقل الانسانى « الذى هو من نتاج الأسباب الطبيعية » هو كذلك احدى وظائف المخ ، وهو الخاضع –كبقية أعضاء الجسم البشرى– لقوانين الأسباب والنتائج، وان هذه القوانين ، هى نفسها التى تتحكم فى تحركات النجم والذرة • وقد طربت من هذه الفكرة القائلة بأن الوجود ليس الا آلة ضخمة كل حدث فيه ناتج عن حدث مسبب بحيث لا يمكن أن يختل فيه شىء •

هذه المعلومات لم تتجاوب مع طبيعتى الادبية فحسب ، وانما أفعمت نفسى ، معها ، بألطف مشاعر الحرية . ولقد رحبت بعنف الشباب ، بهذا المبدأ القائل بأن البقاء للأصلح ، وقد استهوانى الى حد كبير ان أعلم أن الكرة الأرضية ليست الا « حصاة » من الطين تدور وتدور حول كوكب من الدرجة الثانية فى طريقه الى البرودة والانطفاء ، وأن هذا التطور الذى أدى الى خلق الانسان وجعله يتلاءم مع ما حوله ، سوف يحرمه جميع المميزات التى اكتسبها الا ما هو ضرورى لمقاومة البرودة الشديدة المنتظمة حتى تصبح الكرة الارضية ، فى النهاية قطعة من الجليد الذى لا تحتمل فيه أية صورة من صور الحياة. لقد اعتقدت اننا مجرد دمى بائسة تحت رحمة قدر شديد القسوة ، وأننا بارتباطنا بقوانين الطبيعة الغامضة ، مجبرون على أن نساهم فى معركة البقاء دون أن يكون لنا فى النهاية أى أمل الا الهزيمة المحتومة ، وعرفت أن الناس مسيرون بحكم الأنانية الوحشية ، وأن الحب ليس الا الخدعة القذرة التى تلعبها معنا الطبيعة لتضمن بقاء النوع. وقد قررت أنه مهما تكن الأهداف التى يضعها الناس نصب أعينهم ، فانها تنطوى كلها على الغش والخداع ، لأنه من المستحيل عليهم أن يستهدفوا شيئا الا اذا كان لمصلحتهم الخاصة. وقد حدث أنى أوليت أحد اصدقائى جميلا فسألت نفسى : « لماذا فعلت هذا ؟ ما دمت أعرف ان كل تصرفاتنا خاضعة لحب الذات ، اننى لم أفكر فى هذا ، وان صديقى أراد أن يعترف لى بهذا الجميل » وليس من حقه أن يحس بهذا الشعور الطيب ما دام الامر كله أنانية فى أنانية ، فسألنى عن نوع الهدية التى أحب أن يقدمها لى ، فأجبته على الفور بأنى أريد كتاب « المبادىء لهربرت سبنسر » فقرأته بعنايه ، ولكنى ضقت بايمان سبنسر الشديد بتقدم العالم . ان ذلك العالم الذى أعرفه ، فى طريقه من سيىء الى أسوأ ، وانى لأسر كل السرور كلما فكرت فيما ستكون عليه الأجيال القادمة ، البعيدة ، فحين ينسى الناس الفن والعلم والصناعة ، ويقبعون بأجسامهم العارية فى الكهوف انتظارا لعصر الجليد ، والليل السرمدى. لقد كنت شديد التشاؤم ومع ذلك كنت – بسبب الحيوية الموفورة – أظفر من الحياة بمتع كثيرة ، كنت شديد الطموح لكى يلمع اسمى ككاتب ، وقد عرضت نفسى لمختلف أنواع التجارب حتى أظفر بمحصول وافر منها يفيدنى فى تحقيق أملى ، كما كنت أقرأ كل شىء يقع بين يدى •

كنت أعيش فى ذلك الحين مع جماعة من الشباب الذين بدوا لى — بمواهبهم الطبيعية — فوق مستواى ، كان فى مقدورهم أن يكتبوا . وأن يرسموا ، وأن يلحنوا بسهولة طالما أثارت غيرتى، وكان لهم من الذوق الفنى والموهبة الغريزية للنقد ما لم أكن أطمع فى الوصول الى مستواه . وقد مات بعض هؤلاء دون أن يحققوا من الأهداف ما كنت أتوقعه وعاش الباقون مغمورين . وانى أعلم الآن أن كل مواهبهم لم تكن الا نوعا من الخلق الناتج عن حماسة الشباب ، فان كتابة الشعر والنثر ووضع الالحان الصغيرة على نغمات البيانو والرسم والتصوير . كل هذه مواهب غريزية فى نفوس عدد كبير جدا من الشباب . انها نوع من التسلية الملائمة لأعمارهم وآمالهم ولكنها لاتزيد عن تسلية الاطفال وهم يبنون الحصون من الرمال على شطآن المصايف ، وقد شككت فى أن حرمانى من موهبة النبوغ هى التى دفعتنى الى الاعجاب الشديد بمواهب هؤلاءالاصدقاء . فلو أنى لم أكن ساذجا فى مقدورى أن أرى أفكارهم التى كانت تبدو لى أصيلة،ليست فى الواقع الا آراء وأشعارا والحانا مكررة،مستعملة، يرجع الفضل فيها الى ذاكرتهم القوية لا الى خيال واسع نشيط. والذى أريد أن أوضحه أن مقدرتهم هذه ، ان لم تكن عامة فهى عادية الى حد لا يستطيع الانسان أن يتكهن بنبوغ صاحبها . فالشباب الهام ووحى ، ومن بين مآسى الفنون هذا العدد الضخم من الأشخاص الذين انخدعوا بنوع من الالهام العابر والخصوبة الموقوتة ، فراحوا يكرسون حياتهم — عبثا — للخلق الفنى ، فان ما توهموه من الهام أو ابداع ، لا يلبث أن يتخلى عنهم بعد مرور الزمن ، وعندئذ يواجهون السنين الطوال التى تمتد أمامهم، وقد أصبحوا غير صالحين للاشتغال بعمل آخر . انهم يحاولون اعتصار عقولهم لينتجوا شيئا ليس فى مقدور هذه العقول انتاجه ، وانهم لسعداء برغم ما قد يشعرون به من مرارة شديدة نعرفها — اذا استطاعوا أن يتكسبوا رزقهم — بعمل آخر كالصحافة أو التعليم ، وهما مهنتان يمتان بصلة ما الى الفن .

ومن بين هؤلاء — بطبيعة الحال — من يتمتع بالمواهب الطبيعية التى تخلق منه فنانا أصيلا ، وهو بدونها لا يمكن أن يكون نابغا .. ولكنها جزء من النبوغ .. وكل منا يبدأ الحياة فى عزلة داخل عقله ، ومن الأوليات التى تقدم الينا ، ومن اتصالاتنا بعقول الغير كأننا نقيم حولنا جوا يتلاءم مع مطالبنا ، ولاننا جميعا نتيجة لعملية خلق ونشوء واحدة ، ولان طبائعنا تنبع من أصل واحد برغم ما فيها من تفاوت ، فان ما نقيمه حولنا يتشابه فى مجمله ، ونحن — التماسا للراحة والسهولة — نتقبل هذا الجو الذى ننشئه حولنا على انه نموذجى ، ونتحدث عنه على أنه جو عام ، وخاصية الفنان أنه يختلف — بصفة ما — عن غيره من الناس ، وهكذا يختلف الجو الذى ينشئه حوله عن أجواء الآخرين ، وهذا الاختلاف هو الجانب المهم من ذخيرته وزاده ، وهو حين يرسم صورة لجوه ، أو عالمه ، الخاص ، فاننا نعترف بمواهبه اذا كانت الصورة المرسومة تستهوينا اما بطرافتها أو لتجاوبها مع ميولنا : « لان كلا منا ليس تماما كجاره ، وانما يشبهه

الى حد ما ، وليس كل منا يتقبل الجو العام المحيط به بالصورة التى يتقبله بهـا غيره» ، فاذا كان الفنان كاتبا ، فهو سيحقق بعض المطالب العقلية أو الطبيعية لقرائه ، وهم ، من ناحيتهم ، يشتركون معه فى حياة روحية تضفى عليهم من السعادة والرضا أكثر مما تضفيه الظروف المفروضة عليهم • ولكن هناك أشخاصا لا يستجيبون لمثل هذه المواهب ، انهم يضيقون بعالم مصنوع بالوساطة وقد يبلغ ضيقهم حد النفور والتقزز ، وليس لدى الفنان ما يقدمه لهؤلاء ، وليس لديهم أى استعداد للاعتراف به •

وأنا لا أعتقد أن العبقرية شىء شديد الاختلاف عن النبوغ ، بل لا أعتقد تماما أنها تعتمد كثيرا على الفروق الكبيرة فى المواهب الطبيعية للفنان ، فمثلا أنا لا أعتقد انه كانت لسرفانتس مواهب نادرة للتأليف ، وأن قليلا من الناس لا يؤمنون بعبقريته ، وليس من اليسير أن تجد فى الأدب الانجليزى شاعرا يتمتع بمواهب « هيريك » ، ومع ذلك فان الجميع يعتقدون أنه ليس أكثر من شاعر مطبوع • ويخيل الى أن العبقرية هى نتيجة امتزاج المواهب الطبيعية للخلق ، مع المميزات الخاصة التى تجعل صاحبها ينظر الى العالم نظرة خاصة نافذة ، لا تشمل هذا النوع من الناس أو ذاك ، وانما تشمل الناس جميعا . ان عالمه الخاص ، هو عالم العموم ، ولكنه أوفر وأوسع وأعمق •• ان عموميته هى فى نظرته العالمية ، وبرغم أن الناس لا يعرفون دلالة هذه النظرة العبقرية ، فهم يشعرون بخطرها وأهميتها • وهو ــ أى العبقرى ــ انسان طبيعى جدا ، وقد حبته الطبيعة فى احدى مصادفاتها السعيدة القدرة على النظر الى الحياة فى قوة وعمق وشمول ، وانه ينظر اليها من مرتفع يحيط بها ، فلا يكاد يخفى عن بصيرته وقوة نظرته الموهوبة الا القليل ، أو كما يقول ماتيوز آرنولد : يراها فى شمول وثبات • ولكن العبقرية لا تبرز الا مرة أو مرتين فى كل قرن ، وقد تعلمت من درس التشريح أنه ليس هناك ما هو أندر من الشىء الطبيعى • وانه من الحماقة أن نفعل كما يفعل البعض الآن حين يضفون العبقرية على شخص لأنه كتب نصف « دستة » من المسرحيات الناجحة أو لأنه رسم بضع لوحات ممتازة ، وأنه من الجميل أن يكون الانسان موهوبا ، فان الموهوبين قليلون ، فبالموهبة يستطيع الفنان أن يبلغ المركز الثانى من العبقرية ، وليس ثمة ما يدعوه الى الاستياء ، لأنه سيبلغ مستوى الكثيرين الذين خلد الزمن انتاجهم ، فأنت حين تذكر أن المواهب قد انتجت روايات مثل : « الاحمر والاسود » وقصائد مثل : ديوان «فتى شروبشاير» ولوحات مثل لوحات «واطيو» فانك لن تشعر بالخجل منها • ان الموهبة لا تستطيع أن تخلق بك الى الذروة ولكنها تكشف لك مناظر جميلة لم تكن تتوقعها ، وتجعلك ترى فى خميلة مهجورة ، أو جدول رقراق ، أو كهف تاريخى مالا يراه الكثيرون من الناس • ان جموح الطبيعة البشرية قد يبلغ أحيانا حد الاضطراب والتردد حينما ترغم على أن تلقى نظرات شاملة على نفسها • انها قد تنكمش أمام روعة كتاب « الحرب والسلام » لتولستوى ، لكى تلوذ ببشاشة قصة «كانديد» لفولتير . وانه لمن العسير أن تعيش دائما فى روعة سقف « معبد سستين بكتدرائية روما » الذى

صوره ميكالنجلو ، ولكن من السهل أن يستريح كل انسان بالبقاء أطول فترة ممكنة وهو ينظر الى صور كونستابل فى كتدرائية سالسبرى .

ان احساسى بالتعاطف البشرى محدود ، فأنا لنفسى بنفسى دائما ، ولكنى جزء من الطبيعة ، وجزء من الظروف المحيطة بى ، أى أن تعاطفى مع هـذه الظروف لا بد أن يكون جزئيا ، وانا لست رجلا اجتماعيا ، فلست أستطيع أن أسكر وأن أحس بالحب العظيم للناس وكثيرا ما أضجرتنى المباهج السطحية، ولهذا تجدنى أجلس صامتا حين ينتشى من حولى من الرجال فى حانة البيرة أو فى زورق يجرى ، فيشتركون فى الغناء ، ولا أذكر أنى غنيت فى حيـاتى ، فلست أحب أن أخضع للمؤثرات ، وأحرص دائما على أن أسحب ذراعى اذا حاول رفيق أن يأخـذه فى ذراعه ، وانا لا أنسى نفسى ابدا ، وان هستيريا العالم تثير فى نفسى التقزز وان احساسى بالعزلة ليتضاعف حين أجد نفسى فى وسط الزحام ، محاطا بمشاعر جياشة من البهجة أو الحزن . وبرغم أنى عرفت الحب مرات عدة فانى لم أجرب متعة الوفاء فى الحب . وانى أعرف أن هذا الوفاء المتبادل فى الحب هو أجمل ما يمكن أن تمنحه الحياة . وان كثيرا من الناس نعموا به ، ولو فترة وجيزة . والعجيب أننى احببت الذين لم يهتموا بى اطلاقا ، أو قليلا ، ولكنى كنت أشعر بالحرج أمـام الذين يحبوننى ، وهذا تناقض فى الشعور لم أعرف يوما كيف أعالجه، وحتى لا أجرح مشاعرهم ، كنت أصطنع لونا من العاطفة التى لم أشعر بها ، وقد حاولت ، فى رفق اذا أمكن ، وفى ضيق اذا لم يمكن ، أن أنجو من الوشائج التى يشدنى الحب بها اليهم ، وكثيرا ما كنت أغار على استغلالى الذاتى فلم أعرف يوما معنى الخضوع المطلق ، ومن ثم لم أحس أبدا ببعض المشاعر الاساسية للانسان العادى . وهكذا أصبح من المستحيل على انتاجى الأدبى أن يصور معنى التعاطف ومعنى اللمسات الانسانية العميقة التى لا يستطيع تصويرها الا أعاظم الكتاب فقط .

- ٢١ -

انه من الخطر أن تدع الجمهور وراء مسرح الاحداث ، فمن المحتمل جدا ، عندئذ أن يخطىء الناس فهمك ، فيغضبوا منك ، فهم يحبون منك سعة الخيال ، ولكنهم لا يفهمون أن الشىء الذى يهمك ، هو الذى يثير خيالك . وقد ظل أنتونى ترولوب غير مقروء ثلاثين عاما لانه اعترف أنه يكتب بانتظام فى أوقات معينه ، وانه يحرص على الظفر بأكبر قدر ممكن من المال أجرا على انتاجه .

أما بالنسبة لى ، فقد فات أوان الخوف من الاعتراف بأى شىء ، ومن ثم لا ينبغى أن أخفى الحقيقة التى تهم القارىء ، فلست أريد من أحد أن يعجب بى أكثر مما أستحق، فلينظر الى الذين يحبوننى كما أنا، وليتركنى الباقون وشأنى، فان لى من السجايا أكثر مما لى من عقل ، ولى من العقل أكثر مما لى من مواهب نوعية . وقد ذكرت شيئا من هذا القبيل منذ اعوام عدة لناقد مشهور لطيف ، ولست أدرى ماذا دفعنى الى هذا الحديث مع

ماهو معروف عني من كراهية الحديث عن نفسي في المجتمعات العامة ، وقد حدث في مدينة مونتديير في أثناء الشهور الأولى من الحرب العالمية الأولى ، وكنا نتناول طعام الغداء ونحن في الطريق الى مدينة بيرون ، بعد أن جهدنا في العمل خلال الأيام السابقة فجلسنا نستمتع — في تمهل — بطعام بدا لشهيتنا العارمة ، لذيذا • وأظن أنى كنت منتشيا بالشراب بعض الشيء ، ويمكن القول أيضا بأنى كنت منفعلا حين رأيت تمثالا في سوق المدينة جعلني أكتشف أن مونتديير هي مسقط رأس « مارمنتيير » الذى أدخل زراعة البطاطس الى فرنسا ، وحين كنا نتمهل في شرب القهوة والشراب ، أحسست بالرغبة في أن أقدم تحليلا دقيقا لمواهبي . وقد ساءني بعد أعوام أن أقرأ هذا التحليل في عباراتي نفسها تقريبا منشورا في صحيفة واسعة الانتشار . ويرجع سبب استيائي الى أن هناك فارقا بين أن تذكر الحقيقة عن نفسك بنفسك، وبين أن يذكرها أحد آخر عنك، وكنت أوثر لو أن الناقد أوضح في مقاله انه استقى هذا التحليل مني شخصيا ، ولكني سخرت من هذا الاحتمال ، فقد كان طبيعيا أن يؤثر الناقد من جهته أن يبين للقراء مدى ما يتمتع به من بصيرة نافذة وقدرة على دراسة الشخصيات ، وكانت تلك هي الحقيقة ، ومن سوء حظى أن الناس كانوا يقدرون آراء هذا الناقد حق التقدير ، وهكذا شاع كل ماذكره عني في مقاله بين الجميع • وفي لحظة أخرى من لحظات الرغبة في المكاشفة ، ذكرت للقراء أنني رجل واسع الخبرة ، وقد يخطر بالبال انني لو لم أقل هذا ، لما اكتشفه النقاد ، ولكن هذه «الصفة» ظلت ، منذ ذلك الحين ، تنسب الى في شيء من السخرية ، ومن ثم فانه كثيرا ماأدهشني أن ينظر من يهتمون بالفن — ولو بعض الاهتمام — الى الخبرة والكفاية والمقدرة في شيء من الضيق والنفور •

لقد ذكرت أن هناك مطربين مطبوعين ، ومطربين مصنوعين • وعلى الرغم من أنه ينبغي للمغني المصنوع أن يكون ذا صوت حسن بعض الشيء ، فانه بطبيعة الحال يدين بالفضل في نجاحه الى المرانة والتدريب ، واذا كان في مقدوره بالذوق الفني ، والبراعة الموسيقية أن يعوض الشيء الكثير من ضعف أوتار حنجرته ، وان يجعل غناءه بهيجا ممتعا ولا سيما للخبراء الفنانين فانه ، في الوقت نفسه ، لايستطيع — أبدا — أن يطربك ويحرك عواطفك ويفعم نفسك بالنشوة كما يفعل المطرب المطبوع بصوته الصافي الرخيم وبنبراته الفريدة النابغية ، وقد لايظفر المطرب المطبوع بالمرانة الكافية ، وقد تنقصه اللباقة الفنية ، والدراسة العميقة ، وقد يضرب بكل قواعد الفن عرض الحائط ، ولكن سحر صوته، برغم هذا كله، يأسرك، انك ستغفر له تحرره من القواعد الموضوعة، وسوقياته ، ومحاولاته المكشوفة للتأثير على عواطفك ، عند ما تسحر هذه النبرات الذهبية أذنيك، ولكن قد يكون من الغرور اذا انا ظننت أني وصلت في الكتابة الى هذا المستوى — مستوى المطرب المطبوع — بسبب خطة وضعتها لنفسي ، وعملت على تنفيذها • لقد جذبتني الفوارغ البسيطة الى مجالات مختلفة ، ولكني لم أكتشف — حين ألقيت نظرة على تاريخ حياتي — الا انى كنت أعمل بشعور باطني ، نحو هدف معين •• وكان هذا الهدف هو تنمية مميزاتي وسجاياى حتى أعوض النقص في مواهبي الطبيعية •

ان لى عقلا صافيا ، منطقيا ، ولكنه ليس عارم القوة ؛ شديد الدهاء . وقد تمنيت كثيرا أن يكون لى عقل أحسن ، وكثيرا ما اشتد ضيقى لأنه لايتيح لى أن انتج كل ماأريدانتاجه . لقد كنت كالمحاسب الذى لايستطيع الا أن يجمع ويطرح ، ولكنه برغم رغبته فى حل جميع العمليـــات الحسابية المعقدة يعرف انه ببساطة ليست له المقدرة اللازمة ؛ وقد انصرمت فترة طويلة الى ان استطعت ان اقنع نفسى باستغلال مقدرتى ، العقلية المحدودة على أحسن وجه ، وأعتقد أن هذه المقدرة العقلية ، برغم ذلك ، كانت كفيلة باتاحة فرص النجاح لى فى أية مهنة أخرى من المهن التى كان يمكن أن احترفها ، فلست من الاشخاص الاغبياء فى كل شىء ليست له علاقة بما تخصصوا فيه ، فأن نفاذ البصيرة ، وصفاء العقل ، ومنطقية التفكير كلها من الصفات اللازمة للنجاح فى مهنـــة الطب ، أو المحاماة ، أو احتراف السياسة .

وان لى ميزة واحدة هامة ، فأنا لم أشعر يوما بالحاجة الى موضوع أكتب فيه ، فان فى رأسى دائما من القصص مالن أجد الوقت الكـــافى لكتابتها مهما طال العمر . وكثيرا ماسمعت كتابا يتذمرون لانهم يريدون أن يكتبوا ، ولكنهم لايجدون مايكتبون عنه ، وأذكر أن كاتبة مشهورة قالت لى انها كانت تلجأ أحيانا الى القراءة فى كتاب خاص يحتوى على جميع الموضوعات القصصية التى سبقت الكتابة فيها لكى تظفر بموضوع جديد، وأنا لم أجد نفسى فى يوم مافى مثل هذا الموقف ، وان «سويفت» — كما نعرف — الذى يقول ان فى مقدوره ان يكتب عن اى موضوع كان ؛ تحداه أحد النقاد أن يكتب عن « عصا المكنسة » فكتب موضوعا رائعـــا وأنا اشعر أنه فى مقدورى أن اكتب — على الاقل — قصة جديرة بالنشر عن أى شخص اقضى معه ساعة واحدة . ومن دواعى البهجة أن يكـــون رأس الكاتب زاخرا بالقصص بحيث يستطيع مهما يكن مزاجه أن يتناول احداها ويفكر فيها ويديرها ويعدها للاخراج خلال ساعة أو ســـاعتين ، أو أسبوع أو أسبوعين ، فالتأملات هى الاساس للخيال الخالق . انها صفة مميزة للفنان ، لاتجعله يهرب من الواقع ، كما هو الحال مع الشخص العادى ، وانما تزوده بالوسيلة التى تجعله يتلاءم مع هذا الواقع ويرضى به . ان فى تأملات الفنان هدفا ، انها تتيح له لونا من البهجة لاتدانيها بهجة الحواس ، وتزوده باليقين التام من حريته ، فلا عجب اذن ، اذا حاول الفنان أحيانا ألا يستبدل ببهجة تأملاته ، الجهد والمشقة فى اخراجهـــا الى الوجود .

ولكنى ، على الرغم من تنوع انتاجى « ولا عجب فى هذا مادام هـــذا الانتاج نتيجة تنوع الطباع البشرية » فان لى خيالا محدود القوة . اننى أتناول الشخصيات الحية وأضعها فى كتبى ، فى المواضع الخاصة — هزلية كانت أو جادة — التى تتلاءم مع طباعهم الخاصة ، ويمكننى القول أيضا ان هذه الشخصيات هى التى تخترع قصصها ، فأنا لا أتمتع بهذا الخيال القوى الذى يحمل الكاتب الى مدارج الافكار فى عالم السماء ، فان احساسى العميق بمختلف الاحتمالات هو من الاسباب التى تعوق خيالى عن الاسراف فى التحليق .

لشد ماتمنيت ، من صميم قلبى ، أن اجد سخصاً متزن التفكير يوجهنى الى ماينبغى أن اقرأ فى أيام الشباب . وانى لاتنهد فى ألم على ماضيعت من اوقات ثمينة فى قراءة كتب غير ذات نفع كبير ، وان التوجيه البسيط الذى ظفرت به ، كان على يد شاب جاء للاقامة مع الاسرة التى كنت أقيم معها فى مدينة هلدبرج الالمانية ، وسوف اطلق عليه اسم «براون » وكان فى السادسة والعشرين من عمره ، فبعد أن تخرج من كامبردج اشتغل بالمحاماه فترة وجيزة ، ولما ضاقت به الاحوال المالية ، ولم تحقق المحاماة آماله ، قرر أن يكرس نفسه للادب ، وذهب الى هلدبرج ليتعلم الالمانية ، وقد ظللت على اتصال به حتى قضى نحبه بعد أربعين عاماً ، وكان فى السادسة والستين وقد ظل نحو عشرين عاما يستمتع بالتفكير فيما سوف يكتبه عند ما يشرع جديا فى الكتابة ، وأمضى العشرين عاما الاخرى وهو يفكر فيما كان يمكن أن يكتبه لو أن الاقدار أتاحت له الفرصة ، وقد كتب عددا كبيرا من القصائد الشعرية ، ولكنه لم يكن متمتعا بقوة الخيال أو صدق العاطفة، أو حساسية الاذن، وأمضى بضعة اعوام فى ترجمة مساجلات افلاطون التى سبق أن ترجمت أكثر من مرة. ولست أدرى على وجه اليقين : هل أتم ترجمة أية واحدة منها ؟ ، فقد كان محروما تماما من قوة الارادة ، كان هوائيا ، فارغا وبرغم تصرفاته، كان جميلا، وسيم الملامح ، مموج الشعر ، أزرق العينين، حالم السمات كان يبدو تماما فى نظر الناس كأنه الشاعر الموهوب . أما وهو رجل عجوز ، بعد حياة من الخمول والكسل ، فقد كان يبدو ، بطلعته، وبمظهره المتقشف ، كأنه عالم بحاثة قضى كل عمره فى مشقة البحث عن أشياء لاقيمة لها ، وكانت سمات وجهه الروحية تضفى عليه هذا اللون الكليل من زهد الفلاسفة الذين نفذوا الى اسرار الوجود ولم يكتشفوا فيه الا الهباء ! وقد آثر ، بعد أن ضيع ثروته الصغيرة ، أن يعيش من اعانات الغير على أن يشغل نفسه بعمل ، وكان من العسير عليه أن يوازن بين ايراده ومصروفاته ، ولكنه لم يفقد يوما احساسه بكفايته الشخصية ، وقد أتاح له هذا الاحساس القدرة على احتمال الفاقة فى رضا ، والفشل فى غير مبالاة . وأكبر ظنى أنه لم يخطر بباله يوماً انه انسان أجوف خامل . فقد كانت حياته كلها اكذوبة ضخمة ، ومع هذا فانى واثق بأنه كان يراهاً حتى آخر لحظة من عمره ، حياة حافلة ، موفورة ، لم تضع سدى . وقد كان انسانا جذابا لايعرف الحسد والغيرة ، وبرغم أنه كان أكثر انانية من أن يسدى الى أحد جميلا ، فقد كان يكره أن يقسو على أحد ، وكان له ذوق رفيع فى تفهم الادب . وفى أثناء تجوالنا الكثير فى تلال هادبرج ، كان يحدثنى عن الكتب، وعن ايطاليا، واليونان ، وبرغم أنه لم يقم بزيارة احداهما ، فانه استطاع أن يلهب خيالى الشاب حتى جعلنى أبدأ فى دراسة اللغة الايطالية. وكنت أتقبل كل مايقوله لى بحماسة الشباب . ولست أنحى عليه باللائمة لانه أثار حماستى الشديدة واعجابى البالغ بأعمال ثبت لى على مر الايام انها ليست جديرة بكل هذا الاعجاب. وعند ما جاء ليقيم مع الاسرة ، وجدنى أقرأ كتاب « توم جونز » الذى استعرته من المكتبة العامة ، فقال لى انه لاضرر من قراءتى لهذا الكتاب

ولكنه يفضل لى قراءة « ديانا فى مفترق الطرق » · وحتى يوم ذاك كان أفلاطونى النزعة ، فأعطانى مجموعة من مقالاته مترجمة بقلم شيلى · وقد حدثنى عن رينان ، والكاردينال نيومان وماتيوارنولد ، ولكنه كان يرى أن ماتيو ارنولد متزمت اكثر مما ينبغى ، وقد حدثنى ايضا عن أشعار سوينبرن وأناشيده ، وعن عمر الخيام ، وكان يحفظ من رباعياته الشىء الكثير ، ويلقيها على مسامعى فى أثناء مسيرنا معا فى دروب التـلال والآكام ، وقد كنت موزع الاحساس بين الحماسة فى تذوق المشـاعر الروحية الممتعة وبين طريقة « براون » فى الالقاء ، فقد كان يلقى الاشعار فى أناة ورتابة القس الذى يقرأ فصلا من الكتاب المقدس تحت ضـوء مصباح خافت فى المحراب ، ولكن الكاتبين اللذين كان يكن لهما اعجـابا خاصا هما والترباتر ، وجورج ميريديث ، وكنت على استعداد لان أشاركه فى الاعجاب بهما ، فقرات كتابا مثيرا لاشد الضحك والمرح بقلم والترباتر ، ثم قرأت روايات جورج ميريديث الواحدة بعد الاخرى ، وكنت أعتقـد أنها روايات رائعة ، ولكن روعتها كانت وليدة اعجاب مصطنع ، ذلك أنى كنت يوم ذاك احاول الاعراب عن أشد الاعجاب بما أقرأ اعتقادا منى بأن مثل هذا الاعجاب هو الدور الذى ينبغى أن يقوم به الشاب المثقف نحـو كبار الكتاب · ويبدو أنى وضعت على بصيرتى حجابا بهذه الحماسـة فى الاعجاب . لقد أبيت أن استمع الى الصـوت الخفيض فى أعماق نفسى الذى كان يحاول أن يخفف من حماسة اعجابى · أما الآن فانى اعرف أن فى هذه الروايات كثيرا من الحشو والطنطنة ، ولكن العجيب فى الامر أنى أشعر وأنا أعيد قراءتها الآن ، كأنى انتقلت الى الايام التى قرأتها فيها أول مرة · انها تعيد الى متعة الحياة أيام الشباب ، والايام المشمسة الموفورة بالبهجة والآمال واحلام الصبا وأنا الآن حـين اطوى كتابا لميريديث أو لايفـان هارنجتون قائلا لنفسى انه ممل ، وزاخر بالحشـو وسخيف البهرجة ، وانى لن اقراه مرة أخرى ، فان قلبى لايلبث أن يلين فأشعر أنه كتاب عظيم ·

ولم يكن لى ، من ناحية أخرى ، مثل هذا الشعور عن والترباتر الذى كنت أقرؤه فى الوقت نفسه فى حماسة وانفعال ، فلم يكن له مثل هذا الاثر البهيج فى نفسى وانا أعيد قراءته ، اذ كانت كتبه مثيرة لأشد الملل بالنسبة لى ، وانى لأعجب كيف يعجب أى انسان بأسلوبه ، وهو ليس بالاسلوب الفياض ، ولا بالمنعش ، وانما هو اقرب مايكون الى جدار مزخرف بالفسيفساء « الموزايكو » دون براعة أو فن ، لتزين قاعة طعام فى محطة سكة حديد ، فقد كانت طريقة باتر لتصوير الحياة المحيطة به ، سطحية ، متعالية ، جوفاء ، تثير — على الجملة — النفور .. نفورى أنا على الاقل ، فالواجب أن يتذوق الانسان الفن ويبرزه بقوة وحماسة فياضة ، لا بالهدوء والميوعة والرشاقة التى تخشى همسات النقد ، ولكن والترباتر كان انسانا ضعيفا ، وليس من الضرورى أن يشتد الانسان فى الحملة عليه . اننى لم أكرهه لذاته وانما لانه يرمز لنماذج فى العالم الادبى سوقية منفرة ؛ ذلك هو الانسان الذى نعمت نفسه بغرور الثقافة .

ان قيمة الثقافة فى تأثيرها على الاخلاق ، وليس ثمة جدوى منها مالم

تفعم الاخلاق بالقوة والنبل ، وان هدفها ليس الجمال ، وانما الخير ـ وهى عادة كما نعرف ، تضاعف من قوة الشعور بالبهجة الشخصية ، من منا لم ير هذه البسمة التى ترتسم على شفتى الاستاذ المدرس وهو يصحح خطأ دقيقا ، أو نظرة الالم التى تطل من عينى الخبير الفنى وهو يرى انساناً يمتدح لوحة تافهة القيمة ؟ ! فليس هناك أية قيمة خاصة لأن تقرأ ألف كتاب أو أن تحرث ألف فدان ، وليس هناك قيمة خاصة أيضا لان تصف بدقة عيوب احدى الصور الفنية أو أن تصلح خلل سيارة، فالعبرة فى كل حالة من هذه الحالات بالمعرفة الخاصة أو بالخبرة ، فان للسمسار خبرته ، وكذلك للصانع ، ومن الحماقة أن يظن المثقف أن ثقافته هى المعول عليها ، فان الحق ، والخير والجمال ليست فقط من مميزات أولئك الذين تخرجوا فى معاهد عليا ، أو ترددوا على المكتبات العامة ومتاحف الفنون بانتظام وليس للفنان الاصيل أى عذر اذا عامل غيره فى تعال وكبرياء ، وانه ليكون شديد الحماقة اذا خطر له أن خبرته أو علمه اكثر أهمية من خبرة أو علم الغير ، وهو تافه أجوف اذا لم يشعر بالراحة وهو يتعامل مع غيره على قدم المساواة • ولقد أساء ماتيو أرنولد الى الثقافة أبلغ الاساءة حين أصر على تعارضها مع مبادىء المساواة البشرية ••

- ٢٣ -

كنت وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى أتقن اللغتين الفرنسية والالمانية، وألم بالايطالية فضلا عن لغتى الانجليزية ، ولكنى كنت ابعد ماكون عن الثقافة ، وكنت شديد الاحساس بجهلى ، ولقد قرأت كل ماوقع بين يدى، وكان شرهى للمعرفة شديدا الى حد أنه لم يكن يهمنى أن اقرأ مجلدا فى التاريخ أو رواية مغامرات عن رعاة البقر أو نقدا للشعر أو اعترافات سانت أغسطين ، وأعتقد أن هذه القراءات قد زودتنى بمقدار ضخم من المعلومات التى لاغنى عنها للروائى ، فالكاتب لايدرى متى سيجد نفسه فى حاجة الى بعض هذه المعلومات التى قد تبدو فى حينها تافهة • وقد وضعت قوائم بالكتب التى قرأتها ، ولا تزال احداها باقية لدى ، بمحض المصادفة ، وكانت هى قائمة الكتب التى قرأتها فى شهرين ، ولولا انى كتبتها بنفسى لما صدقت انى قرأت كل هذه المنوعات فى مدة شهرين ، فقد دلت على أنى قرأت ثلاث مسرحيات لشكسبير ، ومجلدين فى تاريخ روما لموسين ، وجانبا كبيرا فى تاريخ الادب الفرنسى للانسون ، وثلاث أو أربع روايات وبعض الكتب الفرنسية المعاصرة وكتابين فى العلوم ، ومسرحية لابسن . لقد كنت ، حقا ، دودة كتب ، وفى أثناء دراستى الطبية فى مستشفى سانت توماس ، قرأت الشىء الكثير من الأدب الانجليزى والفرنسى والايطالى واللاتينى ، وكذلك الكثير من كتب التاريخ ، والقليل من الفلسفة ، وعددا لا بأس به من كتب العلوم•• وكان نهمى للقراءة حادا بحيث لم أكن أجد الوقت الكافى للتأمل فيما كنت أقرأ • كنت لااكاد أصبر على الفراغ من قراءة كتاب بسبب لهفتى العارمة الى ان ابدأ غيره ، فقد كان كل كتاب جديد بالنسبة لى مغامرة • كنت أبدأ فى قراءة احد الكتب المشهورة بشعور الشاب وهو يقبل على الاشتراك مع فريق فى مباراة رياضية ، أو الفتاة وهى تذهب الى حفلة راقصة ،

وان رجال الصحافة يسألوننى بين حين وآخر عن أشد لحظات حياتى اثارة ومتعة ، ولولا الخجل لاجبتهم قائلا انها اللحظة التى بدأت فيهـــا قراءة قصة « فاوست » لجيته ، فانى لم افقد الشعور بما احسسته فى تلك اللحظة ، وحتى الآن ، فان الصفحات الاولى لاى كتاب أبدا فى قراءته، ترسل الدماء حارة فى عروقى ، فان القراءة بالنسبة لى هى المتعة التى يحس بها البعض فى الحديث أو فى لعب الورق ٠ بل لعلها أكثر من هذا ٠٠ انها ضرورة ملحة ٠٠ فلو أنى حرمتها فترة وجيزة ، لشعرت بالضيق والاضطراب الذى يشعر بهما المدمن حين يحرم من المخدر ٠ انى حينئذ افضل أن اقرأ جدول مواعيد القطارات أو مجموعة من البرامج على البقاء بدون قراءة ، بل انى فى الواقع أمضيت بضع ساعات بهيجـــة وانا اطالع قوائم أسعار السلع فى مخازن « الجيش والبحرية » وقوائم الكتب المستعملة لدى الوراقين ، ويمكننى القول ، فى غير اسراف، بأن هــذه القــوائم أو تلك ، كانت أفضـــل عندى من نصف الروايات التى قرأتها ٠٠

ولقد خففت من قراءاتى حين شعرت بأن الوقت يجرى ، وانه قد حان لى ان اتكسب لاعيش ٠ ولقد انغمرت فى خضم الحياة لانى ظننت انه من المحتم ان اخوض التجارب التى لاغنى عنها للكاتب ، فقد بدا لى أنه لايكفينى فقط أن اكون كاتبا ، فان المنهج الذى رسمته لحياتى كان يستلزم أن العب أكبر دور ممكن فى الحياة كرجل ٠ لقد اردت ان اتذوق الآلام والمباهج العامة التى هى جزء من الحياة البشرية فى عمومها ، فلم أجد سببا يجعلنى أخضع مطالب الحواس لاغراءات اضواء الروح ، ومن ثم قررت ان املأ نفسى بقدر ما استطيع من الاتصالات الاجتماعية والعلاقات البشرية : من الطعام والشراب ، والعواطف ، والترف والرياضة ، والفن؛ والرحلات ، وما الى هذا كله كما يقول هنرى جيمس، ولكن هذا كله كان مرهقا مجهدا لى فلم يكن يسعنى الا أن الوذ ــ كلما استطعت ــ الى مصاحبة الكتب فى غبطة وارتياح ٠

ومع هذا ، وبرغم كل ماقرأت ، فأنا قارىء غير مجيـد ، فأنا أقرأ ببطء شديد ، وعنيد، لا أترك من يدى كتابا ، مهما كان مملا تافها ، دون أن أتمه ٠ وانى استطيع ان أحصى على أصابعى عدد الكتب التى لم اقرأها من الغلاف الى الغلاف ٠ ومن ناحية أخرى هناك عدد قليل من الكتب التى قرأتها مرتين، وأنا أعرف تماما أن هناك كتبا كثيرة لا يمكن أن تستفيد منها كما ينبغى من أول قراءة ، ولكنها ، من هذه الناحية ، زودتنى بكل ماكنت أريد التزود به فى ذلك الحين ، وبرغم انى قد أنسى منها بعض التفاصيل فان المهم فيها يرسب فى ذهنى ، وأنا أعرف أشخاصا يقرأون هذا الكتاب أو ذاك بضع مرات ، انهم ، ولاشك يقرأون بعيونهم ، لا بعقولهم ، انها قراء (آلية) كالذى يدير عجلة فارغة . انها مشغولية لاضرر فيها بطبيعة الحال ، ولكنهم مخطئون اذا ظنوا أنهـم يشغلون أنفسهم بلون من ألوان العلم والمعرفة ٠

كنت فى أيام الشباب لا أتردد فى تخطئة نفسى اذا اختلف رأيى فى كتاب معين مع آراء كبار النقاد ، فلم أكن أعرف أن للنقاد آراء اصطلاحية، ولم يخطر ببالى أبدا انهم يتحدثون فى لهجة تأكيد عن موضوعات لا يعرفون عنها شيئا كثيرا. وقد انصرمت فترة طويلة قبل أن أتبين أن الشىء المهم فى عملى الفنى هو ما يدور حوله تفكيرى أما الآن فقد تزودت بلون من الثقة فى أحكامى الخاصة، ذلك أنى لاحظت أن ما أحسست به ، غريزيا منذ أربعين عاما نحو الكتاب الذين كنت اقرأ لهم ، وما لم أحفل به من الكتب التى لم تظفر باعجابى الشخصى قد أصبح اليوم من بين الآراء العامة ، أى أن آراء القراء العامة الآن تتفق مع ما أحببته ، وما كرهته ، منذ أربعين عاما . ومع ذلك فانى لا زلت اقرأ كثيرا من النقد ، لأنى أراه نوعا مشوقا من الانشاء الادبى ، فالانسان لا يقرأ دائما من أجل المتعة الروحية ، وليس هناك ما هو أبهج من قضاء ساعة أو ساعتين فى التسلية بقراءة مجلد فى النقد ، فأنت حينا تتفق مع الناقد وحينا تختلف معه، وانه لمن دواعى الرضا أن يعرف الانسان آراء بعض النقاد الأذكياء فى بعض الكتاب ــ مثل هنرى مور ريتشاردسون ــ الذين لم تسنح لك الفرصة لقراءتهم ..

ولكن الشىء المهم فى أى كتاب هو معناه بالنسبة لك ، فقد يكون له معان أهم وأخطر بالنسبة للناقد ، ولكنها من ناحية أخرى ، قد تكون غير ذات أهمية لك . فأنا لا اقرأ الكتاب لذاته ، وانما لفائدتى ، وليس من شأنى أن أحكم عليه ، وانما الذى يهمنى منه هو كل ما يمكن أن امتصه منه ، كما يمتص ميكروب الأميبا جزيئا من جسم غريب أما ما عدا هذا فلا يهمنى فى شىء ، فما أنا بالمعلم ، أو بالتلميذ ، أو بالناقد، وانما أنا كاتب محترف أقرأ الآن كل مافيه فائدة عملية لى . ان فى مقدور أى انسان أن يؤلف كتابا يقلب فيه رأسا على عقب كل المعتقدات التى ظلت سائدة على مر الأجيال عن البطالسة . وفى مقدور الناس أيضا أن يتركوا مثل هذا الكتاب دون قراءة . ويمكن لآخر أن يصف مغامرة شاذة فى قلب باتاجونيا ، ومع ذلك أبقى جاهلا بها . وليس هناك ما يدعو الكاتب الروائى لأن يتخصص فى أى شىء الا فى عمله ، فان تنويع التخصص ــ فى الواقع مضربه ــ فالطبيعة البشرية ضعيفة ، واذا هو تخصص فى أشياء بجانب الكتابة ، فسوف يجد نفسه ميالا لأن يحشر معلوماته الخاصة فيما يكتب ولو بغير مناسبة . وأسوأ نصيحة تقدم للكاتب هى أن يكون مسرفا فى استعمال الاصطلاحات اللغوية الفنية ، فان الاسلوب الاصطلاحى الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر ،أصبح فى هذا القرن مثيرا للضجر والملل . ففى مقدور الكاتب أن يوضح معانيه بغير هذه المصطلحات ، ولكن عليه أن يبذل الجهد حتى يصور ما يريد . وعلى الروائى أن يعرف المسائل المهمة التى تشغل خواطر الناس الذين هم مادته الخام ومدار موضوعاته ، ويكفى ، عادة ، أن يعرف ولو شيئا يسيرا من هذه المسائل ، فليس من المعقول أن يلم بها كلها . وعليه أن

يتجنب الحـــذلقة بأى ثمن ، ولكن مجال «الحــــذلقة للأسف ، واسع وقد بذلت كل جهد مستطاع لكى أركز كتاباتى فى الأغراض المعينة التى أريد الكتابة فيها ، أما كتاب السيرة والمؤرخون والاخصائيون فانهم يقدمون لك أحيانا لمحات كاشفة ، أو لمسات مؤثرة أو اسهابا فى الخصوصيات التى لا يمكن غالبا أن تظفر بها من الاشخاص الأحياء. فمن الصعب أن تستشف كل شيء عن الناس الاحياء ، وليس من السهل أن تستدرجهم ليفضوا اليك بما يفيدك فى عملك ، فانهم ليسوا كالكتب التى تقرؤها حينا وتدعها حينا ، وانما هم كالمجلد الذى عليك أن تقراه كله ، مرغما . لكى تتبين فى النهاية أنك لم تستفد منه الا قليلا .

- ٢٥ -

يشرفنى بعض الشبان الراغبين فى أن يصبحوا كتابا . حين يلجئون الى طالبين أن أنصحهم وأذكر لهم الكتب الضرورية التى ينبغى أن يقرءوها وبرغم انى البى رغباتهم فانهم قلما يقرءون هذه الكتب التى أدلهم عليها ، ذلك لأنه تنقصهم الرغبة الشديدة فى المعرفة فهم لايحفلون بما فعل أو كتب اسلافهم انهم يعتقدون انهم يعرفون كل ما هو ضرورى لفن الكتابة القصصية عنـــدما يقرءون روايتين أو ثلاثا بقلم المستر دولف ، ورواية لفورستر ، وبضع روايات للورنس - حقا ان للأدب المعاصر تأثيرا وسحرا لم يظفر بمثلهما الادب القديم ، وانه لحسن « أن يعرف الاديب الناشىء ماذا يكتب الأدباء المعاصرون وكيف ، وعما يكتبون . ولكن هناك انماطا فى أساليب الكتابة ، وليس من السهولة لمن لا يلم بهذه الأنماط ، أن يتبين خصائص ومميزات الأسلوب المنتشر فى وقت من الأوقات ، ولا سيما فى الوقت المعاصر ، فان معرفة روائع الآثار الأدبية السابقة ، ضرورية لمن يريد المقارنة بين مختلف أساليب الكتاب فى مختلف العصور. وكثيرا ما ساءلت نفسى : هل يرجع السبب فى انطفاء شهرة الكتاب الشبان برغم براعتهم وقدرتهم على الكتابة والتأليف ، الى جهلهم بروائع الادب غير المعاصر ؟ ان الواحد منهم يصدر كتابا أو مجموعة كتب ، ليست جيدة فحسب وانما هى رائعة ، ثم .. ينتهى الى أن اصدار كتاب أو مجموعة صغيرة من الكتب لا يثرى أدب الامة. فان اثراء آداب الأمة لايحتاج الى أن تصدر كتابا أو ثلاثة كتب ، وانما الى ان تصدر عشرات منها ، وبطبيعة الحال لن تكون هذه الكتب فى مســـتوى واحد ، أو من الروائع المخلدة ، لأن الروائع تحتاج فى انتاجها الى مجموعة من الظروف الملائمة السعيدة ، التى تجمعها المصادفات بعضها الى بعض ، وليس من المهم أيضا ان ينتج الكاتب أروع كتاب له وهو فى ذروة الانتاج فان الـكتاب الرائع يأتى نتيجة عوامل خاصة متفاعلة من الجهد والاتقان ، لا نتيجة عبقرية غير دارسة أو غير مثقفة . ولا يمكن للكاتب ان يحتفظ بخصوبته مالم يحرص على تجديد نفسه ولا يتم هذا التجديد الا اذا حرص على اثراء روحه ونفسه بالمزيد من التجارب وليست ثمة وسيلة للاثراء الروحى أفضل من أن ينهل الكاتب من منبع روائع الآداب غير المعاصرة .

ان انتاج العمل الفنى لا يتم بمعجزة ·· انه يحتـــاج الى تمهيد ، والتربة الفنيه، مهما تكن خصوبتها ، تحتاج الى رعاية وغذاء ، فبالتأمل، وتشرب أفكار الغير ، وبالجهد الذاتى المتصـــــل ، يتسع - حتماً - أفق الفنان ، ويعمق تفكيره ، وتتنوع شخصيته ، هذا عن نعدية التربة الفنية التى تحتاج الى الحرث والراحة ·· ولهذا ينتظر الفنان مهبط الالهام الذى يزوده بقوة روحية هائلة . انه يؤدى شواغله العادية بفعله الظاهر فى صبر ، ولـكن عقله الباطن يقوم بعمله الخفى المتواصل · وفجأة ، ومن حيث لا يدرى ، تنبثق الفكرة فى ذهنه ·· انهـــا البذرة ·· ولكـن البذرة ·· بذرة القمح مثلا قد تسقط على أرض صخرية فتموت ·· انها تحتاج الى رعاية خاصة ·· تحتاج الى كل مافى ذهن الفنان من مقدرة وقوة ، والى كل براعته الفنية ، والى كل تجاربه ، والى كل مافى أعماقه من خصائص ذاتية وخلقية ، وبهذا كله قد يستطيع بالجهد والمشقة والصبر أن ينتجها ويظفر فى النهاية بمحصول وافر منها ·

ولكننى لست نافذ الصبر مع الأدباء الناشئين الا حينما انصحهم ، بنـاء على رغبتهم دائما - ليقرءوا شكسبير وسويفت ، فيذكرون لى أنهم قرءوا رحلات جيلفر فى طفولتهم «وهنرى الرابع» فى المدرسة ، وان القارىء الذى لا يستطيع أن يهضم كتباً أدبية عميقة مثـــل قصة « أنا كارنينا » فهو وشأنه ، فليس للقراءة أية قيمة مالم تكن متعة للقارىء · وهذا على الأقل ما يمكن أن يقال لهم حتى لا يركبهم الغرور الذاتى بوفرة معلوماتهم انهم لا يستطيعون أن يحلقوا بالثقافة الواسعة ، فوق العواطف الانسانية المعروفة للنـــــاس الذين هم مادتهم الخام · انهم اقرب ما يكونون الى الأشخاص العاديين ، وان فنهم الذى يمارسونه ليس فيه شىء من الاسرار الخفية ، وانما هو عمل واضح كأى عمل آخر انهم يكتبون من الروايات والمسرحيات مالا يكون لها فى النفوس من الأثر أكثر مما يكون لصانعى السيارات · ولا بأس فى هذا · أما الفنان الحق ، ولا سيما الكاتب ، فهو الذى ينشىء فى عزلته ، بتأملاته وأخيلته ، عالما يختلف عن عوالم الناس العاديين وان الخصائص التى تصنع الكاتب ، تفصله عن الناس ، ثم يبرز عندئذ التناقض بين مظهره ومخبره ، فهو يستهدف الرغبة فى التعبير عنهم تعبيرا دقيقا واقعيا ، ولكن مواهبه تمنعه من أن يعرفهـم على حقيقتهم ، وكأنما هو ملهوف الى أن يرى شيئاً معينـــا ، ولكن عملية الرؤية ذاتهـا تسدل على ذلك الشىء حجابا يخفيه ، فالكاتب يقف خارج التجربة التى يعيش فيها ، انه كالممثل الهزلى الذى لايستطيع أن يغنى فى دوره ، لأنه ممثل ومتفرج فى وقت واحد ، ولا بأس من القـول بأن الشعر ليس الا عاطفة أثار الذهن ذكراها فى لحظة صفاء ، ولكن عواطف الشعراء نوعيه ذاتية ، وهذا هو السبب الذى جعل النساء ذوات التفكير السليم لا يجدن فى غرام الشعراء ما يرضيهن · ومن المحتمل أن يستطيع الكتاب المعاصرون الذين يبدون أقرب اتصالا بموادهم الخام ·· أى يبدون رجالا عاديين بين أناس عاديين ، ان يحطموا ذلك الجدار الذى طالما اقامته مواهب الفنانين بينهم وبين عامة الناس ، وهكذا يتاح للكتاب أن يزدادوا قربا من الحقائق الواقعية فى الحياة ·

لقد كان لى نصيبى الكبير من الفخفخة الادبية ، واذا كنت ـ كما أرجو ـ قد فقدتهـــا الآن ، فيجب أن أعزوها ، لا الى فضـائل أو ذكاء خاص ، وانما الى المصادفة التى اتاحت لى أن أكون أكثر ترحالا من غيرى من الكتاب فرغم جنسيتي الانجليزية ، فاني لا أشـعر أبدا ، وأنا فى انجلترا ، بمتعة الراحة التى يحس بها المواطن فى وطنه . فأنا دائما على شيء من التهيب والنفور من مواطنى الانجليز ، وان انجلترا بالنسبة لى ، بلد تربطنى به التزامات لا أريد أن أقوم بهـــا ، ومسئوليات طالما ضايقتنى . ولست اشـعر بالراحة والانطلاق أبدا الا اذا فصلت بينى وبين انجلترا قنـــاة المانش على الاقل ، وان كثيرا من السعداء يجدون الحرية فى نطاق عقولهم ، ولكننى وانا أقل منهم فى هذه القوة الروحية ، أجد هذه الحرية فى الرحلات . فعندما كنت مقيما فى هيدلبرج بألمانيا قمت بزيارات متعددة الى أماكن كثيرة فيها فى المانيا ذاتها ، وشاهدت فى ميونيخ «أبسن» وهو يشرب قدحا من البيرة ويقرأ صحيفة الصباح بوجه مقطب فى حانة مكسيمليانرهوف . وكذلك ذهبت الى سويسرا ، ولكن الرحلة الحقيقية الاولى هى التى قمت بها الى ايطاليا . لقد ذهبت اليها منتفخا بقراءاتى لوالتر باتر ، ورسكين ، وجون أرنجتون سيمون ، وكان معى نحو عشرين جنيها ، وأمامى ستة أسابيع « عطلة أعياد الفصح » ، وبعد أن ذهبت الى جنوا وبيزا حيث قطعت مسافات طويلة لأجلس فى غابة الصنوبر التى قرأ فيها شيلى مسرحيات واشـعار سوفوكليس ، ونظم قصائده على نغمات القيثارة ، اتخذت مسكنا لمدة شهر فى فلورنسا مع سيدة أرملة كانت لها ابنة علمتنى مبادىء اللغة الايطاليه . ولقـــد امضيت أياما حافلة وكتاب رسكين فى يدى ، أتفرج على معالم المدينة ولقد أعجبت بكل ما سبق أن أعجب به « رسكين » فى كتابه وحتى بذلك البرج الرهيب ، برج جيوتو ، وأشحت بوجهى فى نفور عما أشاح هو بوجهه عنه. وأعتقد أنه ما كان ليطمع أن يجد حواريا له مثلى فى الحياة. وذهبت بعـد ذلك الى البندقية وفيرونا وميـــلانو ، ثم عدت الى انجلترا وأنا شديد الرضا عن نفسى ، متحمس الى احتقار كل شخص لا تتفق آراؤه مع آرائى أو آراء رسكين وبوتشيلى وبيلينى ..

وكنت فى العشرين من عمرى .

وبعد عام عدت الى ايطاليا ، ووصلت فى هـــذه الرحلة الى نابلى ، واكتشفت جزيرة كابرى ، وقد وجدت أنها أجمل مكان سبق ان رأيته ، ومن ثم امضيت فيها عطلة الصيف التالية كلها . وكانت « كابرى» يوم ذاك غير مشهورة ، ولم يكن ثمة مايربط بين « البلاج » والمدينة ، وكان عدد قليل من الناس يذهبون اليها فى الصيف حيث يمكن للشخص أن يجد مسكنا يطل على البحر بالطعـام والشراب ـ حتى الخـمر ـ بأربعة شلنات فى اليوم ، وكان هناك ، عندئذ ، شاعر وملحن موسيقى بلجيكى وصاحبى « براون » الذى كان مقيما معى فى هيدلبرج ، ورسام أو أثنان ، ومثال « هارفارد توماس » وضابط أمريكى برتبة كولونيل كان

قد حارب في صفوف الولايات الامريكية الجنوبية فى الحرب الاهلية ٠ وكنت أنصت باهتمام شديد الى الاحاديث التى تدور فى منزل الكولونيل فى أيا كابرى أو فى حانة مورچانو بالميدان ، وكانت معظم هذه الاحاديث تدور حول الفن والجمـــال والادب والتاريخ الرومـــانى وقد رأيت اثنين يمســـك كل منهما بخناق الآخر لاختلافهما فى تقـــدير أغانى هيريديا ، وكان هذا كله يبدو لى رائعا ٠ الفن ، من أجل الفن ٠٠ كان هذا شعارى المقدس فى الحياة٠٠ان الفنان هو الذى يضفى على الحياة معناها : السياسة ٠٠ التجـــارة ٠٠ المهن العلمية الأخرى ٠٠ ما قيمتها كلهـــا اذا قورنت بجوهر الفن ! انهم قد يختلفون .. اصدقائى هؤلاء ــ ولقد ماتوا جميعا ــ يختلفون حول قيمة أغرودة أو حول روعة تمثال يونانى، يونانى فى عينك.. انه منقول عن تمثـــال رومانى ، وأنا اذا قلت شيئا ينبغى أن تصدقنى ولكنهم جميعا يتفقون فى شىء واحد هو انهم يحترقون بقوة كوهج الجواهر ليضيئوا الطريق لغيرهم ، وكنت أشد خجلا من أن أقول لهم انى كتبت رواية مطولة ، وانى فى منتصف الثانية ، وكان هذا الخجل يؤلمنى بشدة لأنى ، وأنا أحترق مثلهم بوهج الجواهر ، لاأبدو امامهم الا كشخص من العوام لايهمه غير تشريح الجثث ، والا انتهـــاز الفرصة لحقن جسم أقرب صديق له ..

- ٢٧ -

وتخرجت أخيرا فى مدرسة الطب ٠ وكنت قد نشرت رواية ظفرت بنجاح لم أكن أتوقعه، وخطر لى أن مستقبلى أصبح مؤكدا ، وهكذا هجرت مهنة الطب ، واحترفت الكتابة ٠ وذهبت الى أسبانيا وكنت عندئذ فى الثالثة والعشرين ، وكنت أرى انى أشد جهلا ــ كما بدا لى ــ من أترابى الذين هم فى مثل هذه الســن الآن ، واستقر بى المقام فى مدينة أشبيلية الاسبانية ، واطلقت شاربى ، ورحت ادخن سيجارة الفلبينو ، وتعلمت العزف على القيثارة ، واشتريت قبعة عريضة الاطار بقاعدة مبططة كنت اختال بها فى الطرقات ، وأهفو الى رداء فضفاض مطرز بالمخمل الاخضر والاصفر ، ولكنى لم أستطع شراءه بسبب ارتفاع ثمنه وكنت امضى فى ضواحى المدينة راكبا جوادا معارا من صديق كانت الحياة أجمل من أن تتيح لى فرصة التفرغ للتأليف. وكان مقصدى أن أمضى هناك عاما حتى أتعلم اللغة الاسبانية ، ثم أمضى الى روما التى لم أعرفها الاكعابر سبيل لأقوى معلوماتى السطحية فى اللغة الايطالية ، ثم اتبع هذا برحلة الى اليونان ، لأتعلم اللغة اليونانية المحليـــة تمهيدا لدراسة اللغة اليونانية القديمة ، وأخيرا أمضى الى القاهرة لاتعلم العربية لقد كان برنامجا ضخما كله طموح وانى لسعيد الآن لأنى لم أنفذه ٠ لقد ذهبت فقط الى روما حيث كتبت مسرحيتى الأولى ، ثم عدت الى أسبانيا ، ذلك لأنه حدث شىء لم يكن متوقعا .. فقد أحببت مدينة أشبيلية وطريقة المعيشة فيها واحببت فتاة صغيرة خضراء العينين ، وضـــاءة الابتسام وقد تغلبت على هذا الحب فى النهاية ولكنى فى ذلك الحين لم أستطع مقـــاومة الاغراء ، فكنت أعود اليها عاما بعد عام ، وكنت أجوس خلال شوارعها البيضاء

الساكنة ، وأجول في طريق جواد لكويفر ، وأحــوم حول الكتدرائية ؛ وأذهب الى مباريات مصارعة الثيران ، وأغازل الفتيات اليافعات اللائى لم تكن مطالبهن اليسيرة تتجاوز حدود مقدرتى المالية . لقد كانت أشبيلية، للشباب كالجنة ، ومن ثم أجلت التزود بالعلم والثقافة الى فرصة أنسب ، وكانت النتيجــة انى لم اقرأ ــ أبدا ــ أودسة هوميروس الا مترجمة الى الانجليزية ، ولم أتمكن أبدا من تحقيق أملى فى قراءة كتاب « الف ليلة وليلة » بالعربية ٠

ولمـا أخذتنى الحماسة للادب الروسى ، وتذكرت أن الفيلسـوف «كاتو» تعلم اللغة الروسية وهو فى الثمـانين من عمره ، قررت أن أتعلمها أيضـا . ولكنى كنت يومذاك قد فقدت حماسة الشباب ، فلم اتجاوز فى قراءتى غير مسرحيات تشيكوف ، ثم نسيت منذ أمد بعيد القليل مما تعلمته من هذه اللغة ٠ وانى اعتقد الآن ان مشروعاتى تلك كانت الى حد ما صبيانية فليست للكلمات ذاتها أية أهمية ، وانما أهميتها فيما تحمله من معنى ، ومن ثم ادركت أنه لا فائدة روحية ولا متعة عقلية من أن أتعلم نصف «دستة» من اللغات ٠ لقد التقيت بالكثيرين ممن يعرفون أكثر من خمس أو ست لغات ، ولكنى لاحظت انهم ليســوا أحد ذكاء أو أوسع ادراكا او أوفر معلومات منا ، وانه من المناسب طبعا اذا نزلت بلدا أن تلم بشيء من لغته لتعرف طريقك فيــه وتطلب ما تريد أن تأكله ، واذا كانت لهذا البـلد ثروة ادبية ضخمة ، فانه من الممتع ان تستطيع قراءتها بلغته نفسـها ، وهذا ميسور اذا شئت أما اذا تجاوزت هذا الحد ، فلن تظفر بطائل ، فاذا لم تكرس كل حياتك لتتحدث بلغة أجنبية تماما كأهلها فلن تستطيع ، ولن تستطيع أيضا أن تتعرف بدخائل نفوس أهلها أو دقائق آدابهم لانهم وآدابهم التى هى تعبير عنهم ، هما الخامة المصنوعة ، لا من تصرفاتهم التى يقومون بها أو كلماتهم التى يستخدمونها ؛ لأنه ليست ثمة صعوبة فى كليهما وانما هى غرائز راسبة على مدى الأجيال ، وظلال من المشاعر التى رضعوها مع البان أمهاتهم والاتجاهات الخاصة التى لا يمكن للاجنبى ان يتفهمها فانه ليس من اليسير على الانسان أن يتعرف دخـائل بنى وطنه ، فكيف أبناء أوطان الغير ؟ أننا ولا سيما معشر الانجليز، نخدع انفسنا اذا اعتقدنا أن فى مقدورنا أن نتعرف الحقيقة عن أبناء الأوطان الاخرى ذلك أن جزيرتنا منعزلة بالبحر وهى تعزلنا عن بقية العالم ؛ حتى الرابطة الدينية التى كانت الوشيجة الوحيدة بيننا وبين العـالم المسيحى قد انفصمت ايضا بالانقلاب المذهبى الذى جعلنا نؤمن بمذهب مارتن لوثر البروتستانتى ٠ ومن الواضح انه ليس ثمة ما يدعو الى الاهتمام باســتيعاب المعلومات التى لن تكون فى يوم ما أكثر من ســطحية ومن ثم كنت أعتقــد أنه من اضــاعة الوقت أن يتعلم الانســان اكثر من شذرات من اللغات الاجنبية ، ولكن الاستثناء الوحيد فى هذا الحكم ، هو تعلم اللغة الفرنسية ، لانها لغة عامة للمثقفين ، ومن الممكن بســهولة اتقانها الى حد استخدامها فى دراســة أى موضوع قد يخطر بالبال وهى موفورة الثراء بألوان الادب . وثمة دول أخرى ــ عدا انجلترا ــ زاخرة بكبار الكتاب دون روائع الادب . وقد كان تأثير اللغة الفرنسية فى عالم الأدب ، حتى مستهل القرن العشرين ، عظيما ٠ وانه لجميل جدا أن يكون

في مقدورك أن تقرأ اللغة الفرنسية بالسهولة التى تقرأ بها لغة بلادك ٠ ولكن هناك ، طبعا ، حدودا للتحدث بها فى طلاقة ويسر ٠ وبهذه المناسبة أنصحك أن تأخذ حذرك من الرجل الانجليــزى الذى يتحدث الفرنسية باتقان شديد ، فمن المحتمل أن يكون محتالا دوليا فى لعب الورق ، أو ملحقا بالسلك الدبلوماسى ٠

- ٢٨ -

اننى لم أكن فى يوم ما من عباد المسرح ، وأعرف كتابا مسرحيين كانوا يذهبون فى كل ليله الى المسارح التى تمثل فيها رواياتهم ، وهم يبررون هذا بقولهم انهم يذهبون ليتحمموا من ان حماسة التمثيل والاخراج لا تفتر بمرور الايام ، ولكنى اعتقد أنهم يذهبون لانهم لا يملون من سماع كلماتهم المكتوبة تلقى على الاسماع ، وان بهجتهم لا يكون لهــا حد وهم جالسون وراء الكواليس فى فترات الاستراحه يتحدثون عن هذا المنظر أو ذاك ويتساءلون عن السبب فى ضعف تمثيله أو يهنئون أنفسهم بروعة الاخراج ، وفى خلال هذا يرقبون الممثلين والممثلات وهم يستعدون للمنظر أو الفصل التالى ٠ وأنهم لا يكفون عن الشعور بمتعة الاحاديث الفارغة عن أحوال المسرح فى ذلك اليوم ، انهم يحبــون المسرح وكل ما يتصل به ، كأنما طلاء المناظر يجرى فى عروقهم ٠٠

وأنا لم أحب هذا كله يوما ، وانما أحب المسرح وهو تحت طبقة من الغبار ٠٠ مهجور ٠٠ الظلام يغمره والستائر مسدله ٠٠ وخشبة التمثيل فارغة ٠٠ وألواح المناظر موضوعه بوجوهها على الجدران ، ولا يخفف من ظلمته الا الاضواء الارضية الخابية ٠٠ ان المسرح فى هــذه الحالة يكون معدا للتجارب ، وكم من ساعة بهيجة قضيتها فى مثل هذه التجارب ، فانا أحب ما فيهــا من جو الزمالة ، ثم الاسراع الى طعــام الغداء فى المطعم القريب حيث الشاى الاسود ، والخبز السميك بالزبد ٠ ولا أعتقد أنى سأنسى لذة الشعور الممتع والدهشة الحلوة فى أثناء تجارب اخراج روايتى الاولى وأنا أسمع رجالا ونساء محترمين يرددون عبارات كاملة من حوار الرواية الذى كان ينثال من قلمى بسهولة ٠ وكان يلذ لى أن أرقب الطريقة التى تنمو بها أجزاء وفصول روايتى بين أيدى الممثلين من القراءات الاولى الجامدة لأصول المسرحية حتى تصبح نابضة بالحياة كما كنت أتخيلهــا تماما ٠ وكنت أتسلى أيضا بالمناقشات التى تدور حول تحديد وضع قطعة من الأثاث فى المكان المناسب وبمنظر « انتفاخ » المخرج ، وباستياء هذه الممثلة أو تلك حين لا تظفر بالدور الذى يرضيهــا ، وباصرار الممثلين القدامى الكبار على أن يظفروا بوسط خشــبة المسرح فى أثنــاء تمثيل أدوارهم ، وبالأحاديث المختلفة التى تدور حول أى موضوع يثار ٠ ثم يأتى بعد هذا كله ، أهم جانب فى تجارب التمثيل وهو التجربة بالملابس المسرحية ، فانك تجد فى الصف الاول ، ستة أشــخاص ، انهم خبراء الملابس ٠٠ وهم يجلسون ويرقبون فى سكون تام وكأنهم فى معبد ٠٠ ولكنهم بين الحين والآخر يتبادلون همسات سريعة عملية فى أثناء تجربة التمثيل فتفهم من تعبيرات وجوهم انهم يتبادلون فى صمت أو همس

رقيق الرأى عن طول هذا الثوب ، أو قصر ذاك ، أو عن هذه الريشة فى القبعه أو ذلك الكم غير المضبوط ، وعندما تسدل الستار ، يهرعون ـ والدبابيس فى أفواههم ـ الى ما وراء خشبة المسرح ليصلحوا ما راوه فى حاجه الى الاصلاح ثم اذا صيحة المخرج تدوى برفع الستار ، فيهرع الممثون والممثلات الى خشبة المسرح ، ويعود خبراء الملابس الى أماكنهم ليعاودوا المراقبه و كانهم فى معبد ، وفى المقصير يقف المصورون ومدير المسرح وبعض الاداريين وامهات الممثلات وزوجات الممثلين ، ومندوب المؤلف ، وصديقه له وثلاثة أو أربعة من الممثلين الذين لم يسند اليهم أى دور منذ أكثر من عشرين سنة · انهم فى نظرى الانموذج الكامل لجمهور المتفرجين ، وبعد كل فاصل ، يقرا المخرج على الممثلين الملاحظات التى دونها ، ثم تثور « خناقة » مع الكهربى الذى لا عمل له الا ادارة مفاتيح الكهربا خطأ ، ويحمل عليه المؤلف بسبب هذا الاهمال ولكنه أى المؤلف لا يلبث أن يدرك أن الكهربى قد نسى القيام بعمله كما ينبغى لانه كان مهتما بالمسرحيه وقد تتكرر تجربة أحد المناظر ، ثم يقف بعض الممثلين أو الفنيين فى أوضاع خاصة ، وتنبثق الاضواء الساطعة ، وتلتقط بعض الصور ، ويسدل الستار استعدادا للفصل التالى ، وينطلق الممثلون الى غرفات الملابس ليغيروها ، ويختفى خبراء الملابس وراءهم ، ويتلكأ الممثلون القدامى ليظفروا ببضعة كئوس من الشراب ، ويدخن مدير المسرح سيجارا من نوع « الجاسبار » وتتبادل الزوجات والامهات الاحاديث فى همس ، ويقرأ مندوب المؤلف أنباء سباق الخيل فى صحيفة المساء . أن هذا كله يبدو خياليا مثيرا ، ومرة أخرى يتقاطر خبراء الملابس ويعودون الى أماكنهم ، كل مجموعة من شركة ملابس منافسة تجلس بعيدا عن مجموعة الشركة الاخرى ، ويطل مدير المسرح برأسه من جانب الستار ويصيح :

ـ هل تم اعداد كل شىء يا سيادة المخرج ؟

ويرد سيادة المخرج بصوته المدوى :

ـ نعم ·· استعدوا ·· ارفعوا الستار ··

ولكن تجربة الرواية الاخيرة بالملابس هى آخر البهجة التى تتيحها لى مسرحيتى ، ذلك أنى أبدأ فى الشعور بأشد أنواع القلق والاضطراب فى أثناء الليالى الاولى لتمثيل رواياتى الاولى فقد كان مستقبلى يتوقف على نتائجها ، فعندما أخرجت مسرحيتى « الليدى فريدريك » كنت قد أوشكت على انفاق آخر مبلغ من المال حصلت عليه وأنا فى الواحدة والعشرين ، ذلك أن رواياتى المطولة الاولى لم تأت الى بما يكفى من المال ، ولم يكن فى مقدورى أن أتكسب شيئا من العمل بالصحافة · فلم تكن علاقتى بالصحافة يوم ذاك تتجاوز مقالا بين الحين والآخر · وقد استطعت ذات مرة أن أقنع رئيس تحرير احدى الصحف بأن يتيح لى فرصة كتابة نقد لاحدى المسرحيات ولكننى لم أوفق فى هذا ، ومن ثم قال لى رئيس التحرير : اننى لا أتمتع بموهبة الاحساس المسرحى ولهذا شعرت بأننى سوف أضطر ـ اذا سقطت مسرحيتى الاولى « الليدى فريدريك » ـ للعودة الى المستشفى لقضاء عام فى اعادة التمرين على الشئون الطبية لكى أحصل على منصب

طبيب جراح فى احدى السفن ، وكان هذا المنصب يوم ذاك غير مرغوب فيه ، وكان القليل من ذوى المؤهلات العالية فى الطب يقبلون الالتحاق به ، ولكنى ، بعد أن أصبحت كاتبا مسرحيا ناجحا . كنت أذهب الى المسرح فى الليالى الاولى لمسرحياتى ، لأتعرف استجابة المتفرجين لفصولها المختلفة ، ولأهتدى الى المواضع التى ينبغى أن أضاعف عنايتى بها • وكنت أحرص على الاندماج مع المتفرجين دون أن يشعروا بى ، فقد كان يلذ لى أن أسمع تعليقاتهم وهم يقضون شطائر « التصبيرة » حتى يعودوا الى العشــاء فى منازلهم فى الحادية عشرة مساء • أما نجاح الرواية أو فشلها ، فلم يكن يهمهم فى كثير أو قليــل ، وكنت أحاول أن أذهب الى الحفــلات الاولى لمسرحياتى وأنا أرغم نفسى على استشعار انها مسرحيات غيرى ، وحتى مع هذا الشعور المصطنع ، كنت لا أملك نفسى من الاحساس بالألم والاستياء • كنت لا أبتهج وأنا أسمع ضحكات المتفرجين على فكاهة بارعة فى أثنــاء التمثيل ، أو تصفيق اعجابهم عند هبوط الستار فى نهاية الفصل ، ذلك أن الحقيقة كانت تظل ، كما هى بالنسبة لى ، فأنا أشعر دائما ـ حتى فى أبسط مسرحياتى وأخفها ظلا ـ بأنهــا جزء من نفسى ما كان ينبغى أن أكشفه للجماهير ، وأن كلماتها قد كتبتهــا بيدى وبوحى من تفكيرى ، فأصبحت قطعا من أعماق احساسى لا أستسيغ أن يشاركنى فيها كل من « هب ودب » وكان هذا الشعور ينتابنى أيضا حين أذهب لمشاهدة احدى مسرحياتى التى ترجمت الى لغة أخرى ، وقد كنت أجلس فى المسرح كأنى أحد المتفرجين العاديين • والواقع أنه ما كان ينبغى لى أن أذهب لمشاهدة مسرحياتى فى الليالى الاولى أو فى أية ليال أخرى ، لكن الذى كان يدفعنى للذهاب هو رغبتى فى تعرف تأثيرها على نفوس المتفرجين حتى أتعلم كيف أحسن كتابة الاخريات •

أما الاشتغال بفن التمثيل فليس من الامور السهلة • ولست أتحدث الآن عن الفتيات اللاتى يشتغلن بهــذا الفن لأنهن جميلات ، لان الجمال وحده لا يكفى ولو كان كافيا ، كما هو حال الكاتبات على الآلات الكاتبة ، لالتحقن جميعا بالمكاتب وادارات الشركات ، وكذلك الحال مع الشبان الذين يحاولون الاشتغال بفن التمثيل ، لأن لهم أجساما رشيقة القوام ، ولا شىء غير هذا • ان هؤلاء وهؤلاء لايلبثن أن يهجرن التمثيل •• فتتزوج الجميلات ، ويلتحق الشبان ذووالاجسام الرشيقةبأعمالأخرى مختلفة، وانما أتحدث عن الممثلين ذوى الاستعداد الفنى •• ذوى المواهب الطبيعية والرغبة فى استغلالها • ان فن التمثيل مهنة تحتاج الى أشق الجهد عدا الموهبة ، لاتقانها ، ومن ثم فانه عندما يصبح الممثل قادرا على تمثيل أى دور من الادوار ، يكون قد بلغ سنا لا تتيح له الا تمثيل أدوار قليلة • انه أى فن التمثيل ، يستلزم صبرا لا حدود له ، انه مشــحون بألوان من المساوىء والاخفاق وخيبة الآمال ، ولا يخلو من فترات طوال من التعطل التى يجب احتمالها بصبر ، ثم ان مكافآته فى النهــاية قليلة وقصيرة

الأمد ، كما أنها غير مضمونة . ان الممثــل تحت رحمــة الحظ ورحمة الاعجاب المستمر للجماهير به ، لا يلبث أن يسقط فى مهاوى الخمـــول والنسيان بمجرد أن يفقد اعجاب الناس به . وعندئذ لن يفيده فى شيء أنه كان ـ يوما ما ـ معبود الجماهير ، فان هذه الجماهير التى عبدته يوما، لن تتردد فى أن تتركه يموت جوعا .. انني حين أفكر فى هذا كله أجد نفسى متسامحا فى كل ما يبدر من الممثـــل من ألوان الغرور والعجرفة والزهو والشموخ ، وهو فى ذروة المجد .. فمن حقه أن يستمتع بالشهرة والمجد كما يشاء .. فان هـــذا كله لن يدوم طويلا ، ثم لا ننسى أن كل نقائصه ما هى الا جزء من نبوغه ..

وقد أتى حين من الدهر كان المسرح فيه هو الباب المؤدى الى عالم الحب والعواطف الجياشة ، ولهذا كان كل من له اتصـــال به يبدو فى نظر الجماهير مثيرا جذابا غامضا ، وكان الممثلون فى العـــالم المتمدين بالقرن الثامن عشر يضفون على الحياة الاجتماعية لونا من المتعة والبهرجة . وكانت طريقتهم البوهيمية فى الحياة مثيرة للخيال فى عصر العقل والمنطق، وقيامهم بأدوار البطولة وطريقتهم فى القـاء الشعر تحوطهم بهالة من الاعجاب والتقدير . ان فى كتاب جيته « ولهلم مايستر » هذا الكتاب القيم المنسى ، فصولا رائعة تكشف عن اعجاب الشـــاعر بما لا يزيد يوم ذاك عن فرقة تمثيلية جوالة من الدرجة الثانية . أما فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت البيئة المسرحية تتيح مجالا للهرب من أعباء الحيـاة الصناعية التى بدأت فى الانتشار والسيادة ، وكانت البوهيمية الشائعة عنهم تثير خيال الشبان الذين يعملون مرغمين فى المكاتب ، كان الممثلون يوم ذاك يرمزون للاسراف والبهرجـــة فى عالم وقور متزن وللتهـــور والاندفاع فى دنيا من الحرص والحذر ، وكانت غلائل الأخيـلة تلفهم بأضواء الاعجاب والعجب ، وهناك فى ديوان « الحياة المختارة » للشاعر الفرنسى فكتور هيجو وصف كتبــه بلمسات مثــيرة زاخـرة بالرهبة والدهشـــة وشيء من الغــيرة ، عن حفلة عشــائه مع احدى الممثلات المعروفات يصف فيه مشاعره لأول مرة بعد أن أطلقت الشمبانيا لسانه وخياله .. فأية روعة .. وأى ترف .. وأية ادوات فضـــية .. وأية جلود للنمور كانت ترى فى جوانب مسكن الممثلة .

ان هذه البهرجة كلها قد انتهت .. فقد أصبح الممثل انسانا محترما مستقرا ميسور الحال . وان الممثلين ليستاءون الآن اذا شعروا انهم من طبقة معينة . ولقد بذلوا كل ما يستطيعون من جهد ليكونوا كغيرهم من الناس فى كل شيء . لقد بدأوا يكشفون عن أنفسهم لنا فى وضح النهار بغير هالات « المكياج » ليؤكدوا لنا أنهم أشـــخاص عاديون من دافعى الضرائب ، ومن الشاعرين بمسئوليات الحياة وأعبائها ، ولكنى، فى قرارة نفسى أعتقـــد أن محاولاتهم هـــذه كلها تمثيـــل فى تمثيل ولغو فارغ .

لقد تعرفت بعدد كبير من الممثلين معرفة وثيقـــة ، وأعترف انى استمتعت بصحبتهم ، فقد كانوا بارعين فى تقليد المشاهير والكبراء الى حد اثارة الضحك العريض ، وكانت مقدرتهم فى سرد الأحاديث الشيقة ، وسرعة بديهتهم ، تجعل عشرتهم متعة طيبة انهم : عادة : كرام ، طيبون

مخاطرون ، ولكننى لم أستطع أبدا أن أنظر اليهم على أنهم مخلوقات آدمية ، ولم أستطع أبدا أن أنجح فى أن أعرف دخائل نفوسهم ٠٠ فقد كانوا دائما فى نظرى كألغاز الكلمات المتقاطعة التى لا نجد لحلها الكلمات المطابقة ولهذا أعتقد أن شخصياتهم تتشكل بالأدوار التى يمثلونها ، فهى على هذا ، مهزوزة بعض الشىء ، غير ثابتة أو مستقرة . انها شخصيات ناعمة ، لينة ، يمكن أن تتخذ أى وضع ملائم ، وأن تصور بأى لون ، وقد ذكر أحد كبار الكتاب ذات مرة أنه لا يعجب لذلك التقليد الذى كان سائدا ، والذى كان يحرم الممثلين الموتى من الدفن بالمقابر العامة ذات الحرمة والقدسية ، لأنه لا ينبغى دفن جثث أشخاص كان المعروف عنهم انهم بلا أرواح ، ولا شك أن فى هذا الحكم مغالاة ، فانهم فى الواقع لطاف . والكاتب المخلص لا يسعه الا الاعتراف بأن بينه وبينهم نوعا مؤكدا من المشابهة ، فطبائعهم ـ كطبائعه ـ لا يتم اتساقها الا بالمتناقضات ، وهم ينطوون على جميع الشخوص التى يعكسونها بالتمثيل ، وهو أيضا يجمع فى نفسه جميع الشخوص التى يخلقها بقلمه ، فالكاتب ، والممثل ، يصوران العواطف والانفعالات التى لا يشعرون بها فى لحظة تصويرها وابرازها ، ولكنهم ،وهم واقفون بجانب واحد من أنفسهم خارج نطاق الأحداث ، يصورونها لارضاء طبائعهم الخالقة ان محاولة الاقناع هى واقع حياتهم ، وان الجمهور الذى هو مادتهم الخام والحكم ، هو أيضا حقل تجاربهم فى التغرير وسهولة الانخداع، ولأن محاولة الاقناع هى واقع حياتهم ، فانهم ينظرون الى واقع الحياة على أنه محاولة اقناع .

- ٣٠ -

لقد بدأت كتابة المسرحيات ، كما يفعل الكثير من الادباء الناشئين ، لأن هذا اللون من الكتابة ، كما أظن ، بدا لى أيسر من بناء هيكل قصة مطولة . وقد ذكر الدكتور جونسون منذ أمد بعيد أن كتابة ألوان الحوار أيسر كثيرا من اختراع الاحداث ووصف المغامرات . وأنا اذ أعيد النظر الى كراساتى التى دونت فيها مناظر المسرحيات التى كانت فى رأسى وأنا بين الثامنة عشرة والعشرين ، أجد الحوار فى مجموعها سهلا معقولا ان ما فيها من مفارقات لفظية وفكاهات لم تعد تضحكنى، ولكنها دونت كما كان الناس يقولونها ، لقد كنت التقط حوار الناس بالفريزة. على أن الفكاهات كانت قليلة وعنيفة ، وكانت موضوعات المسرحيات متزنة رزينة ، تنتهى بالحزن ، واليأس ، والموت . وفى رحلتى الأولى الى فلورنسا ، أخذت معى كتاب « الاشباح » لدانتى ، وقد رأيت أن أتسلى بترجمته ، برغم أنى كنت أدرس أدب دانتى بامعان ، الى الانجليزية من الألمانية ، وذلك لكى أظفر بدراسة فن كتابة المسرحيات ، وأذكر أنى ، برغم اعجابى الشديد بابسن ، كنت أرى مسرحيته « القس ماندرز » شديدة الاملال ، وكانت مسرحيته الناجحة « مسز تانكيرى » تمثل يوم ذاك على مسرح سانت جيمس .

وفى خلال السنتين أو الثلاث التالية كنت قد فرغت من كتابة

مجموعة من المسرحيات وأرسلت بها الى مديرى المسارح ، ولم ترد الى واحدة أو اثنتان ، ولما لم أكن محتفظا لهما بمسودات ، فقد ضاعتا الى الأبد . ورفضت المسرحيات الاخرى ، فأهملت بعضها ومزقت بعضها الآخر ، وكان الأمر فيما مضى بالنسبة للكاتب الناشيء يختلف عنه الآن ، كان من العسير يوم ذاك ، ولمدة طويلة ، أن يجد الكاتب المسرحى الناشيء مديرا مسرحيا يرضى بتمثيل مسرحياته ، فقد كانت مسرحيات الكتاب المعروفين تمثل لمدد طويلة توفيرا للنفقات ، وكان عدد صغير من المؤلفين المسرحيين المعروفين برياسة بنيرد هنرى آرثر جونز على استعداد دائما لتزويد المسارح الرئيسية بالمسرحيات المطلوبة فى اى وقت . وكذلك كان المسرح الفرنسى لا يزال فى ذروته ، وكان الاقتباس عن الأدب الفرنسى المسرحى شائعا ، وأعتقد أن نجاح « جورج مور » فى جعل « المسرح المشتعل » يخرج مسرحيته « اضراب فى آرلنجفورد » هو الذى جعلنى أفكر فى أن الوسيلة الوحيدة التى تسترعى أنظار مديرى المسارح الى هى أن أظفر أولا بالشهرة ككاتب روائى ناجح ، وهكذا صرفت النظر ، مؤقتا ، عن تأليف المسرحيات ، وبدأت فى كتابة الروايات المطولة . ولعل القارىء يظن أن هذه الطريقة العجيبة فى ترك هذا اللون من التأليف والاقبال على ذلك اللون الآخر لا تليق ــ من الوجهة العملية ــ بكاتب ناشيء ، فانها تدل على أن لهذا الكاتب عقلا خاضعا لرغباته ، بدلا من العقل الموهوب الذى جاء الى الدنيا ليضيف اليها ثروة جديدة فى الفن والأدب ، وتلك هى الحقيقة . فقد نجحت روايتاى المطولتان ، وأرسلت الى المطبعة مجموعة من قصار القصص ، ثم شرعت فى كتابة أول مسرحية كاملة لى ، كان اسمها « الرجل ذو الشرف » ، وأرسلت بها الى « فوربز روبرتسون » الذى كان ممثلا مشهورا معروفا بميوله الفنية ، ولما أن ردها الى بعد ثلاثة أو أربعة أشهر ، أرسلت بها الى تشارلس فرومان ، ولكنه أعادها بدوره الى فأعدت كتابتها وكنت فى ذلك الحين قد أصدرت روايتين أخريين كانت احداهما رواية «مسز كرادوك» التى ظفرت بنجاح كبير جعل النقاد ينظرون الى جديا مؤملين أنه ينتظرنى مستقبل باهر فى التأليف الروائى ، وانتهزت فرصة هذا الوضع الجديد الناجح ، وأرسلت مسرحيتى « الرجل ذو الشرف »بعد أن أعدت كتابتها كما ذكرت الى «جمعية المسرح» فقبلت ، وقد بلغ من اعجاب و ٠ ١ ٠ كاورتنى ــ عضو اللجنة ــ بها أن نشرها فى مجلة ريفيو نصف الشهرية ، ولم يكن من قبل قد نشر أكثر من مسرحية واحدة وهى « الليالى المتشابهة » لمسز كليفورد ، وكان هذا شرفا لم أكن أتوقعه .

ولما كانت « جمعية المسرح » هى أول منظمة من نوعها اذ ذاك فقد لفتت جهودها أنظار الجميع ، وعامل النقاد روايتى كأنها مسرحية هامة مثلت على مسرح مشهور ولكن المؤلفين القدامى ، وعلى رأسهم كليمنت سكوت حملوا عليها بعنف ، وقال عنها ناقد مجلة «سنداى تايمز» انها لا تنطوى على اية موهبة للتأليف المسرحى ، وقد نسيت اسمه الآن ، ولكن الناقدين المتأثرين بفن « ابسن » نظروا اليها واعتبروها عملا فنيا جديرا بالتقدير والتشجيع .

وخطر لى أنى خطوت الى الأمام خطوة جعلت الطريق أمامى بعد ذلك ممهدا خاليا من العقبات الضخمة ، ولكنى لم ألبث أن تبينت أنى لم أظفر بشيء أكثر من زيادة اتقانى للكتابة المسرحية ، فان مسرحيتى هذه وهى الأولى لم تلبث أن «نامت» بعد تمثيلها مرتين ، ولكن اسمى ظل معروفا للعدد المحدود من المتفرجين الذين كانوا يترددون على المسرح التجريبى « لجمعية المسرح » بدافع من الفضــــول ، ولو كنت كتبت مسرحيات أخرى مناسبة ، لقبلتها « الجمعية » فى أكبر ظنى ، ولكن هذا لم يكن ليرضينى ، ففى أثناء اجراء تجارب اخراجها ، اتصــلت بشخصيات كانت مهتمة بأمر «الجمعية» ولا سيما «جرانفيل باركــر» الذى أدى الدور الاول لمسرحيتى . لقد أدركت أن «الجــو» فى محيط الجمعية كان معاديا ، كما أحسست أن التحزب وضيق الأفق يسودان ذلك الجو .. فقد كان «جرانفيل باركر» شابا حديثا ، كنت فى الثامنة والعشرين ، وكان هو ، على ما أعتقد يصغرنى بعام ، وكان جــذابا ، مرحا ، رشـــيقا .. وكان منتفخا لاعجاب الناس به ، ولكنى أحسست فى أعماق نفسه بخوف من الحياة ، كان يحاول أن يخدع نفســـه عنــه بالنظر الى عامة الناس فى احتقار ، وكان من العسير أن تجد شيئا فى الحياة لا يحتقره ، كانت تنقصه الحيوية الروحية ، وكنت أظن يومئذ أن الفنان يحتاج الى مزيد من القوة ، والاندفاع والحماسة ، والصراحة ، والحيوية ، وكان قد كتب مسرحية عنوانها « زواج آن ليت » كانت فى رأيى هزيلة متكلفة ، وكنت من ناحيتى أحب الحياة ، وأحب التمتــع بها .. كنت أريد أن أظفر منها بكل ما أستطيع ، ولم أكن قانعا بمــا ظفرت به من اعجاب هذا العدد المحدود من أعضاء الجمعية ، ذلك انى شهدت مسرحية فكاهية سخيفة تمثـــل على مسرحهم وتظفــر منهم بالاعجاب ، وبالضحك العريض ، ولهذا لم أكن واثقا انهم يولون المسرحيات الجادة الرفيعة اهتماما كبيرا . لم أكن أريد مثل هذا الجمهور المحدود ، وانما كنت أريد الجمهور العام ، وفوق هذا كنت فقيرا .. ولم يكن فى نيتى أن أعيش على الفتات فى غرفة صغيرة ، فقد أدركت واكتشفت أن المال كالحاسة السادسة التى بدونها لا نحسن استغلال الحواس الخمس الأخرى .

وفى خلال التجارب على تمثيل مسرحية « الرجل ذو الشرف » تبينت أن بعض مشاهد الحب والغزل فى الفصل الاول طريفة مثــيرة للابتسام ، ومن ثم خطر لى أنه فى مقدورى أن أكتب مسرحيات فكاهية ، وقررت فورا أن أكتب واحدة من هـــذا النوع ، وسميتها « الأرغفة والسمك » ، وكان بطلها شخص طموح خفيف الظل ، وكانت المسرحيــة تدور حول غرامه بأرملة ثرية ، ومؤامراته للحصول على منصب أسقف دينى ، ثم استطاعته فى النهاية اصــطياد وارثة موفورة الثراء بالغــة الجمال ، ولكن مدير المسرح لم يقبلها .. لقد كانوا لا يهضمون مسرحية تجعل من أحد القساوسة مثارا للضحك والتندر ، ومن ثم قــررت ، فى النهاية ، أنه يحسن بى أن أكتب مسرحية هزلية فيها دور ضــخم لاحدى الممثلات المشهورات ، فاذا أعجبتها ، أو على الأصح ، اذا اعجبها دورها فيها ، استطاعت أن تقنع أحد مديرى المسارح بمحاولة اخراجها .

وتساءلت فى نفسى : أى نوع من الأدوار يمكن أن يستهوى ممثلة كبيرة، ولما استقر رأيى على هذا الموضوع ، كتبت مسرحية «الليدى فردريك»، ولكن أهم مناظرها وهو المنظر الذى كان ــ فيما بعد السبب فى نجاحها ــ هو الذى يصور البطلة حين تدعو حبيبها الى غرفة زينتها لكى ترفع عن عينيه غشاوة الوهم ، عندما يراها بشعر مشعث وبوجه لا أثر فيه لفنون الزينة ، وكانت فنون الزينة فى ذلك الحين غير شائقة كما هى الآن ، كما كانت معظم النساء تستعملن الشعور المستعارة ، ولكننى لم أجد ممثلة تقبل القيام بمثل هــذا الدور الذى يكشف حقيقتها أمام جماهير المتفرجين ، وهكذا راحت المسرحية تتلقى رفض مديرى المسارح الواحد بعد الآخر . ومرة أخرى قررت أن أكتب مسرحية محبوكة لا يستطيع أحد أن يجد فيها موضعا للاعتراض : فكتبت مسرحية «مسز دوت» . ولكنها لم تلق غير الرفض كالأخريات ، فقد رأى مديرو المسارح انها خفيفة سطحية أكثر مما ينبغى ، وان الحركة فيها بطيئة ، وقد اقترحت المس مارى مور ــ وكانت ممثلة مشهورة اذ ذاك ــ أن أضيف اليها منظر حادث سرقة لألونها بالاثارة والتشويق ! وبدأت أفكر فى أنى لن أستطيع أبدا أن أكتب مسرحية تتحمس لها ممثلة مشهورة الى حد سعيها لاقناع أحد مديرى المسارح بقبولها وهكذا قررت أن أعكس الأمر وأكتب مسرحية تثير حماسة أحد كبار الممثلين لها ، فكتبت « جاك ستراو » .

وكنت فى ذلك الحين معتقدا أن نجاحى الجزئى مع « جمعية المسرح » سيكون له أثره فى نظرة مديرى المسارح الأخرى الى . ولكنى، للأسف الشديد ، وجدت أن الامر ليس كما ظننت ، بل ان اتصالى بهذه الجمعية أساء الى وجعل بقية مديرى المسارح يظنون أنى لا أكتب الا المسرحيات الكئيبة التى لا تبشر بأى ايراد مالى . انهم لم يستطيعوا أن يقولوا لى ان مسرحياتى الهزلية التى قدمتها اليهم تتسم بطابع الكآبة ! لا .. وانما قالوا انها لا تنطوى على العناصر التى تبشر بايراد مالى كبير ، وكان ينبغى لى أن أنفض يدى من كتابة المسرحيات ، لأن كل رفض لمسرحية ، كان يثبط همتى ، ولكن حدث ــ لحسن حظى ــ أن « جولدن برايت » رأى أن مسرحياتى هذه كلها تبشر بالنجاح ووفرة الأرباح ، وقرر أن يتولى بنفسه أمرها ، ومن ثم شرع يقدمها الى مديرى المسارح الواحد بعد الآخر ، وأخيرا ، فى عام ١٩٠٧ ، وكنت قد كتبت ست مسرحيات كاملة ، وبعد انتظار عشر سنوات ، أخرجت مسرحيتى « الليدى فريدريك » على مسرح « كوارت تييتر » وتلتها بعد ثلاثة أشهر مسرحية « مسز دوت » على مسرح « الكوميدى » ثم « جاك ستراو » على مسرح « فودفيل » وفى شهر يونية أخرج لويس والر على مسرح « الليريك » مسرحيتى « المكتشف » التى كتبتها عقب « الرجل ذو الشرف » ، وهكذا تحقق لى كل مارجوت فى عالم التأليف المسرحى ..

ومثلت المسرحيات الثلاث فترة طويلة .. ونجت مسرحية « المكتشف » من الفشل ولكنى لم أظفر بالكثير من المال ، لأن مكافأة المسرحية الناجحة فى ذلك العهد كانت أقل كثيرا منها اليوم ، وكانت حقوقى ، كمؤلف ، محدودة بسيطة . ولكنى ، برغم هذا ، كنت قد استرحت من مشكلة الناحية المالية ، وبدا لى أن مركزى المالى أصبح ثابتا ، وكان تمثيل أربع مسرحيات لى فى وقت واحد ، وفى مسارح مختلفة مشهورة ، قد اذاع اسمى على كل لسان حتى لقد رسم الفنان الساخر «بارتريدج» فى مجلة «بانش» الفكاهية ، صورة كاريكاتورية لوليام شكسبير يعض على أصابعه وهو واقف أمام لوحات الاعلان عن مسرحياتى ، والتقط المصورون الصحفيون لى كثيرا من الصور ، وتزاحم زملاؤهم المحررون لأخذ الأحاديث منى ، وبدأت الشخصيات البارزة تتقرب الى ، فقد كان نجاحى ضخما ، ومفاجئا ، وكان شعورى أقرب الى الراحة منه الى الانفعال ، فأنا دائما محروم من طبيعة الدهشة . وكثيرا ما تقبلت فى أثناء رحلاتى أعجب المناظر وأغرب المشاهدات وكأنها أشياء عادية ، ومن ثم كنت أحاول أن أرغم نفسى على النظر الى هذه الاشياء على أنها ليست عادية ، وهكذا تقبلت كل هذه «الضجة» حولى على أنها — أيضا — عادية . وقد حدث وأنا أتناول العشاء بمفردى فى النادى ، أن كان أحد أعضاء النادى — ولم أكن أعرفه اذ ذاك — يتناول على المائدة المجاورة عشاءه مع صديق له ، وقد بدا لى من حديثهما انهما ينويان الذهاب فى هذه الليلة لمشاهدة احدى مسرحياتى ، وقد ذكر عضو النادى لصاحبه أننى عضو فى هذا النادى ، فقال صاحبه له :

— هل تعرفه ؟ ! لا شك أنه الآن « منتفخ كالدندى »

فأجابه عضو النادى :

— نعم .. طبعا .. أعرفه تماما .. وانا أخشى أن ينفجر من فرط النفخة .

ولكن ، علم الله ، أنه ظلمنى ، فقد تقبلت نجاحى على أنى جدير به ، وأنه حق من حقوقى ، لقد كنت مستمتعا حقا بشهرتى ، ولكنى لم أكن منتفخا بها ، ان الاحساس المحدود الذى أذكره يوم ذاك أنى شعرت به فى أصيل يوم وأنا أسير فى شارع بانتون هو أنى فى أثناء مسيرى أمام مسرح « الكوميدى » لمحت أضواء الشمس الغاربة تنبثق فجأة بين ثغرات فى السحب الملبدة ، فتوقفت أتأمل المنظر الطبيعى الرائع ، ثم حمدت الله قائلا اننى أستطيع أن أتمتع بمثل هذا المنظر الآن دون أن أحتاج الى بذل الجهد فى وصفه ، وكنت أعنى حينئذ أنى لن أكتب مرة أخرى روايات مطولة بعد نجاحى كمؤلف مسرحى .

وبرغم أن الجماهير استقبلت مسرحياتى بحماسة ، لا فى انجلترا وأمريكا ، وانما فى القارة الاوروبية كلها ، فآراء النقاد لم تكن متفقة بشأنى على أية حال ، فالنقاد المعروفون باللباقة والمجاملة امتدحوا

المسرحيات لما فيها من براعة ومرح وتأثير مسرحى فى النفوس ، ولكنهم انتقدوا ما فيها من تهكم واستخفاف . أما النقاد الجادون الصريحون ، فقد اشتدوا فى الحملة عليها ، كلها ، اذ وجدوا انها مسرحيات رخيصة سطحية ، وقد صارحونى بأنى بعث روحى « لمامون » اله المال ، وأن آلهة الحكمة والثقافة والفن الأصيل التى كنت أحد أتباعها المتواضعين لم تستدر بظهرها الى فحسب ، وهذا وحده من أسوأ الامور ، وانما قذفت بى ، كما فعلت بلوسفر ــ ابليس ــ الى أعماق الجحيم ؛ وفوجئت بهذا النقد ، وفزعت منه ، ولكنى تحملت ــ فضيحتى ــ بثبات على أساس أن هذه ليست نهاية قصتى كمؤلف ، فقد كنت أعد فى ذهنى نهاية أخرى ، وكنت قد وضعت من الخطط ما يمكن أن يصل بى اليها ، ومن ثم كنت أهز كتفى فى استخفاف من حماقة الذين لا يعرفون هذه الحقيقة ، فلو أنى استمررت فى كتابة مسرحيات مريرة عنيفة كمسرحية « الرجل ذو الشرف » أو تهكمية قاسية كمسرحية « الأرغفة والسمك » لما استطعت أبدا أن أظفر بهذه الفرصة التى أتاحت لبعض مسرحياتى الظهور والظفر بمديح أشد مديرى المسارح تزمتا . لقد اتهمنى النقاد الجادون بأنى كتبت لارضاء العامة ، ولكنى فى الحقيقة لم افعل هذا ، فقد كنت فى ذلك الحين سعيدا بالشباب ، أكتب الحوار المرح بسهولة ، واستمتع بنظرة نفاذة شاملة للمواقف المضحكة ؛ والمفارقات الفكهة ، وكنت أتمتع بما هو أكثر من هذا ايضا ؛ ولكنى آثرت أن أرجىء هذا الى وقت آخر ، وكتبت هذه المسرحيات الهزلية بتلك الجوانب الخاصة من نفسى التى تحقق لى هذا الهدف المبدئى ؛ لقد كتبتها لتثير المتعة والضحك والسرور . . وقد حققت الغرض منها . .

ولم يكن فى نيتى أن أغتر بنجاح عابر ينتهى بعودتى الى الخمول، ومن ثم كتبت مسرحيتين أخريين لأشدد قبضتى على الجمهور ، وكانتا اذ ذاك ــ أكثر جراة واعتدالا ، وأقل سفسطة مما هما عليه الآن ، ولكنهما تعرضتا أيضا لهجوم النقاد المتزمتين بسبب اباحيتهما ، على أن احداهما ــ بنيلوب ــ كانت ولا شك ذات قيمة خاصة ، لأنها حين أعيد تمثيلها فى برلين بعد عشرين عاما ، لقيت من النجاح ما جعل المسرح يزدحم بالمتفرجين طوال الموسم .

وكنت فى ذلك الحين قد تعلمت كل ماأمكننى أن أتعلمه من فن الكتابة للمسرح ماعدا مسرحية « المكتشف » التى لم تظفر من النجاح بما كنت أرجو ، لاسباب وضحت لى فيما بعد ، فقد نالت مسرحياتى الاخرى ، التى توالت بعدها ، سلسلة من النجاح المطرد ، واخيرا خطر لى أن الوقت قد حان لكتابة مسرحيات أكثر جدية وعمقا ، لقد أردت أن أعرف ماذا يمكن أن أفعل بموضوعات أشد تعقيدا وأصالة ، أردت ان اكتب ــ على سبيل التجربة مسرحية او اثنتين كنت اعتقد انهما سيكونان نماذج لما ينبغى ان تكون عليه المسرحيات الجادة ، وقد اردت أيضا أن أعرف الى اى حد يمكن أن أذهب لارضاء الجماهير ، فكتبت مسرحية « الرجل العاشر » و « الاغنياء المحدثون » وأخيرا ، بعد أن ظلت فى أدراج مكتبى اثنى عشر عاما ، قدمتها وهى مسرحية « الارغفة

والسمك » ، ولم تسقط واحدة منها كما لم تحرز احداهما نجاحا كبيرا لم يكسب أصحاب المسارح منها أو يخسروا شيئا ، أما مسرحية «الارغفة والسمك » فلم تستمر طويلا على خشبة المسرح ، لان جمهور ذلك العهد لم يقبل أن يوضع أحد رجال الدين موضع السخرية والتهكم ، وكنت قد كتبت هذه المسرحية فى شىء من المبالغة جعلها أقرب الى التهريج منها الى الفكاهة الراقية ، ولكنها لم تخل من مناظر ممتعة رائعة . أما الأخريان ، فقد وقعتا بين شقى الرحى .. فاحداهما كانت تصور حياة أعيان الريف بعقولهم الضيقة الافق ، وتشبثهم بالمظاهر التقليدية الجوفاء ، والثانية تصور حياة هذه الطبقة المحدثة الثراء التى تحاول بالمال أن تبلغ مناصب النفوذ السياسى ، وكنت أعرف انه ينبغى على أن أحرك المشاعر ، وأثير الضحك ، وأشيع الاهتمام والاستمتاع ، ويبدو أنى اسرفت فى هذا كله بعض الشىء ، فجاءت كل منهما لا هى بالواقعية الصريحة ، ولا هى بذات التأثير المسرحى الفنى ، وكانت هذه الصورة المهزوزة بالغة الخطر ، فلم يجد المتفرجون فيهما الصورة المحبوبة أو الواقعية الجذابة ، ومن ثم منحت نفسى راحة سنتين ، ثم كتبت فى نهايتهما مسرحية « أرض الميعاد » التى ظلت تمثل فى مسارح مزدحمة بالمتفرجين أشهرا طوالا حتى نشبت الحرب العالمية الاولى ، وكنت حينئذ قد قدمت للمسرح عشر مسرحيات فى سبع سنوات .. حقا ان آلهة الحكمة والفن والثقافة قد أصدرت حكمها على بتجاهل أمرى ، ولكنى ظفرت بالشهرة وباعجاب الرأى العام .

- ٣٢ -

كانت تمر على فترات من الفراغ بين الحين والآخر فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ذلك لان عملى ، فى أول الامر ، لم يكن يستغرق الا جانبا من وقتى ، وكانت كتابتى للمسرحيات عندئذ ستارا أخفى وراءه حقيقة الدور السرى الذى كنت أقوم به فى الحرب ، وعندما أصبت ــ فيما بعد ــ بنكسة فى داء الصدر ، كان على أن أرقد فى الفراش طويلا ، ولكى أملأ وقت فراغى الطويل ، كتبت مجموعة من المسرحيات فى تسلسل مطرد ، وقد بدأتها فى عام ١٩١٥ بمسرحية « أسيادنا » وختمتها فى عام ١٩٢٧ « الزوجة الدائمة »

وكان معظم هذه المسرحيات من النوع الكوميدى، كتبتها بالاسلوب البهيج الذى كان سائدا فى عصر النهضة » والذى كان يتزعمه جولد سميث وشريدان ، وهو أسلوب ظل محتفظا بأثره القوى فى نفوس الجماهير ، ولعله كان فيه طابع خاص يستهوى الشعب الانجليزى بالذات . ولكن الذين يكرهون هذا الاسلوب يقولون عنه أنه نوع من « الفكاهة » المصنوعة ، وهم يحسبون أنهم لهذا يحكمون باعدامه .. والحقيقة أنه أسلوب فى كتابة المسرحية يضع الحقائق الجادة فى قالب من الحوار الفكه . انه يعالج العيوب الاجتماعية «والتقاليع» السخيفة التى تسود فترة من الفترات ، عن طريق التهكم والمرح ، والكشف عن

حماقات ورذائل بعض النــاس . انه يميل أحيــانا الى الملاطفة والرقة لارضاء طبيعة الانجليز ، وأحيانا الى الخيــال ، ولكنه يتجنب الوعظ والارشاد والاحاديث المنبرية . وقد يصور أحيانا جمال الفضيلة، ولكن بطريقة خفيفة غير مباشرة كأنما يقول لك أنت حر فى أن تأخذ بهــا أو ترفضها ، وعندما ذهب فولتير الى « كونجـريف » « مدير المسرح » ليتبادل معه الرأى فى احدى المسرحيات التى كانت تمثل اذ ذاك قال له كونجريف انه أقرب مايكون الى سيد مهذب « جنتلمان » منه الى كاتب مسرحى ، وعندئذ قال له فولتير : « لو كنت انســانا مهذبا فقط ، ما حضرت لزيارتك » . لقد كان فولتير أبرع كاتب فى عصره ، وأسرعهم بديهة ، وألذعهم لسانا ، ولكنه لم يكن موفقا من ناحية الحكمة فى اجابته هذه على « كونجريف » ، فقد كان هذا حقيقا بتلك الكلمة التى قالهــا لفولتير ، ذلك أنها كشفت عن ادراكه التام بأن الشخصية الاولى التى يجب على المؤلف المسرحى الهزلى أن يحسب حسابها هى شخصــيته الذاتية .

- ٣٣ -

كنت فى ذلك الحين قد قررت فى ذهنى أشياء كثيرة عن موضــوع الكتابة المسرحية ، ومن بين هــذه القرارات أن المسرحية النثرية لا يزيد أثرها كثيرا عن الصحيفة الاخبارية ، وأن الكاتب المسرحى ، والصحفى، يحتاجان الى مواهب متماثلة ، يحتاجان الى النظرة النافذة السريعــة نحو القصة الجيدة ، والى القدرة على السرد ، والى اســلوب منعش جذاب للكتابة ، ويحتاج المؤلفون المسرحيون فضلا عن هذا ، الى نوع من البراعة ، أو البهلوانية الخاصة ، ولست أعرف : هل استطاع كاتب مسرحى أن يحدد هذه البراعة أو البهلوانية تحديدا واضحا ؟ انهــا موهبة لاتكتسب بالتعليم والمرانة .. انها توجد فى بعض النــاس حتى لو كانوا جهلة أميين ، انها موهبة تتيح للكاتب المسرحى القــدرة على كتابة كلمات وعبارات تكاد تتجسم بالالوان المضيئة أمام أعين النظارة، وهى تنطلق من أفواه الممثلين بين الاضواء الملونة ، انها الموهبة النــادرة التى تجعــل بعض الـكتاب المسرحيين يظفرون بأجور أضخم كثيرا من أجور غيرهم . وليس لهذه الموهبة علاقة بالمقدرة الادبية ، فقد ثبت أن أعظم الروائيين المشهورين لا ينجحون عادة فى كتابة المسرحيات اذا هم حاولوها .. انها موهبة ، كموهبة الاذن الموسيقية .. وقد لا تكون لها اهمية روحية خاصة ، ولكنك بدونها لاتستطيع أن تنجح فى كتــابة مسرحية ذات قيمة مهما تكن أصالة موضوعها أو براعة أفكارها أو روعة رسم شخوصها .

لقد نشر الكثير عن فن كتابة المسرحيات ، وقرأت معظم الـكتب التى تناولت هذا الموضوع باهتمام ، واعتقد أن أحسن طريقة تعلمك فن كتابة المسرحية هى أن ترى مسرحية لك تخرج على خشبة المسرح .. أن هذا يعلمك كيف تكتب عبارات حوار يمكن للممثلين أن ينطقوا بها فى

سهولة ، واذا كانت لك أذن حساسة ، فسـوف تعرف كيف تـكتب عبارات ذات رنين جميل دون أن تخرج عن نطاق المعنى فى الحوار .. انها ستبين لك أى نوع من الحديث وأى نوع من المشـاهد هو الاكثر تأثيرا فى النفس . ولكنى اعتقد أن أسرار فن الـكتابة للمسرح يمـكن حصرها فى مبدأين : الزم الموضوع فى دقة مع الكتابة بتركيز شـديد ؛ ويحتاج المبدأ الاول الى عقلية منظمة منطقية ، وقليل منا من يتمتع بها، فان الفكرة الواحدة تقود الى فكرة أخرى تغرى الكاتب بتسجيلها برغم بعدها عن نطاق الموضوع ، فان فى الطبيعة الانسانية ميلا طبيعيا الى الاسهاب والتفاصيل ، ولـكن ينبغى على الـكاتب المسرحى أن يتجنب الانحراف عن الموضوع أكثر مما يتجنب القديس الخطيئة ، لان الخطيئة قد تغتفر ولـكن الانحـراف عن الموضـوع مميت ، فان أهم شيء هو الحرص على مدار اهتمام المستمعين والمتفرجين ، وهذا مهم أيضا فى التأليف الروائى ، ولكن المجال فى التأليف الروائى أوسع وأرحب بحيث يستطيع الكاتب أن يحول الخروج عن الموضوع الى متعة ذهنية .. أو كمـا يقول الاخلاقيون ، يحـول الشر الى كمـال الخير ، بل ان بعض الانحرافات الموضوعية فى التأليف الروائى قد تكون ذات أهمية خاصة، وأحسن مثل على هذا هو الاسهاب فى سردنا تاريخ حيـاة الاخ الاكبر « جوسيما » فى روايته « الاخوة كارامازوف » . ولعله ينبغى لى أن أوضح ماذا اعنى بعبارة « مدار الاهتمام » ، انه الطريقة التى يجعلك الكاتب بها تهتم بمصائر أشخاص معينين فى ظروف معينة ، ويربطك بهم حتى ينتهى الى الحل الذى وضعه لمشكلاتهم ، فاذا ترك ذهنك يشرد بعيدا عن الموضوع الاساسى ، فمن المحتمل جدا أن يعجز عن جـذب انتبـاهك مرة أخـرى ، ومن النواحى النفسـية للطبيعة البشرية ان المتفرجين يهتمون أشد الاهتمام بالشخصيات التى يقدمهـا الـكاتب المسرحى فى مستهل الفصل بحيث اذا انحرف باهتمامهم الى شخصيات أخرى تدخل المنظر فيما بعد ، فانهم يشعرون بأشـد الاستياء ، ان الكاتب المسرحى المتمكن يقدم موضوعه أو يبرزه فى أول فرصة ممكنة . واذا لم يقدم الشخصيات البارزة فى المسرحية فى أول المنظر ــ رغبة فى التأثير المسرحى ــ فعليه أن يجعل حوار الشخصيات الثانوية عند رفع الستار مركزا عليهم ، على الشـخصيات الهامة ، حتى يزيد من تشويق النظارة الى ظهورهم ، وليس هناك من التزم هـذه الطريقة باتقان وبراعة مثل الكاتب المسرحى والشاعر الملهم وليام شكسبير .

ان مشكلة الحرص على « مدار الاهتمام » هى التى تجعـل من العسير كتابة هذا النوع من المسرحيات المعروفة بالمسرحيات ذات «الجو» الخـاص ، وان أشهر هـذا النوع من المسرحيـات هى التى كتبهـا « تشيكوف » انه مادام اهتمام المتفرجين على المسرحية لن يكون مركزا فقط على اثنين أو ثلاثة من الشخصيات ، وانما على المجموعة ، وما دام موضوع المسرحية يدور حول علاقات بعضهم ببعض ، فانه ينبغى للكاتب أن يحـافظ على توزيع اهتمـام المتفرجين على أشـخاص المسرحيـة بالتساوى ، فان هذه المساواة فى الاهتمام تمنع المتفرجين من أن يركزوا مشاعرهم الخاصة حول أية شخصية فى المسرحية ، وفى هذه الحالة ؛

أى مادام الكاتب يشد خيوط المسرحية بقوة واحدة ، ويثير اهتمام المتفرجين بجميع أشخاص مسرحيته ، فانه ينبغى عليه أيضا ان يخضع كل أحداثها لخط الموضوع الاساسى . ولما كان من العسير على الكاتب أن يمنع المتفرجين من الشعور ببعض الملل أحيانا ، ولما لم يكن من الممكن او من أصول الفن أن يثير الكاتب اهتمامهم الخاص بحادث معين او بشخصية خاصة فى المسرحية ، فانه من المحتمل جدا ان يشعر المتفرجون بالاضطراب والارتباك بعد هبوط الستار على الفصل الاخير . لقد ثبت بالتجربة ان مثل هذه المسرحيات لاتنجح الا بالبراعة الفائقة فى التمثيل .

وانى أتناول الآن المبدأ الثانى : فانه مهما يكن المنظر رائعا ، ومهما يكن الحوار بارعا ، ومهما يكن التأثير بالغا ، فانه يجب على الكاتب أن يحذف هذا كله من مسرحيته اذا لم يكن له علاقة أساسيه بالموضوع ، وهذه النصيحة قد تفيده أيضا اذا كان كاتبا روائيا . ان الكاتب المسرحى الخام يعتقد ان مجرد كتابة الكلمات المعبرة عن أفكاره ، على الورق معجزة ، فاذا هى قد كتبت بعد خروجها من ذهنه مالم تكن قد جاءت نورا من السماء ، فانه ينظر اليها على انها شىء مقدس . انه لايطيق ان يضحى بكلمة منها ، وانا أذكر تماما يوم أطلعنى الكاتب المسرحى الكبير هنرى ارثر جونز على أصول احدى مسرحياته فأدهشتنى كثرة مافيها من تغيير وتبديل ، حتى انه كتب مثل هذه العبارة البسيطة « هل أضع فى فنجانك قطعة من السكر » ؟ فى ثلاث صيغ مختلفة ، ولا عجب أن يحرص بعض الكتاب الذين لا تسعفهم قرائحهم بالكلمات فى سهولة ويسر ، على عدم تغييرها أو تبديلها أو حذف الزائد منها . ان الكاتب الروائى معتاد على الكتابة والتعبير عن أفكاره بسهولة ، ومن ثم فان فى مقدوره أن يحذف بيسر كل مايراه زائدا او منحرفا عن الموضوع . وبطبيعة الحال لامفر من أن تنثال على قلم الكاتب عبارات وأفكار رائعة يشعر أن حذفها اسوأ واشد الما من خلع ضرس ، وفى مثل هذه الحالات ينبغى أن ننقش على قلب الكاتب شعار هذا المبدأ : اذا استطعت فاقطع !

ان الحرص على التزام الموضوع أصبح ، فى الوقت الحاضر ، أوجب مايكون ، لان الجمهور العصرى أحد ذكاء ، وأقل صبرا من جماهير المسرح فى العهود السابقة ، وقد كتبت أكثر المسرحيات بطرق وأساليب مختلفة لترضى المتفرجين ، وكان المتفرجون فيما مضى على استعداد لان يجلسوا الساعات الطوال ليشاهدوا المناظر والفصول التى قد تكون خارجة عن الموضوع ، ولينصتوا الى الاحاديث المسهبة التى يشرح بها الممثلون أدوارهم ، ولكن الامر الآن جد مختلف . وأعتقد ان هذا الاختلاف يرجع الى ظهور الفن السينمائى ، فقد تعود المتفرجون ، ولا سيما المتحدثين بالانجليزية ، أن يشاهدوا المنظر ودلالته فى لمحة سريعة ، لكى يأتى المنظر التالى وراءه مباشرة ، وهكذا وهم يلتقطون معانى الاحاديث فى كلمات قصيرة معبرة ، وبعد التقاطها ، يشرد انتباههم الى منظر آخر أو الى عبارة قصيرة أخرى ، بسرعة بالغة ، ومن ثم فان على المؤلف المسرحى العصرى أن يكبت رغبته الطبيعية فى تصوير المنظر

باسهاب ، أو فى جعل الممثلين يطيلون الحديث والحوار للتعبير عن نفوسهم .. ان الاشارة السريعة الآن أبلغ من العبارة المطولة ، وان عليه أن يجعل حواره أقرب ما يكون الى اختزال مسموع ، وان عليه أن يختزل ويحذف ويوجز حتى يصل الى درجة التركيز .

- ٣٤ -

ان المسرحية هى نتيجة التفاعل بين المؤلف والممثلين والنظارة ، وبين هؤلاء وبين المخرج كما أعتقد . وسوف أتحدث الآن عن التفاعل بين المؤلف والنظارة ، فان أحسن المؤلفين المسرحيين يكتبون مسرحياتهم وهم يضعون النظارة نصب أعينهم ، ويرغم أن بعض المؤلفين يتحدثون عن النظارة فى غير مبالاة ، فانهم يدركون تماما انهم يعتمدون على هؤلاء النظارة أشد الاعتماد ، فان الجمهور هو الذى يدفع ، فاذا لم يجد فيما يقدم اليه مايسره ويبهجه ، فانه يمسك يده ، وليس للمسرحية وجود بغير جمهور النظارة . حقا ان المسرحية فى مبناها العام رواية مكتوبة فى حوار ، وضعت خصيصا لكى يرددها الممثلون ويسمعها المتفرجون . أما المسرحية التى كتبت لتقرأ فقط ، فليست أكثر من رواية كتبت بأسلوب حوارى حاول به المؤلف « لأسباب لا يعرفها أحد حتى الآن » أن يتجنب الوصف والانشاء ، وقد تكون للمسرحية التى لايرضى عنها النظارة ، بعض الميزات الفنية ، ولكنها لايمكن أن تسمى مسرحية الا اذا أمكن تسمية البغل حصانا .

ومن المؤلم اننا نحن الكتاب المسرحيين نقدم بين الحين والآخر مثل هذا النوع من المسرحيات الفاشلة وان كل من له اتصال وثيق بالمسرح ، يعرف الى اى حد يمكن ان يؤثر النظارة فى المسرحيات . وان نظارة فترة المساء « الماتينيه » قد يختلفون فى تقديرهم للمسرحيةنفسها عن نظارة فترة السهرة « السواريه » . وقد قيل لنا ان النرويجيين ينظرون الى مسرحيات « أبسن » على أنها من النوع الفكاهى المثير لأشد الضحك ، أما الانجليز فانهم لايجدون أى سبب يدفعهم الى الضحك وهم يشاهدون المسرحيات نفسها . ومن ثم فان انفعالات النظارة ، واهتماماتهم ، وضحكاتهم ، تكون جانبا هاما من المسرحية . انها تخلقها تماما بالطريقة التى تخلق بها حواسنا من المناظر الموضوعية كجمال الشروق أو صفاء البحر . ان جمهور النظارة ليس هو — بحال — أقل جزءا فى المسرحية من ناحية الاهمية ، فاذا لم يقم بدوره المتوقع منه ، فانها تنتهى بالفشل ، ويكون مثل الكاتب المسرحى عندئذ كمثل لاعب التنس الذى ترك فى ساحة المباراة دون أن يكون هناك من يلعب معه . وان جمهور النظارة لمخلوق عجيب جدا . انه أقرب الى الدهاء منه الى الذكاء ان قدرته التفكيرية فوق المعدل بقليل فى مجموعها .. انها لا تزيد عن ست درجات من عشر ، وهو خاضع للايحاء .. فان بعض النظارة ، واحيانا أكثرهم ، يضحكون لفكاهة غامضة عليهم ، لأنهم وجدوا من حولهم يضحكون .. انه جمهور انفعالى ، ولكنه يكره بالفريزة أن يتعمد

أحد اثارته ، ومن ثم فهو يحاول النجاة من هذه الاثارة المفتعلة ساخرا .
وانه عاطفى ، ولكنه لا يتقبل العواطف الا كما يجب أن تكون ، ففي انجلترا
يتقبل النظارة الاثارة العاطفية الخاصة بحب « البيت » أما اذا حاولت
أن تثيرهم بموقف عن حب الابن لأمه ، فانهم يسخرون منك ، وانه لاهمال
للامكانيات أن تترك الموقف هو الذى يثير الانفعال بذاته ، وتلك خاصية
استطاع شكسبير استغلالها على نطاق واسع .

والجمهور ، كأفراد ، يعرفون أنهم يتأثرون بعوامل الاغراء ، ولكنه،
كمجموع ــ يصر على أن يكون لكل حركة سببها المنطقى . ان طبيعته هى
الطبيعة العادية للجماهير المجتمعة فى مكان واحد ، وانه ليصدم حقا ،
بل يسخط جدا ، بموقف عاطفى قد لايثير سخط أى شخص لو قدم اليه
على انفراد . ان الجماهير فى ساعة الاجتماع لا تفكر عن طريق العقل ،
وانما تفكر بغرائزها البدائية ، أو بما يسمى فى علم التشريح « الضفيرة
الشمسية » . انها سريعة الملل ، وهى تحب الشيء المستحدث ، ولكن
ينبغى أن يكون هذا الشيء ملائما لتصوراتها القديمة بحيث يثير انفعالها
لاخوفها . انها تحب الافكار بشرط أن توضع فى قوالب مشوقة ، وبشرط
أن تكون أفكارا طالما راودت اذهانها ، ولكنها لم تجد الجراة الكافية للتعبير
عنها . انها لن تستجيب للمسرحية اذا جرحت كبرياءها بالخداع
المكشوف . ان أهم رغبة لهذه الجماهير المتفرجة ، ان تعتقد بأن مايجرى
على المسرح اقرب الى الواقع منه الى الخيال .

ان المتفرجين ، فى جوهرهم ، لا يتغيرون ، ولكنهم فى مختلف العصور،
أو مختلف البلدان ، فى العصر نفسه ، يرتفعون الى مراتب مختلفة من
التأثرات . فالمسرحية تصور عادات وتقاليد العصر الذى تمثل فيه ،
وهى من هذه الناحية تترك أثرها فى هذه التقاليد والعادات ، كما تتأثر
بها وبما يستجد عليها ، فمثلا كانت لعادة المتحدث بالتليفون عند بدء
اختراعه أثرها فى سرعة حركة المسرحية ، وفى تجنب بعض الأشياء غير
المحتملة . والشيء المحتمل حقيقة قابلة للتغيير والتبديل . . انه مجرد
الشيء الذى يكون المتفرجون على استعداد لقبوله ، وليست هناك قاعدة
أو سبب يبرر هذا ، وقد كان بين المواقف أو الأشياء المحتملة فى
المسرحيات القديمة ، ترك الوسائل ذات الأهمية الخاصة لتقع فى أيدى
أشخاص معينين ، أو سماع أقوال ــ بالمصادفة ــ لم يكن المفروض
سماعها . على أن أهم من هذا كله التغيير الذى طرأ على نفوسنا مع
تطور الحضارة البشرية ، وهكذا أصبحت بعض الموضوعات المسرحية
التى كانت محبوبة فيما مضى ، غير صالحة فى هذا العصر . وكذلك أصبح
الناس فى وقتنا هذا اقل حبا للثأر والانتقام مما كانوا عليه من قبل ،
وهكذا لم يعد الاقبال على المسرحيات التى تدور حول هذا الموضوع
شديدا ، وقد يرجع هذا الى ان انفعالاتنا غدت أقل قوة مما كانت ، أو
لعل تعاليم المسيح قد استطاعت أخيرا ان تنفذ الى عقولنا العنيدة
ونفوسنا الغليظة ، مما جعلنا ننظر الى التأثر على أنه أمر لايتفق مع
الحضارة البشرية . وقد تجرأت ذات مرة وأشرت فى احدى مسرحياتى
الى أن تحرير المرأة ، وتحررها الجنسى الحديث كانا من بين العوامل
التى غيرت نظرة الرجال نحو العفة ، حتى لم يعد « للغيرة » مجال فى

المسرحيات الا الفكاهية منها » ولكن المتفرجين استقبلوا هذه الاشارة العابرة فى سخط شديد جعلنى أمتنع عن التوسع فى عرضها .

- ٣٥ -

لقد عرضت هذا التحليل البسيط لنفسية المتفرجين ، لأن لهذه النفسية ، بالنسبة للكاتب المسرحى ، أهميتها الكبرى فى خاصية عمله الفنى . وكل فنان ينبغى أن يتقبل خاصيات الفن الذى يشتغل به ، ولكن هذه الخاصيات قد تكون ذات طبيعة تجعل من الفن شيئا بسيط القيمة ، فمن خاصيات الشعر فى القرن الثامن عشر أن الحماســة غير مرغوب فيها ، وان الخيال ينبغى ان يخضع لمنطق العقل ، وكانت النتيجة أن الانتاج الشعرى فى ذلك القرن كان بسيط القيمة . وايا كان الأمر فانه ينبغى على الكاتب المسرحى أن يراعى هذه الحقيقة الثابتة الخاصة بضعف مستوى التفكير عموما بين الجماهير ، واعتقد أن هذه الحقيقة هى السبب فى وضع المسرحية النثرية فى المقام التالى للمسرحية الشعرية. ومما هو ملاحظ دائما أن المسرح — من الناحية الثقافية والفكرية — متأخر عن زمنه نحو ثلاثين ســنة ، وأن المثقفين والمفكرين أصبحوا يمتنعون عن التردد عليه أخيرا بسبب فقره الثقافى . وانه ليخامرنى الشعور بأن المفكرين الذين يبحثون عن الافكار الجديدة من المسرح ، هم — من الناحية الفكرية — أقل مستوى مما كان منتظرا منهم » فالفكرة شيء خاص . انها وليدة العقل . وهى تعتمد على القوة الذهنية للفرد ، وعلى مدى ثقافته . وانه اتصال فردى بين العقل الذى يحملها ، الى العقل المستعد لتقبلها ، واذا كان لحم الانسان هو سم انســان آخر « ولا يجوز له أن يأكله » فان الفكرة على العكس .. انها لم تولد الا لتلتهم أن كانت صالحة ، ولكن النظارة يتأثرون بغريزة التجمهر ، وغريزة التجمهر سريعة الانفعال بالمؤثرات . وكثيرا ماحاولت أن اخضع قوة التفكير الاجماعى للارقام ، فوجــدت انهــا لا تزيد عن ٤ من عشرة فى مجموعها . والرقم عشرة يمثل الناقد الفنى الممتاز ، والرقم صفر يمثل الفتاة التى تبيع الحلوى فى محل تجارى صغير ، فكيف تستطيع ان تكتب مسرحية ذات أفكار مبتكرة قوية تجعل الناقد المسرحى الممتاز يظل فى مقعده الى نهايتها ، وفى الوقت نفسه تجعل الفتاة البائعة تنسى حبيبها الجالس بجانبها الممسك بيدها ، تتتابع تسلسل الأفكار فى المسرحية التى تمثل أمامها ، الافكار الوحيدة التى يمكن ان تجذب انتباه مثل هذين النقيضين المجتمعين فى مكان واحد لغرض واحد ، هى الأفكار العادية .. الافكار التى هى جوهر الشعر والمشاعر والعواطف ، انها الأفكار الأصيلة التى تدور حول الحب ، والموت ، ومصير الانسان . وليس هناك أى كاتب مسرحى يستطيع أن يزعم القدرة على أن يقول عن هذه الموضوعات شيئا لم يسبق أن قيل آلاف المرات . ان هذه الحقائق العظمى فى الحياة الانسانية اكبر من أن تظل مستجدة ..

أضف الى هذا ، أن الأفكار لا تنمو فوق شجرة توت بحيث يستطيع

أن يلتقطها كل من أراد وانما القليل من الناس فى كل عصر هم الذين يقدمون للعالم أفكارا مستحدثة، وليس من المحتمل أبدا أن يجمع الكاتب المسرحي بين تمتعه بالموهبة التى تجعله يكتب مسرحيات صالحة للتمثيل، وبين قدرته على خلق الافكار الاصيلة المستحدثة . انه لن يكون كاتبا مسرحيا ناجحا مالم يعش مع الواقع ، ان له نظرة لماحة للأحداث الجارية فى حينها ، وليس هناك ما يدعو الى أن تنتظر منه موهبة للتفكير العميق .. انه قد يكون متمتعا بموهبة التأمل ، وبعاطفة الاهتمام بحالة الناس الاجتماعية فى عصره ، ولكن الفارق كبير جدا بين هذا كله ، وبين الموهبة الخالقة للأفكار الجديدة . انه من الأفضل جدا ، بطبيعة الحال ، أن يكون الكتاب المسرحيون ، فلاسفة ، ولكن هذا الاحتمال بعيد ، كبعد الاحتمال فى أن يكون الملوك فلاسفة أيضا .

انهما كاتبان مسرحيان فقط فى هذا العصر هما اللذان جمعا بين موهبة التأليف للمسرح ، وموهبة التفكير الفلسفى العميق .. انهما ابسن ، وبرناردشو . وكل منهما كان محظوظا فى وقت ظهوره ، فقد تصادف ظهور ابسن مع حركة المناداة بتحرير المراة ورفعها من المكانة الخفيضة التى ظلت فيها آلاف السنين ، وظهر « شو » فى الوقت الذى كان شباب عصره يتحررون من أعباء التقاليد والعادات القديمة التى فرضها عليهم العصر الفكتورى المتزمت ، ومن ثم أضحت فى يد كل من الكاتبين موضوعات جديدة يستطيع أن يبرزها على المسرح بنجاح كبير ، وكانت لبرناردشو المميزات والخصائص التى لاغنى عنها للكاتب المسرحي الناجح .. روح معنوية عالية .. وقدرة على التهكم اللاذع .. وبراعة فى كتابة الحوار .. وخصوبة لا حد لها فى خلق المواقف الفكاهية ، ولكن ابسن — كما نعلم — كان ضعيفا فى قوة الخلق والابتكار ، كانت شخوص مسرحيته تتكرر تحت أسماء مختلفة الى حد اثارة الملل ، وكانت الحبكة المسرحية لاتكاد تختلف بين مسرحية وأخرى الا قليلا .. وليس من المبالغة القاسية أن نقول انه يشبه الرجل الغريب الذى يدخل غرفة مزدحمة بالناس ، مختنقة الجو ، فيفتح نوافذها فجأة فيصاب من فيها بنزلات البرد المميتة ، وهكذا ينتهى كل شىء بالمآسى . واذا أنت أمعنت النظر بعين الاعتبار فى القوى الفكرية للكتاب المسرحيين المعاصرين لك ، فانك تستطيع — مالم تكن قليل العلم — أن تدرك بسهولة أنها لا تزيد عن المستوى الفكرى والثقافى السائد فى هذا العصر ، ان « شو » قد أبرز أفكاره فى قوة وحيوية . وهى قد أثارت الدهشة والاعجاب فى حينها ، لأن المستوى الثقافى للمتفرجين اذ ذاك لم يكن عاليا ، ولكنها ، فى هذا العصر ، لاتثير دهشة أو اعجابا .. بل ان شباب هذا الجيل يعتبرونها « حماقات » أثرية ، وأن مساوىء تقبل الافكار فى المسرح ، انها اذا كانت مقبولة ، فانها ستقبل بسهولة ، ذلك لأنه ليس هناك ماهو أدعى للملل فى المسرح من أن ترغم على الجلوس لتنصت الى أفكار سبق أن تقبلتها دون اعتراض فكرى، فمثلا اننا قد أصبحنا جميعا نعترف بحقوق المرأة وبمساواتها للرجل، ومن ثم فانه من العسير أن نجلس لمشاهدة مسرحية « بيت العرائس » لأبسن ، التى تعالج هذه المشكلة القديمة ، دون أن تشعر بالملل . والكاتب المسرحي الذى يملأ مسرحيته بالأفكار ، يؤذى

نفسه . فالمسرحيات عادة هى « بنت وقتها » لأنها يجب أن تتلاءم مع عصرها والظروف تتغير وتتطور بحيث تفقد واقعيتها أو أصالتها التى هى احدى جوانبها الجذابة ، وانه لمن المؤسف حقا أن يضاعف الكاتب من « وقتية » مسرحيته ، أى من سرعة زوالها ، بأن يجعلها تدور حول افكار تبدواليوم جديدة ، ولكنها تصبح بعد يوم أو عام ، ممعنة فى القدم .
وأنا حين اتحدث عن المسرحيات السريعة الزوال « بنت وقتها » لست اقصد المسرحيات الشعرية بطبيعة الحال ، وانما اقصد المسرحيات النثرية التى تنفرد بمسارحنا اليوم . ولا أكاد أذكر اية مسرحية نثرية جادة استطاعت أن تعيش أطول من فترة العصر الذى ولدت فيه ، ولكن بعض المسرحيات الفكاهية القليلة استطاعت ان تعيش قرنين أو نحو ذلك ٠ انها تبعث من مرقدها بين الحين والآخر ، لان أحـد فصـولها المشهورة قد يغرى ممثلا كبيرا ، أو صاحب مسرح فى حاجة ملحة طارئة، الى تقديم مسرحية لا يدفع لها حقوق تأليف ، ان مثل هذه المسرحيات تعتبر كالقطع الأثرية . ان المتفرجين يضحكون من فكاهاتها بأدب ، ومن تهريجها ومواقفها المكشوفة فى حرج وارتباك .. ومن ثم فانه يعاد تمثيلها بين الحين والآخر لذاتيتها وللضرورة الملحة ، ليس لأنها تنطوى على مميزات خاصة تضمن لها الخلود .

ولكن اذا كانت المسرحية «موقوتة» بطبيعتها ، فلماذا ــ هكذا يسأل الكاتب المسرحي ــ لايعتبر نفسه كالصحفى !! كالصحفى الناجح الذى يكتب لمجلات أسبوعية ثمن النسخة منها قرشـــان أو ثلاثة ، فيقدم مسرحيات تعالج مشكلات عصره من سياسية واجتماعية ، فليس هناك مايمنعهم من أن يكونوا اقل امتاعا للجماهير من الصحفيين الناجحين ، وماذا لو استنفدت المسرحية أغراضها ووضعت على الرف ! أليست ستترك على رف النسيان ان عاجلا أو آجلا؟! ان الاجابة على هذا السؤال انه ليس هناك ما يمنع من هذا أبدا اذا أعد المؤلف نفسه لاحتمال هذا المصير لمسرحيتين برغم مايبذله من جهد فى كتابتها ، ولكن عليه أن يتوقع أيضا أنه لن يظفر من الناقدين الا بالقليل من التقدير ، ذلك لأن النقاد عادة ــ برغم مطالبتهم الدائمة بالمسرحيات ذات الافكار العميقة المستحدثة ــ لا يترددون فى مهاجمة أية مسرحيـة من هذا النوع اذا كانت هـــذه الأفكار مألوفة لديهم ، حاسبين ــ فى تواضع ــ أنها أيضا مألوفة للجميع ، أما اذا كانت غريبة عليهم فسوف يقولون عنها انها « كلام فارغ » ثم يشرعون أقلامهم لتمزيقها وتمزيق الكاتب معها . وحتى العبقرى «شوا» لم ينج من حراب الناقدين المسنونة .

لقد انشئت الجمعيات الخاصة لتقديم مسرحيات تشاهدها طبقة من المتفرجين الذين يأنفون من الفرجة على المسرحيات السوقية ، ولكن هذه الجمعيات لم تلبث أن فشلت فى رسالتها ، لأن آلهة الحكمة والثقافة أبت أن تنخدع وتضفى رعايتها على هذه المسرحيات «الخاصة» ، ذلك أن اتباعها ، اعنى اتباع آلهة الحكمة ، كانوا يريدون مشاهدة هذه المسرحيات بغير أجر ، وهناك عدد من الكتاب المسرحيين الذين كرسوا كل حياتهم للكتابة لهذه الجمعيات فقط ٠٠ انهم فى الواقع يريدون أن يفعلوا شيئا لا يتلاءم مع طبيعة المسرحيات بوجه عام ، فهم حين يظفرون بعدد ــ أى

عدد — من المتفرجين فى مسارحهم ، فانهم يعتبرونهم «جمهور نظارة» ولكن هذا الجمهور — الخاص — برغم ارتفاع مستواه الثقافى لا يلبث أن يتعرض للمؤثرات التى يخضع لها جمهور النظارة العام .. فانهم ينفعلون بالعاطفة أكثر من انفعالهم بالعقل . انهم يطالبون بالحركة أكثر من مطالبتهم بالمنافسة والمساجلة « ولست أعنى بالحركة ، الحركة العضوية فحسب .. وانما أعنى الحركة المثيرة ولو كانت بالقول فقط » وعندما تسقط مثل هذه المسرحيات ، يزعم كتابها انها سقطت ، لأن الجمهور حتى المثقف منه — لم يفهمها ، ولست أعتقد أنهم على حق ، فان سقوطها يرجع الى خلوها من الميزات المسرحية .

ولا ينبغى ان يظن أحد أن المسرحيات السوقية تنجح ، لأنها مسرحيات تافهة رديئة . ان القصة قد تكون « مكشوفة » وقد يكون الحوار عاديا ، والشخصيات قد تكون من النوع المألوف فى حياتنا اليومية ، ولكنها مع هذا ، تنجح لأنها تتميز بالقدرة — مهما تكن بسيطة — على جذب انتباه المتفرجين ، ولكن ليست هذه هى الميزة الوحيدة التى تتمتع بها المسرحيات الناجحة كالتى كتبها « لوب دى فيجا » ، « ومولير » ، « وشكسبير » .

- ٣٦ -

واذا كنت قد اسهبت فى حديثى عن علاقة الافكار بالمسرحية ، فانما لانى أعتقد أن كثرة المطالبة بالمسرحيات القائمة على الافكار « والفلسفة » هى السبب فيما أصاب المسرح من سوء وتخلف . ان النقاد يسرفون فى المطالبة بهذا النوع من المسرحيات ولكن النقاد — كما ذكرنا — هم أسوأ من يصلحون للحكم عليها . أتدرى لماذا ؟ لان المسرحية تتجاوب مع المتفرجين على انهم « وحدة متكاملة » وان الانفعالات التى تسرى — كالتيار الكهربى — من متفرج الى آخر ، من أهم الضروريات للكاتب المسرحى .. انه يريد أن يشيع احساسا مشتركا بين الجميع .. فهو يأخذ الناس من ذوات نفوسهم ليكونوا آلات يعزف عليها ، وان ماينبثق من هذه الآلات من رنين وانفعالات ، هو جزء لا يتجزأ من المسرحية ذاتها . أما الناقد ، فانه لا يحس ، وانما يحكم .. كالقاضى .. لا يخضع للمؤثرات العاطفية — يجب أن ينأى بنفسه عن الاحساسات التى تسرى — كالتيار — بين الجميع ، ويحافظ على شخصيته الذاتية ، انه لا يصح أن يدع قلبه يتحكم فيه ، وانما يجب أن يبقى رأسه ثابتا راسيا على كتفيه . يجب أن يحرص على نفسه فلا يجرفه تيار الانفعالات المنطلق بين المتفرجين .. انه هناك ليرقب المسرحية من الخارج ، لا ليكون جزءا عاملا فيها . والنتيجة انه لا يرى المسرحية كما يراها جمهور النظارة ، لأنه لم يلعب — كما فعل الجمهور المنفعل — دوره فيها ، وعندئذ يكون من الطبيعى أن يطالب المسرحية بأشياء تختلف عما يطالب به الجمهور . وليس هناك أبدا مايدعو الى تحقيق ما يطالب به الناقد ، فان المسرحية لم تكتب للنقاد .. أو — على الاقل — لاينبغى أن تكتب لهم ، ولكن الكتاب

المسرحيين قوم مرهفو الاحساس ، ولشد مايحزنهم أن يقال لهم ان مسرحياتهم وصمة فى جبين الثقافة والفكر ، ومن ثم يعمدون الى الاجادة وهكذا ترى الأدباء الشبان الملهمين المنتشين بأضواء المجد يجاسون ليكتبوا مسرحيات فكرية فاذا أمكن لهم هذا .. واذا كانت المسرحيات الفكرية تأتى بالمال والشهرة ، فأمامهم المثل الحي على هذا .. برناردشو .. فليسألوه .. هل حقا المسرحيات الفكرية تجلب المال والشهرة ؟

ان نفوذ « شو » على المسرح الانجليز المعاصر ، هو فى الواقع نفوذ هدام ، فجمهور المسرح لم يكن يحب — دائما — مسرحياته ، كما لم يكن يحب مسرحيات ابسن ، ولكن المتفرجين بعد ان رأوا مسرحيات « شو » ، أصبحوا أقل حبا للمسرحيات المكتوبة على النمط القديم ، وقد نشأت مدرسة من الكتاب الذين حاولوا أن يسيروا على نهجه ، ولكن كان من المستحيل عليهم أن يبلغوا شأوه بدون مواهبه العظيمة . وكان انبغ هؤلاء الحواريين هو « جرانفيل باركر » وقد بدا من مناظر كثيرة فى مسرحياته ، أن « لجرانفيل باركر » المواهب الاصيلة اللازمة للكاتب المسرحي .. فهو كاتب يتمتع بموهبة الاثارة المسرحية ، وبسهولة الكتابة، وبالقدرة على كتابة الحوار الممتع ، وبالبصيرة النافذة لرسم الشخوص المسرحية المثيرة . وقد دفعه تأثره « بشو » الى ان يجعل أهمية كبرى للأفكار التى كانت تبدو — أحيانا — عادية، والى أن يفرض آن استدلالاته العقلية الطبيعية موهبة ممتــــازة ، ولو لم يقنع بأن المتفــــرجين « مغفلون » وأنهم أجدر بالاثارة منهم بالتهدئة ، لا ستطاع بالوســــائل العادية .. أى بالمحاولة ، والوقوع فى الخطأ ، أن يتعلم كيف يصحح أخطاءه ، وعندئذ كان من المحتمل أن يضيف الى الثروة المسرحية فى وطنه عددا كبيرا من المسرحيات الناجحة الممتازة . أما اتباع « برناردشو » الأقل شأنا ، فانهم لم يفعلوا أكثــــر من تقليد عيوبه ، وان شو لم ينجح ككاتب مسرحي لأنه يفعم مسرحياته بالآراء والافكار المستحدثه ، وانما لأنه كاتب مسرحي موهوب لا يسهل تقليده . وهو يدين بأصالته الفنية الى مواهب طبيعية — ليست خاصة به وحده طبعا — لم يسبق أن كان لها مثيل على المسرح ، وأيا كانت طبــائع الانجليز فى العهــد الاليصاباتى ، فانهم لم يكونوا شعبا غزلا ، لم يكن الحب فى نظرهم أكثر من شعور غريزى منه الى عاطفة ملتهبة ، ولم تكن تنقصهم بطبيعة الحال الغرائز الجنسية اللازمة لحفظ النوع ، ولكنهم لم يكونوا قادرين على كبت الشعور بأن الغريزة الجنسية شيء مثير للنفور والتقزز . كانوا أشد ميلا الى اعتبار الحب احساسا هادئا خيرا منه عاطفة جياشة حارة ، انهم ينظرون بعين الرضا الى خصائص السامية التى يشرحها الاساتذة فى الكتب المدرسية ، وبعين السخط والاشمئزاز الى أى كتاب أو حديث يتناوله « شو » على « المكشوف » . ان اللغة الانجليزية ، هى اللغة الوحيدة المعاصرة التى رأت أن من الضرورى لها أن تستعير من اللغة اللاتينية كلمة « Urforious » للتعبير بها عن تفانى الرجل فى حب زوجته ، ذلك أنهم يعتقدون أن الحب الذى يستغرق كل مشاعر الرجل غير جدير بالتعبير عنه . أما فى فرنسا ، فان الرجل الذى يضيع حياته من أجل النساء يلقى من العطف والتقدير الشيء الكثير ، فهم يرون ان الحب

من بين الاشياء التى تستحق اضاعه العمر فى سبيلها ، وان الرجـل الذى يفتدى الحب بحياته من حقه أن يشـــعر بالفخر والكبرياء ، ولكنه فى انجلترا ــ يكون موضع الرثاء والازدراء من نفسه ومن الجميع . وهذا هو السبب الذى جعل مسرحية انطونيو وكليوباترة لشـــكسبير أقل مسرحياته شأنا فى نظرهم ، فان المتفرجين الانجليز يشعرون بأنه من دواعى « الغفلة » وسوء التقدير أن يتخلى الرجل عن حكم امبراطورية من أجل امرأة ، ولولا أن مثل هذه المسرحية قائمه على دعائم تاريخية ثابتة، لظنوا أن أحداثها كلها من نسج الخيال .

ان مثل هذا النوع من المتفرجين الانجليز الذين قد يرغمون على الجلوس لمشاهدة مسرحية أساسها الحب ، ولكنهم يعتقدون أن الحياة مليئة بأشياء لاتقل أهمية عن الحب كالسياسة ، والرياضة ، والتقدم فى العمل ، والنجاح فى الحياة ، مثل هؤلاء المتفرجين يرحبون عادة بالكاتب المسرحى الذى يضع الحب فى المرتبة الثانية ، ويجعل نتائجه دائما مثيرة للحرج والارتباك ، وهذا ما كان يفعله « شو » .. وكان يفعله ببراعته الفائقة ومواهبه الطبيعية ، وأفكاره الأصـــيلة ، ومن ثم لا عجب ان استجاب له المتفرجون الانجليز المتعصبون للمذهب « البيوريتانى » الشديد العداء للعلاقات الجنسية . ولما حاول الـكثير من الـكتاب المسرحيين أن يقلدوا « شو » لم ينجحوا .. لأن المتفرج الانجليزى كان يقول لنفسه حين يرى مسرحية سبق أن عالج « شو » مثل موضوعها : « لقد كان شو أحسن كثيرا من هذا المؤلف فى عرض أفكاره »

- ٣٧ -

اننى اعتقد شخصيا أن المسرحية انحرفت الى طريق خاطىء حين رفعها المطالبون بالواقعيـــة الى التخلى عن بهرجة الشعر ، فان للشـــعر المسرحى أثرا عميقا فى النفس يمكن أن يحسه كل انسان اســـتمع الى بعض مسرحيات « راسين » الشعرية أو روائع مسرحيات « شكسبير » ولاشك ان هذا الأثر العميق الذى يحدثه الشعر المسرحى فى النفس يرجع الى روعة الايقاع الموسيقى للحوار ، والى أنه ــ وهو الأهم ــ يزيد من قوة اثر القالب الفنى فى النفوس . انه يتيح للمسرحية أن تحقق لونا من الجمال لا يمكن أن تسمو اليه المسرحية النثرية ، وأيا كان اعجابك بمسرحية « البطة البرية » أو « أهمية الحماس » أو « الرجل .. أنرجل الكامل » فانك لا تستطيع ــ على كل حال ــ أن تقول انها جميلة . ان الخاصية الاساسية للشعر أنه يرتفع بالانسان عن جمود الحقيقة بعض الشىء ، انه يرتفع بالحيـــاة الى مستوى آخر .. الى مســـتوى مصنوع يحس فيه المتفرجون بشىء من المتعة الروحية التى لا تتيحها الترجمة الحرفية لوقائع الحياة ، وان الكاتب المسرحى يستطيع بالشعر أن يبرز كل خصائص فنه . ذلك أن المسرحية ليست محاولة للاقناع ، وللتعامل مع الحقائق فحسب ، وانما هى للتأثير ، ان كل أهمية الحقائق بالنسبة للكاتب المسرحى هى فى اضافتها للقوة التأثيرية لافى ذاتيتها ، فان الحقيقة

بالنسبة له ، ليست أكثر من مجرد امكانيات . انها الشىء الذى يستطيع أن يقنع به المتفرجين بقبول فكرة المسرحية ، فاذا اســـتطاع أن يقنع المتفرجين بأن الزوج بدأ يشك فى اخلاص زوجته ، لأن شخصا ما أخبره بأنه عثر على منديل هذه الزوجة مع شخص آخر ـ كان بها » واذا أمكن اقناعهم بأن طعاما من العشاء مكونا من ستة أصناف يمكن التهامه فى عشر دقائق ـ كان بها أيضا ، وفى مقدوره أن يمضى فى سياق مسرحيته، ولكن عندما تشتد مطالبته بالمزيد من الواقعية ـ فى الحركة والبواعث ، وعندما يطالب بالتخلى عن البهرجة المرحة ، وعن الاسراف فى تصوير العواطف ، وانما عليه أن يحاكى الحياة كما هى، فانه يحس كأنه حرم الجانب الأكبر لمنابع تفكيره وخلقه . انه سيجد نفسه مرغما على كتابة حوار لايحتاج المثلون الى القائه بصوت مرتفع ليسمعه النظارة جميعا ، لأن الناس فى الحياة العادية لا يتبادلون الأحاديث بمثل هذا الارتفاع فى الصوت . وعليه أيضا الا يضخم الحوادث التى تساعده على سرعة الحركة » وانما ينبغى أن يقدمها طبق الأصل من صورتها فى الحياة . وكذلك عليه أن يتجنب تماما الاحداث الطارئة ، والمصادفات ، لأننا نعلم « فى المسرح » أن الحوادث لا تقع هكذا ، والنتيجة الحتمية هى أن المسرحيات التى تلتزم حرفية الواقعية تكون عادة مثيرة لأشد السأم والضجر .

ولما انتشرت الافلام السينمائية الناطقة ، اتضح أن المسرحية النثرية عاجزة عجزا تاما عن مقاومة هذا الغريم القوى ، ففى مقدور السينما أن تقدم الحوادث وتصور الحركة بتأثير أقوى . والحركة روح المسرحية ، وقد استطاعت السينما أن تخلق ذلك الجو المصطنع الذى خلقه الشعر للمسرحية وهكذا لم يسع المتفرجون الا الاعتراف بهذه الامكانيات الجديدة للسينما ، والا بقبول بعض الاشياء التى لم يكن يحتمل قبولها فى المسرحية مادامت تتناسب مع الظروف المحيطة بها . لقد اجتمعت فيها كل مميزات القصة الروائية . . قوة التصوير ، مع روعة التأثير المسرحى ، ولم يكن فى وسع كاتب المسرحية الفكرية الا أن يعترف بمرارة ، ورغما عنه » بأن « آلهة الحكمة » التى كان يكتب لها ، لم تعد تهتم بمسرحياته ، لأنها مشغولة بالضحك العريض من فكاهات السينما ، وبالتأثر العميق لما تقدمه الشاشة من روائع القصص . والنتيجة هى أن كتاب المسرحية الفكرية لم يسعهم الا الاستسلام للأمر الواقع ، والا العودة الى كتابة المسرحيات المثيرة التى طالما فتنت المتفرجين كمسرحيات «لوب دى فيجا» « ووليام شكسبير »

لقد حرصت كثيرا على أن أتجنب التكهن بما سيحدث فى مستقبل الفن والأدب ، وأن أترك لغيرى مهمة اصــــلاح أمور الناس ، ولكنى لا أستطيع الا الاعتراف بأن المسرحية النثرية ـ التى ضيعت فى سبيلها جانبا من عمرى ـ مآلها الفناء . ان الفنون الثانوية التى تعتمد على تقاليد وعادات عصرها ، لا على الضروريات الأساسية للحياة البشرية تجىء وتذهب ، وان الطقاطيق الغنائية التى انتشرت فى يوم ما ودفعت الملحنين الى انشاء مدرسة خاصة لهذا النوع من الموسيقى والغناء ، لم تلبث أن تلاشت عندما اخترعت آلات موسيقية جديدة فى مقدورها أن تزيد من جمال الأثر الموسيقى فى النفس . وليس هناك مايدعو لنجاة المسرحية النثرية من هذا المصير . وقد يقال ان من المستحيل على السينما أن

تحيط المتفرج بذلك الجو الانفعالى العميق الذى يشعر به وهو يرى الممثلين بدمهم ولحمهم يؤدون الادوار امامه ، ولكن هذا الاحتمال مبالغ فيـــه جـــدا ٠٠ والا فقـــد يصـــح أن يقـــال انه من المستحيل على الخشب والاوتار « المعازف الموسيقية » أن يكون لها فى النفس أثر أقوى من أثر أوتار المطرب الآدمى . وقد ثبت من نجاح الحفلات الموسيقية الخالصة أن أثر « المعازف الوترية » أقوى من أثر الاوتار الصوتية .

ان هناك حقيقة واحدة هى الجديرة بالاعتبار ، وذلك أنه اذا كان ثمة أمل فى بقاء المسرح ، فان هذا البقاء يتوقف على عدم محاولته تقليد السينما فيما يمكنها ان تؤديه بطريقة أفضل ٠ لقد ضل الطريق هؤلاء الكتاب المسرحيون الذين حاولوا ــ بالمشاهد والمناظر القصيرة السريعة ــ أن يقلدوا السينما فى سرعة الحركة وتغيير المناظر ، وقد خطر لى الآن أن على الكتاب المسرحيين أن يعودوا الى أصول المسرحيات الحديثة،ويستعينوا فى كتابتها واخراجها بالشعر والرقص الموسيقى وما الى هـــذا لكى ترضى جميع الأذواق، ولكنى مرة أخرى أشعر ان فى مقدور السينما بامكانياتها الكبيرة أن تتغلب على المسرح فى هذا كله ، ثم ان المسرحية التى من هـــذا النوع تحتاج الى كاتب مسرحى يكون ذا موهبـــة شعرية أصيلة ، ولعل الفرصة الوحيدة الباقية أمام الكاتب المسرحى الواقعى ، هى أن يشـــغل نفسه الآن بكتابة هذا النوع من المسرحيات التى لم تستطع السينما ــ حتى الآن على الاقل ــ أن تبرزها ٠٠ وهى المسرحية التى تكون فيهـــا الحركة داخلية أكثر منها خارجية ، وتعتمد على الفكاهة اللاذعة البارعة٠والمقصود بالحركة الداخلية ، هى التعبيـــرات النفسية التى لا يمكن ابرازها ، حتى اليوم ، على الشاشة ٠ وكذلك الفكاهة اللاذعة البارعة هى التى تعتمد على شخصية الممثل وهو يؤديها بنفسه ، لا بخياله وصورته ، فاذا أمكن تقديم مسرحيات من هذا النوع ، فان الفرصة لا تزال أمام المسرح ليبقى ٠٠ ولو الى حين ٠

وان الحديث عن المسرحية الفكاهية ليقتضى منا الاعتراف ببطـــلان المطالبة بالواقعية البحتة فى تقديمها ٠ فالفكاهة شىء مصطنع ، وهى تحتاج من الواقعية الى مظهرها فقط ، لا حقيقتها ، ومن الواجب أن تلتمس الضحك لذاته ، لا لشىء آخر ؛ فان هدف الكاتب المسرحى الفكاهى ليس فى تقديم الواقع ، على أنه أمر جدى خطير وانما فىالتعليق عليه بمرح وتهكم وسخرية ضاحكة محببة ، فلا ينبغى أن تجعل المتفرجين يتساءلون : هل هـــذه الأشياء تحدث حقا ! ؟ وانما ينبغى أن تجعلهم يقنعون بالضحك ، والواقع أنه ينبغى على الكاتب المسرحى الفكاهى أن يعتمد فى تشويقه للنظارة على عدم الاقتناع ، ومن ثم فان النقاد مخطئون فى شكاواهم بأن هذه المسرحية أو تلك تهبط الىمستوى التهريج والحشو . فقد ثبت ، بالتجربة ، أنه يستحيل على أى كاتب مسرحى فكاهى ، أن يسيطر على انتباه الجماهير ويثير ضحكاتهم طوال فصول ثلاثة كاملة من الفكاهة الخالصة ، ذلك لأن الفكاهة الخالصة تحتاج الى تفكير المتفرجين بصفة دائمة ليدركوا ما فيها من مفارقات ، وهى من هذه الناحية مرهقة للذهن اذا استمرت فترةطويلة ٠٠ أما التهريج فانه يثير الضحك دون حاجة الى اجهاد الذهن ، ولهذا لم يفكر عظماء كتـــاب

المسرحيات الفكاهية ــ مثل شكسـبير وموليير وبرناردشو ــ يوما فى مهاجمة مواقف التهريج والحشو فى المسرحيات الفكاهية لأنهم يعلمون أن هذا كله هو الدم الذى يجعل المسرحية الفكاهية تنبض بالحياة .

- ٣٨ -

هذه الافكار الطافية بغموض فى عقلى ظلت تثير ــ تدريجيـا ــ فى نفسى الشعور بعدم الرضا عن المسرح ، حتى قررت أخيرا أن أنفض يدى منه • وأنا ــ كما سبق أن ذكرت ، لا أشعر بالرضـا فى جو الزمالة • والمسرحية ــ كما ذكرت أيضا ــ عمل فنى من انتاج جهد مشترك • وقد وجدت من العسير على حينا بعد حين أن أعمل بانسجام مع زملائى المشتغلين بالمسرح •

وكثيرا ما قيل ان فى مقدور الممثلين المجيدين أن يبرزوا من جمـال المسرحية أكثر مما ضمنها المؤلف من أسباب هذا الجمال ، ولكن هذا ليس من الحقيقة فى شىء • ان الممثل المجيـد يضفى على دوره المنوط به فى المسرحية من مواهبه جمالا قلما يراه الانسان العادى الذى يقرأ هذا الدور وهو فى بيته ، ولكنه ، مع هذا ، لا يستطيع أن يبلغ المثل الأعلى الذى كان المؤلف يتخيله وهو يرسم شخصية الدور • ان عليه اذا أراد أن يبلغ هذا المثل أن يكون ممثلا نابغا ، ولكن نوابغ الممثلين معدودون ، ومن ثم فانه لا يسع المؤلف الا أن يرضى بأى مستوى جيد فى تمثيل الشخصيات التى رسمها بخياله •

وفى جميع مسرحياتى ، كان من حظى أن أرى بعض أدوارها تمثـل بالطريقة التى كنت أريدها ، ولكنى لم أر اية مسرحية منها تحظى بأن يمثل جميع أدوارها بالطريقة المثلى • وليس ثمة مفر من هذا بطبيعة الحال ، لأن الممثل الذى يصلح للقيام بدور معين قد يكون مشغولا بدور آخر ، ومن ثم لا يسع المؤلف الا أن يقبل قيام ممثل آخر بهذا الدور ، وليس هناك وسيلة لتفادى هذه العقبة . وكل من له علاقة بالمسرح يعرف أن عنف المنافسة الدائرة فى هذه السنوات بين شركات السينما الامريكية وبين الشركات الانجليزية قد جعلت من العسير الحصول على الممثل المناسب لدور معـين فى المسرح ، وهكذا يجد مدير المسرح نفسه مضطرا فى كثير من الاحوال لأن يعهد بالأدوار الى من تحت يده من الممثلين ولو كانوا غير مناسبين لها . وثمة مشكلة أخرى وأعنى بها مشكلة الاجور ، فكثيرا ما يحتاج دور صغير الى براعة خاصة فى التمثيل ، أى الى ممثل مجيد ، ولـكن مدير المسرح يضع ــ فى حسابه ــ لهـذا الدور مبلغا معينا محدودا لمكافأة ممثله ، ومن ثم لا يستطيع بمثل هذه المكافأة المحدودة أن يعهد به الى الممثـل المناسب • وهكذا لا يؤدى الدور كما ينبغى ، وقد يؤثر سـوء أدائه على المسرحية كلها ، وأحيانا يحذف من المسرحية منظر كامل له قيمة خاصة ، لان صاحب المسرح لم يجد الممثل المناسب له ، وفى أحيان أخرى يرفض الممثل المناسب القيام بدور ما لأنه صغير أو لأنه لا يتفق مع مزاجه .

وأنا اذ أقول هذا لا أريد أن أجحد فضل الممثلات والممثلين الكبار الذين يرجع اليهم الدور الكبير فى نجاح الكثير من مسرحياتى،فان اعترافى بجميلهم لا حد له ، وان قائمة أسماء الذين حققوا آمالى فيهم فى هذا الشأن لطويلة ، بحيث أجد من العسير على أن أذكرها هنا ، ولكن هناك ممثلا واحدا ، أعتقد أنه ينبغى علىأنأنوه به لأنه لم يبلغ من الشهرة ما كان جديرا به ٠ انه الممثل « س٠ث٠فرانسى » لقد قام بأداء الكثير من الادوار فى مسرحياتى ، وأذكر أنه كان رائعا فى كل دور قام به ؛ كان يبرز كل صغيره وكبيره فى جوانب الشخصية التى رسمتها بخيالى، وأعتقد انه من العسير أن نجد فى المسرح الانجليزى ممثلا ذكيا موهوبا مثله . وقد مثلت أحيانا بعض مسرحياتى بطريقة أبعد ما تكون عما كنت أريده لها ، وأخطاء التمثيل والالقاء ، ولاسيما اذا حدثت من ممثل معروف ، لا يسهل تلافيها ، وعندئذ يقع عبء فشل المسرحية كلها على المؤلف المسكين ، وليس هناك ما يسمى بالدور « الصعب » ، وانما هناك أدوار مؤثرة وأدوار أخرى – برغم كبرها – على العكس ٠ ولكن مهما بلغت مؤثرات الدور ، فانه لا يحقق الغرض منه ما لم يؤد على الوجه الأكمل ، فان أطرف عبارة فى الدنيا لا تبدو طريفة الا اذا قيلت باللهجة المناسبة ٠ ومهما يكن مبلغ الرقة فى الدور ، فانه لن يبدو رقيقا اذا أداه الممثل فى غير رقة ٠ وهناك « مطب » آخر يعده المثلون عادة فى غفلة من المؤلفين ، حتى اذا فطن المؤلفون اليه ، فانه من العسير عليهم أن يتجنبوه بسبب الطريقة المتبعة فى اختيار الممثلين للأدوار ، فان المؤلف يرسم الشخصية ٠٠ ويختار مدير المسرح الممثل الذى تتفق مواهبه والقيام بدور الشخصية المرسومة ، ولكن يحدث كثيرا أن يبالغ الممثل فى ابرازه لهذه الشخصية ، وتكون النتيجة أن تبدو الشخصية التى أراد المؤلف أن تكون طبيعية معقولة ، غير طبيعية وغير معقولة ، وكثيرا ما حاولت أن أعهد الى الممثلين بأدوار تختلف عما ألفوا تمثيله ٠ ولكن هذه المحاولات أيضا لم يكتب لها النجاح ، فان القيام بأدوار تختلف عن طبيعة الممثل تستلزم منه كفاية خاصة لا تتوافر لكثيرين ٠ ولعل أحسن وسيلة لمعالجة المشكلة أن يوجز المؤلف فى رسم الشخصية وأن يرسمها رسما خفيفا حتى يتيح للممثل ملء الفراغ بمبالغاته التمثيلية ، فتتوازن ، ولكن هذا أيضا يحتاج الى ممثلين يستطيعون بمقدرتهم أن يفعلوا هذا ٠

ان المبالغة فى تمثيل الدور ، وأغلاط الالقاء ، وهى أحيانا لا سبيل الى تلافيها من الاسباب الكافية لتشويه المسرحية ، وأحيانا يساهم المخرج فى عملية التشويه ، فعندما بدأت الكتابة للمسرح ، كان المخرجون أشد اهتماما بالمسرحية ، وأكثر تواضعا مما هم عليه الآن ٠ كانوا يساعدون المؤلف على اختصار ما ينبغى اختصاره ، وعلى اخفاء بعض نواحى الضعف فيها ببراعتهم فى اعدادها للاخراج ، وباختيار الممثلين المناسبين – بقدر الامكان – للأدوار المناسبة ومساعدتهم فى اتقان القيام بها ٠

وأعتقد أن أول مخرج مسرحى وضع هذه القواعد للتعاون المشترك ، هو «راينهاردت» ولكن المخرجين الذين نهجوا سبيله فيما بعد : كانوا

تنقصهم مواهبه ، وهكذا تحولت قاعدة التعاون « المشترك » الى ناحية أخرى .. ناحية أصبح المخرج ينظر فيها الى أصول المسرحية المقدمة اليه على أنها شيء بدائي لابد من اعادة النظر في كل شيء فيها . بل لقد حدث كثيرا أن راح بعض المخرجين يحسبون أنفسهم مؤلفين مسرحيين . وقد ذكر لي « جيرالد دي موريز » بنفسه ـ وهو مخرج ممتاز ـ أنه لا يستطيع أن يعد مسرحية للاخراج والتمثيل ما لم يكن مشتركا في اعادة كتابتها . وكانت تلك حالة لا تطاق ، ومع ذلك كان من العسير أن تجد مخرجا يقنع باخراج المسرحية كما وضعها المؤلف ، فقد تعود المخرجون أن ينظروا الى المسرحيات المقدمة اليهم على انها فرصة لتنشيط مواهبهم الخالقة . ولسوف يدهش جمهور المتفرجين اذا عرفوا مدى التشويه الذي يحدث لمسرحيات المؤلف بسبب عناد المخرج الاحمق واصراره على التغيير والتبديل فيها ،

واذا علموا ان كل ما فيها من سوقية وتفاهات انما يرجع الى تدخل المخرج لا الى عجز المؤلف . ان المخرج رجل من ذوي الافكار ، ولكنها أفكار قليلة محدودة . وهنا موضع الخطر . ان ابتكار الافكار أمر يبعث على النشوة والسرور ، ولكن الأهم هو أن تبتكر العدد الكبير من الأفكار التي لا تضيع فيها لكثرتها ، أهمية خاصة . أما اذا كانت أفكارك المبتكرة قليلة محدودة فانك مضطر الى الاعتزاز بها والاهتمام بأمرها أكثر مما ينبغي . وعندما يفكر المخرج في بضع عبارات جديدة يضيفها للمسرحية أو في حركة خاصة يعتقد انها ستكون ذات تأثير معين في نفوس المتفرجين ، فانه في سرور زائد ، يبطيء من حركة المسرحية أو يشوه أجزاء منها ليحشر هذه العبارات « المبتكرة » أو يخلق مجالا لحركته الخاصة « الفنية » والمخرج عادة رجل فارغ ، شديد الغرور ، ضحل الخيال، وأحيانا يبلغ به الاستبداد حدا يجعله يرغم الممثلين على الالقاء وتمثيل الدور بالطريقة التي يؤمن هو بها . والممثلون ـ الذين يعتمدون على حسن رأيه فيهم ليظفروا بالادوار ، وعلى خضوعهم له لينالوا رضاه ـ مضطرون الى الاستسلام لرغباته والعمل لارضائه ، وهكذا يفقدون كل ذاتيتهم في أثناء التمثيل .

وأفضل المخرجين هو الذي لا يتدخل في شئون المسرحية بأكثر مما ينبغي له ، وقد كان من حسن حظي بين الحين والآخر أن أتعامل مع مخرجين كانوا مشوقين حقا لان يؤدوا واجبهم كاملا نحو المسرحية ، وأن يحققوا كل ما يمكن من رغباتي . ولكن من العسير أن يعرف انسان ـ أيا كان ـ كل ما يدور بذهن انسان آخر ، وهكذا كان من العسير على أبرع المخرجين وأكثرهم تفاهما معي أن يبرزوا للمتفرجين كل ما كان يدور بذهني نحو المسرحية . وأعتقد أن المخرج النابغ يحاول أن يقدم للمتفرجين ما يشتهونه هم ، لا ما يشتهيه المؤلف .

وعلاج هذه المشكلة بطبيعة الحال أن يقوم المؤلف باخراج مسرحيته بنفسه . ولكن قليلا من المؤلفين ـ الذين اشتغلوا بالتمثيل من قبل ـ هم الذين استطاعوا أن يفعلوا هذا ، فانه لا يكفي أن تقول للممثل ان هذه النبرة في الالقاء أو هذه الاشارة ، خطأ ، وانما ينبغي أن تصحح الخطأ بالقول وبالعمل . وقد أصبحت الحاجة الى هذه الطريقة أشد ما تكون

بسبب هبوط مستوى الممثلين للادوار الثانوية . وقد تعود « جيرالد دى موريه » أن يفعل هذا فى شيء من السخرية العنيفة ـ ولكنها فعالة ـ وذلك بأن يبالغ فى تقليد أخطاء الممثل ، كما يفعل الرسام الكاريكاتورى ، ثم يبين له صحه الالقاء والحركة . وهو وحده الدى يستطيع ، فقط ، أن يفعل هذا ، لانه يتمتع بموهبة التقليد التهكمى ، وبالقدرة على التمثيل . على أن هذه فى ذاتها مسألة بسيطة ـ وانما المهم هو أن الاخراج عملية معقدة . انه مهنة ـ واذا شئت فقل فنا ـ خاصا يحتاج الى الجهد والمشقة لاتقانه ، فالمخرج يتعامل مع حبكة المسرحية ، ومع دخول وخروج الممثلين ، ومع المواقف الخاصة بكل منهم،منفردين وجماعات بحيث يتركز انتباه المتفرجين عليهم جميعا فى وقت واحد وعليه أن يهتم بمميزات كل ممثل على حدة ، بحيث اذا طلب من أحدهم أن يفعل شيئا خارج نطاق امكانياته ، فعليه أن يتغلب على هذه المشكلة بوسائله الفنية ، وكذلك عليه أن يهتم بخصائص الممثلين عامة ، فقد أصبح الممثل الانجليزى الآن مثلا لا يستطيع أن يلقى عشرين سطرا فى الحوار دون أن يشعر بذاتيته ، فيضطرب ، وعلى المخرج أيضا أن يوجه اهتمام المتفرجين الى النقاط الهامة فى المسرحية،وأن يغريهم، ببراعته على احتمال المواقف الضرورية المملة أو التمهيدية لمواقف أشد اثارة ، وليس هناك مسرحية يمكن أن تخلو من مثل هذه المواقف المملة أو التمهيدية ، وعليه أيضا أن يراعى سهولة شرود انتباه المتفرجين فى بعض المواقف الخفيفة ، ومن ثم عليه أن « يفتعل » حركات تعيد انتباههم الى المسرحية ، وعليه كذلك ألا يغفل عن « مقالب » الممثلين التى يدبرها بعضهم لبعض بسبب الحسد ، أو المنافسة ، أو الخصومات الشخصية ؛ وألا يجعل هذا كله يؤثر على سياق المسرحية ، وعليه أن يهتم باعطاء كل دور فى المسرحية حقه ، وألا يتيح للممثل الفرصة ليؤديه بمبالغة وتهويل ، أو أن يحاول أن يضفى عليه أهمية خاصة على حساب دور ممثل آخر ، وعليه أن يقرر متى يسرع الحركة فى المسرحية ، ومتى يبطىء بها ، ومتى يؤكد ، ومتى يتجاوز ؛ ومتى يرتفع بمشاعر المتفرجين الى الذروة ، ومتى يهبط ، وهو يعالج أيضا مشكلة المناظر وأوضاع الأثاثات على خشبة المسرح ليرى أيها أوفق وأنسب لتحركات الممثلين والاغراض المسرحية ، وهو يختار الملابس المناسبة للممثلين وأدوارهم ، ويراقب بعناية الممثلات اللاتى يحفلن عادة بجمال المظهر أكثر من مناسبة الملابس للدور . وعليه أخيرا ـ لا آخرا ـ أن يهتم بالاضاءة .

ان الاخراج مهنة ، أو فن ، له قواعده ، ويحتاج الى خبرة واسعة ، ومعلومات متنوعة وقدرة على التنظيم والاعداد ؛ والى اللياقة والصبر والمرح والحزم والمرونة ، وأنا عن نفسى أعترف بأنى لا أعرف من القواعد ، ولا أتمتع بالمواهب التى تتيح لى القدرة على اخراج المسرحيات ، وان من الأسباب التى تعوقنى عن مجرد المحاولة ، تأتأتى القديمة التى لم تتلاش تماما بطبيعة الحال ، وعادتى الملازمة التى تجعلنى أنفض يدى تماما من المسرحية بمجرد أن أفرغ من كتابتها ، ومراجعة أصولها المنسوخة على الكتاب . ان كل ما يهمنى من أمرها بعد ذلك أن أرى ـ بدافع الفضول ـ كيف تخرج ، فاذا تمت التدريبات عليها ، أصبحت بالنسبة لى ، كالأجراء « صغار الكلاب »

بالنسبه لأمها التى لا تفكر فى أمرها بمجرد أن تطمئن الى أنها أصبحت فى أيد أمينة . اننى أيضا لا أكاد أشعر بان هذه المسرحيات ، بعد اخراجها على المسرح من تأليفى ، وكثيرا ما عوتبت على سهولة استسلامى لآراء المخرجين وتعديلاتهم التى لم تكن تتفق مع آرائى الخاصة . والواقع أننى أشعر دائما بأن غيرى أكثر علما ومعرفة منى ، كل فيما يخصـــه ، وأنا لا أحب « المشاجرات » الا اذا كان مزاجى متعكرا ، ومزاجى قلما يضطرب. وأخيرا لست أهتم بالامور كثيرا ، ومن الاسباب التى ضاعفت نفورى من المسرح هى ضرورة وجود المخرجين ، لا مجرد عدم أهليتهم للاخراج .

- ٣٩ -

نتناول الآن علاقة المتفرجين بالمسرحية ، وقد يبدو أنه من غير اللائق أن أذكر أى شىء الا الاعتراف بجميل المتفرجين الذين كانوا الســبب فيما ظفرت به من شهرة ومال أتاحا لى أن أعيش فى المستوى الذى كان يعيش فيه أبى من قبل . لقد قمت برحلات كثيرة .. وعشت فى منزل يطل على البحر .. هادئا .. بعيدا عن غيره من المنازل ، يقع فى وسط حديقه .. وذو غرفات واسعة رحيبة ، وانى أعتقد أن الحياة أقصر من أن يستطيـع الانسان فيها أن يعمل لمصلحة نفسه بحيث يستحيل عليه أن يجعل غيره يعملون من أجل مصلحته . وقد استطعت أن أبلغ من الثراء ما يتيح لى أن أوفر لنفسى من طيبات الحياة ما لا يستطيع توفيرها لى أحد غيرى ، وكان فى مقدورى أن أقيم الولائم لأصـــدقائى ، وأن أقدم العون لأولئك الذين يهمنى أن أعينهم ، ولا شك أنى أدين بهذا كله الى اعجاب الرأى العام ، ولكننى مع هذا أجد انى أزداد مع الايام ضيقا بهذا الجانب من الرأى العام الذى له علاقة بالمسرح .. وأعنى به جمهور النظارة . لقد ذكرت من قبل احساسى بالحرج والارتباك كلما رأيت احدى مسرحياتى تخرج على المسرح وبدلا من أن يخف هذا الاحساس مع كثرة المسرحيات التى قدمتها ، كان يزداد ، كان شعورى بأن عددا كبيرا من الناس يشـــاهدون مسرحية لى يملؤنى بالاحساس العنيف من التقزز والنفور بحيث كنت أجــد نفسى أتجنب السير فى الشارع الذى يقع به واحد من المسارح التى تمثل فيه احدى مسرحياتى .

وقد انتهيت منذ أمد بعيد الى معرفة الأسباب التى تؤدى الى فشل المسرحية ، وتعلمت طريقة تأليف المسرحيات الناجحة .. وتعلمت أيضـــا ماذا انتظر من المتفرجين ، تعلمت أنه دون تعاونهم لا أستطيع أن أفعل شيئا ، عرفت الى أى مـــدى يمكن أن يبلغ هذا التعاون ، ووجدت نفسى مع هذا كله ، ازداد مع الأيام ضيقا بهذا كله ، فان على الكاتب المسرحى أن يشارك المتفرجين فى ميولهم وأهوائهم . والدليل الساطع على هذا هى مسرحيات « لوب دى فيجا » و « شـــكسبير » . وقد يستطيع الكاتب المسرحى أن يجمع أطراف شجاعته فلا يضمن مسرحياته أكثر من بضعة آراء يحس بها جمهور النظارة الذين لم يستطيعوا بدافع

الجبن أو الكسل ، أن يعبروا عنها . وقد سئمت تقديم انصاف الحقائق، لأن هذا كل ما يريده الجمهور ، وسئمت من غرابة التقاليد التى تمنع الممثلين من أن يتناولوا على خشبة المسرح كثيرا من الحقائق التى يتحدث الناس بها فى حياتهم العادية . مللت وضع فكرة مسرحيتى وموضوعها فى قالب معين بحيث أضطر لأن امطه الى طول لا داعى له او اضغطه فى حجم غير مقبول ، كل هذا لكى تصبح المسرحية فى حدود الوقت المطلوب لتشويق النظارة . وقد سئمت من كثرة محاولاتى الا أسأم . والواقع انى لم أعد راغبا فى أن استمر فى الاستجابة للقواعد التى تحتمها الكتابة للمسرح ، وقد خامرنى الشك فى انى اصبحت بعيدا عن أذواق المتفرجين ، فقررت أن أقطع الشك باليقين ، فذهبت الى مشاهدة بعض المسرحيات الناجحة التى تملأ المسرح بالجماهير فى كل ليلة لمشاهدتها فوجدتها سخيفة مملة . لم استطع أن أضحك للفكاهات التى تضحك وتسر المتفرجين ، ولم يختلج فى جسمى غضب أمام المناظر التى كانت تفجر الدموع فى عيونهم .

وايقنت تماما انى لم اعد أصلح للكتابة للمسرح .

وتنهدت فى ارتياح لتفرغى للكتابة الروائية . وشرعت أفكر بسرور فى هذا القارىء المنفرد بنفسه وبكتابى ، الذى هو على استعداد لأن ينصت الى كل ما أريد أن أقوله له ، وهكذا يمكننى أن أقيم بينه وبينى نوعا من الألفة لا يمكن أن يقام مثلها مع جمهور المسرح الصاخب ، انى اعرف كثيرا من كتاب المسرح الذين حاولوا أن يحتفظوا بشهرتهم ونجاحهم طوال حياتهم ، وطالما أشفقت عليهم وانا اراهم يكتبون مسرحياتهم المرة بعد المرة دون أن يذكروا لحظة واحدة ان الوقت قد تغير . ورأيت غيرهم يحاولون فى يأس أن يقتنصوا روح العصر الحديث ليتجاوبوا معها ، ثم يتألمون حين يجدون محاولاتهم تقابل بالسخرية ، ورأيت مؤلفين مشهورين يعاملون باستهزاء من مديرى مسارح سبق أن كانوا متعاقدين معهم . وسمعت عبارات الممثلين الساخرة منهم . ورايت امارات الحيرة والألم والمرارة تبدو على وجوههم حين ادركوا أن جماهير النظارة قد نفضت ايديها منهم . ولقد سمعت آرثر بنيرو وهنرى آرثر جونز ، وكلاهما كانا مؤلفين مسرحيين مشهورين فى عصرهما ، يقولان لى العبارة التالية : الأول يقولها فى تهكم مرير ، والثانى فى دهشة وارتباك : « ان جمهور المسرح لا يريدنى بعد اليوم . »

وهكذا قررت أن أعتزل التأليف المسرحى فى الوقت المناسب .

على أنه كانت فى ذهنى بضع مسرحيات لم تكتب بعد . اثنتان أو ثلاث منها لم تكن أكثر من أفكار غامضة لم اجد بأسا من اهمال أمرها ، ولكن كان الباقى ، وعدده نحو أربع ، قد اختمر تماما فى ذهنى ، ولم تبق الا عملية الكتابة ، وانا أعرف تماما عن نفسى أن هذه المسرحيات المختمرة سوف تسيطر على بعنف حتى أكتبها . لقد ظللت اقلبها كلها فى ذهنى سنوات عدة ، ولكنى لم أحاول أن أخرجها على الورق ، ثم على المسرح ، لأنى أعتقد انها لن تستثير الاعجاب ، وأنا بطبيعتى أكره أن يخسر أصحاب المسارح ومديروها المال بسببى .

وقد يرجع هذا الى طبيعتى الشعبية ، ولكن على كل حال ، لم يحدث ان تسببت فى خسارة أحدهم المادية ، فقد كانت المسرحية تقبل على أساس نجاحها المادى بنسبة ٤ الى ١ ، ولست أبالغ اذا قلت ان مسرحياتى ظلت تدر على أصحاب المسارح ايرادا يوازى أربعة أمثال نفقاتها . وقد كتبت هذه المسرحيات الأربع بالترتيب التنازلى لما أتوقعه من فشل كل منها على حدة . وذلك انى لم أشأ أن أفقد مكانتى مع جمهور المسرح حتى أفرغ منها كلها . ولكن .. لشد ما كانت دهشتى حين ظفرت الاثنتان الأوليان بنجاح فوق ما كان يخطر ببالى . أما الأخريان فقد نجحتا بقدر ما كنت أتوقع لهما . ونسوف أتحدث فقط عن واحدة . انها « اللهب المقدس » ، وانا أتحدث عن هذه المسرحية بالذات ، لأنى حاولت أن أجعل منها تجربة لعل بعض قراء هذا الكتاب يهتمون بها ويفكرون فيها بضع لحظات . لقد حاولت فى هذه المسرحية أن أجعل حوارها أشد جمودا وتكلفا من اية مسرحية سابقة لى . ان مسرحيتى الأولى كتبتها فى عام ١٨٩٨ وكتبت الأخيرة فى عام ١٩٣٣ وفى خلال هذه الفترة رأيت الحوار يتطور من حوار المؤلف المسرحى «بنيرو» ذى الطابع المنتفخ المتحذلق الى حوار « أوسكار وايلد » الرشيق المصطنع ، الى الحوار الممعن فى عاميته وشيوعه فى الوقت الحاضر ، وكانت المطالبة بالواقعية قد غررت بالمؤلفين ودفعتهم الى مزالق العامية، وقد بلغ الذروة فى هذا الأسلوب الدارج « نويل كوارد » . ولم يغفل هذا الاسلوب « النواحى الادبية » فحسب ، وانما تجنب أيضا كل ما يتعلق بقواعد اللغة التى طالما جهد الكتاب فى مراعاتها ، وحجة أصحاب هذا الأسلوب ان الواجب على المؤلف المسرحى ان يجعل شخوص المسرحية تتبادل الحديث على خشبة المسرح كما يتبادله الناس فى الحياة العامة . وهكذا حرص أصحاب هذا الأسلوب على استخدام أبسط وأوضح الكلمات . وقد قوبل هذا الأسلوب بالسخرية وهز الأكتاف . وانى أعتقد أن اعتناق المؤلفين لهذا النمط العامى من الكتابة يسىء اليهم ويحد من مقدرتهم ، ويحدد من طبقة شخصياتهم المسرحية . ذلك أن هذا الحوار العامى الدارج المبتور المتآكل الكلمات الذى يقدمونه حديث طبقة معينة من متوسطى الحال ناقصى التعليم الذين تسميهم الصحف بالطبقة العامة ! انهم أولئك الذين يهتمون بالفضائح فى الصحف وبالمجلات الاسبوعية المصورة ذات الموضوعات التافهة ، وقد قيل ان الانجليز — على عكس الفرنسيين — لا يحسنون الحديث باللغة المهذبة ذات القواعد والأصول المرعية ، ولكنى اعتقد انهم ليسوا الآن كما كان الظن بهم . فهناك طبقات كثيرة منهم ، طبقات من ذوى المهن الحرة ، ومن النساء المتعلمات ، ومن الموظفين ومتوسطى الحال أيضا الذين أصبحوا يغلفون أفكارهم بقواعد اللغة ، ويحسنون اختيار الألفاظ المناسبة للتعبير عن أفكارهم فى سلاسة ووضوح ، وان أسلوب الحوار المسرحى الحديث الذى يجعل القاضى أو الطبيب الكبير ، على المسرح ، يتحدث بلهجة « جرسون » ، البار ، لا يمثل الواقع فى شىء . ان هذا الأسلوب قد ضيق نطاق اختيار الشخصيات أمام المؤلف المسرحى ، ذلك لأنه لا يستطيع تصوير شخصياته الا بطريقة حديثها ، وانه لمن المستحيل أن

ترسم شخصية انسان . وتبرز جوانب تفكيره . وتكشف عن خلجات نفسيته بأن تجعله يتحدث بأسلوب دارج متآكل الكلمات كأنه - فى السمع - كالهيروغليفية . لقد استدرج المؤلف - بدون روية - ليختار شخصيات مسرحيته ممن يتحدثون على سجيتهم بالطريقة التى يظنها المتفرجون طبيعية ، وعندئذ لا مندوحة من أن تكون هذه الشخصيات بسيطة واضحة ، وهذا بدوره قد حدد نطاق موضوعات المسرحيات ، لأنه من العسير أن تعالج المسرحيات الدارجة ، الأسس العميقة للحياة الانسانية ، وأن تتناول بالتحليل الطبيعة البشرية المعقدة « وكلاهما من الموضوعات المسرحية الأساسية » عندما تقيد نفسك بالحوار الدارج الطبيعى . وهذا اللون من الحوار قد قتل المسرحية الفكاهية « فى الأدب الانجليزى » لأن الفكاهة فى اللغة الانجليزية تعتمد على الموارية فى الحديث ، وعلى العبارات التى تحتمل أكثر من معنى واحد « أى التورية » وهكذا دق هذا الحوار مسمارا آخر فى نعش المسرحية النثرية .

وقد خطر لى حينئذ أن أحاول فى مسرحيتى « اللهب المقدس » أن اجعل شخصيات المسرحية بحوار متوسط يجمع بين الدارجة والفصحى، وذلك بأن اجعل كل شخصية تتحدث وكأنما هى التى اعدت الحديث من قبل أن تلقيه ، وعرفت بالتحديد كيف تعبر عما تريد بالعبارات المنتقاة ، ولعلى لم أنجح فى هذه المحاولة كما ينبغى : ففى أثناء التجارب على اخراجها وجدت الممثلين الذين لم يتعودوا هذا النوع من الحوار . يشعرون كأنهم يلقون قطعا من المحفوظات ، فكان على أن أبسط الحوار بعض الشىء ، وأن أقطع العبارات ، وقد أحسست أنى أتحت للنقاد فرصة مهاجمتى ، ولهم العذر ، وقد ركزوا هجومهم على الجوانب « الأدبية الفصحى » من الحوار ، قائلين ان الناس لا يتحدثون هكذا على الطبيعة ، وانا أعترف طبعا أنهم لا يفعلون ، ومن ثم لم أحاول الاصرار على صحة ما فعلت ، فقد كنت كالساكن الذى أوشكت مدة ايجاره للمسكن أن تنتهى ، فليس هناك ما يدعوه الى عمل تحسينات فيه . وهكذا عدت الى الحوار الدارج فى المسرحيتين الأخيرتين .

انك حين تسير اياما متوالية فى ممر جبلى ، فانه تأتى عليك لحظة تتأكد فيها انك ستخرج - فى المنعطف التالى من الممر الى السهل الواسع، ولكنك ، بدلا من هذا تواجه بعد ذلك المنعطف ، ممرا آخر لا نهاية له بين الصخور الشامخة . وتسير فيه مرهقا ، لأنه ليس أمامك مندوحة عن السير . وتأمل أن تجد السهل بعد المنعطف التالى . . . ولكنك تواجه دربا آخر . . وفجاة ينفتح امامك السهل الواسع . ويخفق قلبك بالسعادة وأنت ترى الأرض تمتد أمامك فسيحة تحت ضوء الشمس . وسرعان ما يرتفع عن نفسك ذلك الشعور بالضيق والانقباض الذى كان يثقل عليك بين صخور الجبال ، واذا أنت تستنشق فى ارتياح الهواء الطلق ، ويخامرك الشعور العجيب بالحرية والرضا . . ذلك هو شعورى حينما فرغت من كتابة مسرحيتى الأخيرة .

اننى لا أستطيع الجزم بأنى تحررت نهائيا من الكتابة للمسرح . لأن المؤلف يكون عادة عبدا - اذا صح هذا التعبير - لالهامه ، ولست

أستطيع التأكد من أن موضوعا سوف يختمر ذات يوم فى ذهنى ويرغمنى على أن اخرجه فى قالب مسرحى ، وأنا أرجو الا يحدث هذا ، بل أكاد أثق فى انه لن يحدث ، لأنى يخامرنى شعور قد يعتبره القارىء سخيفا ، بانى قد استنفدت كل الموضوعات التى تصلح للمعالجة المسرحية بقلمى. وعدا هذا فقد ظفرت من المـــال بما يتيح لى أن أعيش بالطريقة التى ترضينى ، وأن أعول ماينبغى لى اعالته ، وكذلك ظفرت بذيوع اسمى ، وربما بشهرة واسعة قد تستمر حينا بعـــد وفاتى . وكل هذا كفيل بارضائى ، ولكن شيئا واحدا لا يزال باقيا لكى احققه ، اذا استطعت ، ولن أستطيع تحقيقه عن طريق المسرح . هذا الشىء .. هو الكمال . ان بلوغ درجة الكمال فى التأليف المسرحى لن تحققها لى مسرحياتى التى أنا أول من يعرف نقائصها ، وربما استطاعت بعض المسرحيات القديمة أن تبلغها ، أو تقترب منها . ذلك لأننا لا يسعنا الا أن نلتمس الأعذار لما قد يبدو فى نظرنا من نقائص ، اذ أننا لا نعـرف على وجه اليقين ميول الناس وحالة المسرح فى أيام كتابتها . فمثلا ما أبعد مسرحيات المآسى العظيمة التى كتبها الاغريق ، عن عصرنا هذا انها تصـــور ألوانا من الحضارة التى تبدو لنا غريبة بحيث يتعسر الحكم فيها حكما صحيحا صادقا ، ويخيل الى أن مسرحية « انتيجون » ربما بلغت أو اقتربت من حد الكمال . أما فى المسرحيات الحديثة ، فأنا اعتقد أن أحدا لم يقترب من الكمال كما فعل راسين ، ولكن ما أبهظ الثمن الذى دفعه فى هـــذا السبيل ، ان هذا الثمن هو انه لم يستطع الا أن يقدم عددا محدودا جدا من المسرحيـــات ، أما مسرحيات شكســـــبير ، فان المتعصـــب فقط هو الذى لا يرى فيها الكثير من أخطاء المعالجة المسرحية ومن سوء رسم الشخصيات أحيانا ، وهذا أمر بديهى مادام شكسبير كان يفضل التضحية بكل القواعد الفنية من أجل المواقف ذات التأثير العميق فى النفس . وكل هذه المسرحيات منظومة بالشـــعر الخـــالد ، فاذا نحن تناولنا المسرحيات العصرية النثـــرية ، وجدنا أنها أبعد ما تكون عن الكمال ، وأعتقد أن الرأى العام العالمى يعترف بأن « ابسن » هو أعظم كاتب مسرحى فى مائة السنة الأخيرة ، ولكن برغم كل مميزات مسرحياته، فانها تعتبر فقيرة فى موضوعاتها ، مكررة شخصياتها ، تافهـــة اذا أنت تعمقت فيها . ويبدو كأن النقائص فى التأليف المسرحى كانت تتوارث من جيل الى جيل ، وانك اذا أردت أن تحقق الكمال فى ناحية منها ، وجب أن تضحى بجوانب أخرى ، وهكذا يصبح من المستحيل عليك أن تكتب مسرحية كاملة فى كل نواحيها : فى الموضوع المبتكر المثـير ، وفى أصالة شخصياتها ، وفى سرعة حركتها ، وفنية حبكتها ، وفى جمـــال حوارها .. نعم . . ان هذا مستحيل . وقد بدا لى أن بلوغ الكمال ممكن عن طريق التأليف الروائى والقصصى ، وأن بعض كتاب هذا اللون قد بلغوه أو اقتـــربوا منه ، وبرغم انه لا يمكننى أن أطمع فى بلوغ حد الكمال ، الا أنى لا أملك نفسى من الشعور بالأمل فى أنى قد أصل عن طريق التأليف الروائى والقصصى حدا فى مرحلة الكمال ما كان يتاح لى الوصول اليه يوما عن طريق التأليف المسرحى .

ان أول رواية كتبتها ، هى « ليزا بنت شـارع لامبث » . وقد قبلها أول ناشر أرسلتها اليـه ، وكان هـذا الناشر ـ فيشر آنوين ـ يصدر سلسلة تحت اسم مستعار لروايات قصـيرة ظفرت باهتمـام عدد كبير من القراء ، وكانت بينها روايات جـون أوليفر هوبز ، وكان القراء يعتبرونها روايات بارعة مشوقة ، وكانت هذه السلسلة الروائية ذات فضل كبير فى شهرة الكتاب المشتركين فيها . وقد كتبت قصتين متوسطتين ظننت أنهما تصلحان للنشر فى مجلد واحد من هذه السلسلة، فأرسلت بهما الى فيشر آنوين ، وبعد أيام معدودة ، أعادهما الى مع رسالة يسألنى فيها : هل فى مقدورى أن أبعث اليه برواية قصـيرة ؟ ، وقد شجعتنى هذه الرسالة الصغيرة وجعلتنى أجلس فورا واكتب الرواية المطلوبة . ولما كنت اشتغل سحابة النهار بالمستشفى ، فلم تكن الكتابة تتاح لى الا فى المساء ، وكنت أعود الى مسكنى بعد السادسة مساء ، فاقرأ صحيفتى المسائية التى كنت اشتريها فى طريقى من ركن قنطرة «لامبث» ثم أشرع فى الكتابة بمجرد أن ترفع عن المائدة ادوات طعـام العشاء .

وكان فيشر آنوين قاسيا فى استغلال المؤلفين ، وقد عرف كيف يستغل حداثة سنى ، وقلة خبرتى ، وفرحتى بقبوله نشر أول كتـاب لى ، فتعاقد معى على ألا تكون لى أية حقوق اطلاقا حتى يبيع عـددا معينا ـ كبيرا طبعا ـ من نسخ الرواية ، ولكنه كان ايضا يعرف كيف يعلن عن بضاعته ، فيرسل عددا من النسخ الى الكتاب والنقاد المعروفين وهكذا قرأها كثير من الادباء والفنانين ، وقد اتخذ منها الواعظ الدينى « بازيل ديلبرفورس » الذى أصبح فيما بعد أسقف وستمنسـتر ، موضوعا لخطابه الدينى فى كنيسته ، وبلغ من تأثر رئيس قسم الولادة بالمستشفى الذى أعمل فيه أن أسند الى منصبا صغيرا للعمل تحت رعايته ، ذلك لأنى اجتزت الامتحان النهائى عقب صدورها مباشرة ، ولكنه بصنيعه هذا ضاعف من نجاحها فى نظرى ، وهكذا قررت أن اعتزل مهنة الطب واتفرغ للأدب ، ومن ثم رفضت ـ فى غير تعقل ـ المنصب المعروض على ، واشتد الاقبال على الرواية حتى وجد الناشر نفسه مضطرا الى اصدار طبعة ثانية منها بعد شهر واحد من صدور الطبعة الأولى ، وهكذا لم يبق لدى شك فى أنى قادر على اكتساب رزقى بسن القلم ، ولكن هذا اليقين لم يلبث أن تزعزع حين عدت ـ بعد عام ـ من مدينة سـيفيل باسـبانيا ، لأجد فى انتظارى صكا «شيكا» هو كل حقوقى فى رواية « ليزا بنت شارع لامبث » ، ولم تكن قيمة الصك تزيد عن عشرين جنيها !! واستطيع أن أحكم من نسبة توزيعها ، أنها لا تزال تقرأ بعد مرور أكثر من أربعين سنة على صدورها ، ولكن اذا كانت بها أية ميزة خاصة ، فانما ترجع الى أنى ـ بسبب عملى كطالب طب ـ كنت أحتك بطبقة من الناس قل أن احتك بها الروائيـون من قبـل . وكان « آرثر موديسون » بأقاصيصه عن «الشوارع الوضيعة» و «ابن

جاجو» قد لفت أنظار الرأى العام الى ما نسميهم بالطبقات الدنيا ، وأعترف أني استفدت كثيرا من اهتمام القراء بهذه الطبقات .

ولم أكن أعرف شيئا عن فن الكتابة ، ولكنى برغم حداثة سني يوم ذاك ، قرأت عددا ضخما من الكتب . كنت أقرأ بغير سياسة مرسومة ، والتهم الكتاب بعد الآخر من الكتب التى أسمع بها لأعرف ماذا تضمه صفحاتها . وبرغم أنى ، على ما أعتقد ، قد استفدت منها بعض الشيء الا أن روايات وأقاصيص «جي دى موباسان» هى التى كان لها أكبر التأثير فى نفسي حين كرست حياتى للكتابة والتأليف . وقد بدأت قراءتها وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، وكنت كلما ذهبت الى باريس ، انفق أصائل أيامى فى قاعات ومعارض شارع أوديون بين أكداس الكتب المعروضة فيها ، وكان ثمة عدد من كتب « موباسان » قد أعيد طبعها فى مجلدات صغيرة ثمن النسخة منها نحو سبعة قروش، وقد اشتريت هذه . أما كتبه الأخرى فكان ثمن النسخة منها خمسة عشر قرشا ، فلم يكن فى وسعى شراؤها . ولهذا كنت أتناول هذه الكتب ـ الواحد بعد الآخر ، من الأرفف ، وأقرأ منها كل ما أستطيع قراءته ، ولم يكن عمال المتاجر أو موظفو المعارض بملابسهم الرمادية الرسمية يلتفون الى ، وبهذه الطريقة استطعت أن أقرأ معظم كتب موباسان قبل أن أبلغ العشرين من عمرى . وبرغم أن مؤلفات موباسان لا تتمتع الآن بالشهرة التى كانت لها من قبل ، فانه ينبغى الاعتراف بأنه كان كاتبا موهوبا بغير شك ، انه كاتب صريح واضح الأسلوب . وقد كان ذا احساس قوى بالقالب الفنى للقصة ، كما كان بارعا الى أقصى حد فى الاثارة والتشويق ، وفى ابراز كل مميزات القصة التى يعرضها على القراء . ولم أكن أتمالك نفسي من التفكير فى أنه ـ كأستاذ لفن الكتابة القصصية ـ أفضل من الروائيين الانجليز الذين كان لهم أثرهم ونفوذهم فى نفوس الشباب فى ذلك الجيل ، وفى روايتى « ليزا بنت شارع لامبث» ، صورت بغير مبالغة ولا تهويل ، الاشخاص الذين عرفتهم فى أثناء جولاتى التدريبية الطبية ، وفى العيادة الخارجية للمستشفى ، وقد وضعت الأحداث والتجارب التى صادفتنى وأنا انتقل ـ كطبيب مولد تحت التمرين ـ من بيت الى بيت فى ذلك الحى الشعبى ، أو عندما كنت أجول فيه وقت فراغى من العمل. وكان ضيق أفق خيالى اذ ذاك قد جعلنى أسجل فى صراحة مباشرة ما كنت أراه بعينى وأسمعه بأذنى . وبمناسبة الحديث عن الخيال أقول ان أفقه يتسع ، وقوته تنمو بالتجارب والمران ، وذلك بعكس الاعتقاد الشائع بأنه أقوى وأكثر اتساعا فى البالغين منه فى الصغار .

وعلى الجملة كان نجاح الرواية يرجع الى المصادفة السعيدة ، أى أنه لم يكن دليلا على مستقبل أدبى مضمون ، ولكنى لم أكن أعرف هذه الحقيقة .

وألح فيشر آنوين على لكى أكتب رواية أخرى ، أطول ، من الصعاليك والمباءات ، وذكر لى أن هذا ما يريده القراء ، وتكهن بأن هذه الرواية الثانية ـ بعد أن افتتحت بالأولى أبواب النجاح ـ سوف

تنجح وتزداد رواجا عن رواية « ليزا بنت شارع لامبث » . ولكن هذا لم يكن في بالي على الاطلاق ، فقد كنت شديد الطموح ، كان يخامرني شعورا — لا أدري من أين جاءني — بأن الانسان لا يجري وراء النجاح بعد اول بارقة منه ، وانما يطير بعيدا عنه ، وكنت قد تعلمت عن الفرنسيين الا أعتمد كثيرا على الأدب الشعبي ، وكذلك لم يعد لي أي اهتمام بالكتابة مرة أخرى عن الطبقة الدنيا بعد أن كتبت مرة عنها . وفي الواقع كنت قد فرغت من كتابة رواية مطولة من نوع جد مختلف .

وليس من شك في أن «فيشر آنوين» قد شعر بالاستياء عندما ارسلتها اليه . وكنت قد جعلت مسرح أحداث الرواية ايطاليا في عهد النهضة، وكان موضوعها يدور حول قصة قرأتها عن تاريخ ميكيافيللي في فلورنسا، وقد كتبتها بعد أن قرأت بضع مقالات لاندرد لانج عن فن الكتابة الروائية ، وقد ذكر في احدى هذه المقالات أن الروايات التاريخية هي النوع الذي يمكن أن يبلغ منه شباب الكتاب شيئا من النجاح . واقتنعت برأيه هذا ولا سيما حين قال : ان قلة التجارب في حياة الكاتب الشاب لا يتيح له النجاح في كتابة الروايات العصرية ، أما التاريخ فانه يزوده بموضوع القصة وبالشخصيات التاريخية وبالأحداث القوية التي تتلاءم مع طبيعته الوثابة الشابة ، ومع حماسته في الكتابة . وأنا أعرف الآن أن هذا لم يكن غير لغو لا غناء فيه ، فليس صحيحا أن الشاب لا يتمتع بالخبرة التي تتيح له الكتابة عما يدور حوله من أحداث ومن أشخاص.

ولست اظن أن الانسان حين يكبر في السن ، يعرف الناس عن قرب كما يعرفهم وهو طفل صغير أو غلام يافع ، فهو في حداثته يكون شديد الصلة بأسرته ، وبالخدم ، وبمدرسيه في المدرسة ، وبغيره من الأولاد والبنات . انه يراهم بعين مباشرة لا التواء فيها ولا غموض ويكشف البالغون عن انفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أمام الأطفال والصغار أكثر مما يفعلون أمام البالغين أمثالهم . وان الطفل أو الغلام ليشعر بالبيئة المحيطة به ، وبالمنزل المقيم فيه ، وبالريف أو الشارع أو المدينة ، شعورا واضحا متصلا لايتأتى له عندما يكبر وتطمس الحوادث المتتالية في حياته كل ذكرياته الناضرة . أما الروايات التاريخية فانها — على العكس — تحتاج الى ألوان من التجارب وخبرة البالغين حتى يتمكنوا من رسم شخصياتهم الحية على الورق بين شخصيات قديمة تبدو — من الوهلة الأولى — مختلفة الطباع متباينة الميول بالنسبة لنا، وان احياء الشخصيات القديمة من بطون التاريخ ليستلزم خبرة بالحياة واسعة ، ومعلومات كثيرة ، وقوة في الخيال قل أن يتمتع بها الكتاب الشباب . واعتقد أن عكس ما قاله « اندرد لانج » هو الصحيح .

فالروائي يجب أن يتحول الى تأليف الروايات التاريخية في السنوات الأخيرة من حياته حيث تكون سعة اطلاعه وتنوع تجارب حياته قد زودته بخبرة الحياة وشيء غير يسير من تيارات السياسة وأنواع الحكم في مختلف العصور ، وبالحقائق النفسية عن الجنس البشري سواء بالاطلاع أو بالاتصالات الشخصية المتعددة في أثناء حياته الحافلة ، ولا شك أن هذا كله يعينه على احياء الشخصيات التاريخية لتنبض بالحركة على صفحات الكتب .

لقد كتبت روايتى الاولى من وحى تجاربى الشخصية ، أما الآن وبعد أن وقعت فى أحبولة هذه النصيحة الفجة ، فقد شرعت فى كتابة رواية تاريخية عاطفية . وقد كتبتها فى جزيرة «كابرى» أثناء اجازتى الطويلة . وبلغ من حماستى فى الكتابة أنى كنت استيقظ فى السادسة صباحا واستغرق فى الكتابة حتى يدفعنى الجوع الى طعام الافطار ، ولكننى برغم هذا ، لم أكن أحرم نفسى حمام الصباح فى مياه البحر ..

- ٤١ -

لست فى حاجة لأن أتناول بالحديث الروايات التى كتبتها خلال السنوات القليلة التالية ، وكانت احداها « مسز كرادوك » قد ظفرت ببعض النجاح الذى حدا بى الى اعادة طبعها فى مجموعة أعمالى الادبية . واثنتان من الباقيات كانتا فى الأصل مسرحيتين لم أستطع تقديمهما على المسرح ، فبقيتا فى درج مكتبى ، وفى حنايا ضميرى ، « كالعقلة فى الزور » ومن ثم حولتهما الى روايتين . ولشد ما أتمنى الآن لو أنى تركتها فى ظلام درج المكتب ! ولكن يعزينى عن تفاهتهما أنى أعرف الآن أنه ليس ثمة ما يدعونى الى كل هذا الندم ، فليس هناك كاتب — أيا كانت مواهبه وكفايته — لم يؤلف بعض الكتب التافهة ، فان بلزاك نفسه الذى أنتج الكثير من الوان الأدب ، قال : ان كثيرا من هذه الكتب لن يهتم أحد بقراءتها الا الطالب الدارس ، ولهذا فان على الكاتب أن يطمئن الى أن ما يريد أن ينساه من انتاجه الادبى ، سوف ينسى حتما . وقد كتبت احدى هذه الروايات لأنى كنت فى حاجة ملحة الى المال لأقضى العام التالى دون حاجة الى الاقتراض . وكتبت الثانية لأنى كنت اذ ذاك مشغول القلب بفتاة شديدة الحب للمظاهر ، شغوفة بالملابس والحلى ، وكانت حرارة عواطفى لا تجد السبيل اليها أمام الشبان المنافسين لى ، المعجبين بها ، الذين كان فى مقدورهم أن يحققوا لها كل ما تشتهيه نفسها . ولم يكن لدى ما أقدمه اليها الا اسمى ككاتب ناشىء ، والا عبارات بارعة من التهكم والسخرية ، ومن ثم قررت أن أكتب رواية أظفر من ورائها بنحو ثلثمائة أو أربعمائة جنيه أستطيع بها ان أقف على قدم المساواة مع المنافسين فيها . ذلك أن الفتاة كانت فى رأيى ، جذابة جديرة بكل جهد يبذل من أجلها ، ولكن ، مهما بذلت من جهد ، فان الرواية المطولة تحتاج الى أسابيع كثيرة لكتابتها ، والى اشهر كثيرة لنشرها ، ان وجدت الناشر ، والى اشهر أخرى كثيرة لتحصل على مكافأتك منها ، والنتيجة هى أنه فى الوقت الذى ظفرت فيه بالمبلغ المطلوب ، كانت عاطفتى نحو الفتاة قد خمدت برغم شعورى السابق بأنها ستظل متوهجة مدى الحياة ، وهكذا لم أنفق المال فيما كنت أنوى انفاقه فيه ، وانما أنفقته فى رحلة الى القطر المصرى .

وعدا هاتين الروايتين ، فان الكتب والروايات التى ألفتها خلال السنوات العشر الأولى من احترافى الكتابة ، كانت بمثابة التمرينات

لتعلم فن الكتابة الصحيحة . ذلك أنه من بين مشكلات الكاتب المحترف انه لا يستكمل براعته فى فنون الكتابة الا على حساب القراء فهو مدفوع الى الكتابة بحوافزه الداخلية ، وبما يصطخب فى ذهنه من موضوعات مختلفة ، ولكنه فى الوقت نفسه ، محـــروم من البراعة التى تمكنه من معالجة هـذه الموضـوعات كما ينبغى ؛ فان تجاربه محـدودة ، وهو « غشيم » خام لا يعرف كيف يحسن استغلال مواهبه . وهو حين يفرغ من كتابه أو روايته ، يسعى الى نشرها بكل ما فى وسعه من جهـد . وذلك لكى يحصل من جهة على المال اللازم لحياته ، ولأنه ، من جهـــة أخرى ، لا يعرف حقيقة ما كتب الا بعد الطبع . وعندئذ فقط يستطيع أن يتعـرف على أخطائه من آراء أصـدقائه ، ومن أقلام النقاد والكتاب . وكثيرا ما سمعت أن « جى دى موباسان » كان يعرض كل ما يكتب ، أولا، على الكاتب الناقدالكبير فلوبرت وأن فلوبرت لم يسمح له بأن ينشر أىشىء مما كتب ، الا بعد خمس سنوات من بدء اشتغاله بالكتابة . وهكذا فاجأ العالم الأدبى بقصته الأولى «بول دىسوف» فاذا هى فى ذروة الكمال، ولكن كانت لموباسان ظروفه الخاصة ، فهو لم يكن فىحاجة ملحة الى المال، اذ كان فى منصب حكومى يتيح له ضمان الرزق ووقت الفراغ للتأليف الأدبى؛ وان قليلا من الكتاب الناشئين هم الذين يستطيعون الصبر كل هـذه السنوات ليجربوا حظهم مع جمهور القراء ، وأقل منهم من تتاح له فرصة التعرف بكاتب عظيم نابغة مثل « فلوبرت » يرشـــدهم ويقـــود خطواتهم الاولى الى الطريق الصحيح . وان معظم الكتاب الناشئين ، ليضيعون كثيرا من الكتب التى كان فى مقدورهم أن يحسنوا الاستفادة منهـــا لو أنهم لم يكتبوها حتى تتسع مداركهم وتتنوع خبرتهم وتزداد بصيرتهم بالحياة وتتزود اقلامهم بالقـدرة على معالجة فن الـكتابة فى رسوخ وثبات . وانى لاتمنى أحيانا ان الحظ لم يساعدنى بقبـــول روايتى الأولى فورا ، لأنه لو حدث هذا لبقيت أمارس مهنة الطب ، ولظفرت بالمنصب الحكومى المناسب لى بالمستشفى ، ولاشتغلت مساعدا للاطباء العموميين فى مختلف المناطق ، ولأصبحت نائبا ، وبهذه الطريقة كان يمكننى أن أتزود بكميات ضخمة من الخبرة والتجـــارب . ولو ان كتبى رفضت الواحد بعد الآخر فى أول عهدى بالكتابة ، لكنت قد بدات جهدى فى مراجعتها وتحسينها ، ولجاءت بعد ذلك أقل نقصا واوفـر كمالا ، وانى لأشعر بالأسف لحرمانى من المرشد الناصح ، ولو انه أتيح لى مثل هذا المرشد لتجنبت كثـــيرا من المزالق ، ولوفرت كثيرا من الجهد الضائع . وانى اعرف بعض الأدباء الذين كنت أشعر ان التعرف بهم لا يفيد المؤلف فى كثير أو قليل ، برغم ظروفهـم وحسن معاشرتهم — وكنت — من جانبى — أشد خجلا ، وأكثر غرورا واعتدادا بالنفس من أن ألتمس نصيحتهم . وقد درست الأدب الفرنسى الروائى أكثر مما درست الادب الانجليزى ، وبعد أن ظفرت بكل ما فى وســعى من ادب « موباسان » تحولت الى « ستاندال وبلزاك وكونكورت وفلوبرت وأناتول فرانس » .

وقد قمت بتجارب منوعة وكانت احداها فى ذلك الحين جـديدة حقا ، فان تجارب الحياة الادبية التى استقيتها فى شغف من الكتب ،

أوضحت لى أن الروائيين الذين يقصرون شخصيات رواياتهم على ثلاثة أو اربعة أو اكثر قليلا ، والذين يحركون هذه الشخصيات فى نطـــاق محدود كأن العالم المحيط بهم لا وجود له ، انما يصورون جانبــا من الحقيقة فقط ، ومن ثم خطر ببالى أن فى مقدورى أن أقدم صورة أكبر للحقيقة والواقع عن طريق كتابة مجمـــوعة من القصص المنوعة ذات الاهمية المتساوية ، وأن اجعل شخصياتهم تقـوم بأدوارها المختلفة فى العصر نفسه ، ولكن فى ظروف وبيئات متباينة ، وقد استلزم ذلك ، بطبيعة الحال أن أستخدم عددا كبيرا من الشخصيات لأجعل منهـــا أبطالا لأربع او خمس قصص منفصلة بعضها عن بعض فى كل شىء الا فى خيط رفيع يربطها ، كأن يكون هذا الخيط امرأة عجوزا تعـرف على الأقل شخصية واحدة من مجموعة شخصيات كل قصة . وقد سميت هذا الكتاب Merry go round واعترف أنه ، بعد صدوره ، بدا غريبا شاذا ، لأنى كنت متأثرا اذ ذاك بنفوذ المدرسة الادبية الفلسـفية السائدة فى القرن التاسع عشر ، فجعلت كل شخصـيات القصص من النوع الخير الجميل السامى ، أما الأسـلوب ، فكان متزمتا ، شـديد التكلف ، ولكن عيبــه الأساسى كان فى حـرمانه من خط الاسـتمرار والترابط الذى يشد انتباه القارىء ويربط اهتمامه فى موضوع واحد متسلسل الاحداث متتابع الخطوط . ولم تكن القصص ، مع هـذا ، متســاوية فى الأهمية . ومن ثم كان من دواعى الملل أن يتبلبل اهتمام القارىء بين أحداث خمس قصـص مختلفة ، ولكنها مع ذلك مترابطة بخيط رفيع . لقد فاتنى ــ بسبب الجهل بالأصــول الفنية للكتابة القصصية ــ أن أعرف خطر هذه الطريقة المشوقة البسيطة التى تجذب انتباه القارىء وتشـــده الى الرواية او الكتاب ، بتسلسل الأحـداث وتتابع الشخصيات التى تقوم بها وتتفاعل معها ، وهذه الطريقة المشوقة هى التى طالما استخدمها المؤرخون الروائيون وكتـــاب الســير على مر العصور ، ولكن هنرى جيمس كان أول من ضاعف من تأثيرها فى النفس وذلك بوسيلة بسيطة جدا . هى أنه كان يضــع «هو» بدلا من «أنا» أو بمعنى آخر كان يسلسل الأحداث بتتابع الشخصيات بأسلوب ضمير المتكلم الذى يربط الكتاب كله فى خيط واحد متين ، ولكنه بدلا من أن يجعل نفسه هو الراوى للكتاب بضمير المتكلم ، كان يضع بدل هـــذا الضمير ، ضمير « هو » الغائب ، وبهذه الطريقة كان يحافظ على وحدة الموضوع أو الرواية ، وعلى عناصر التشويق بها .

- ٤٢ -

يخامرنى الشعور بأنى كنت أبطأ فى التطور والتقدم من غيرى من الكتاب . وقد كنت فى السنوات الاخيرة من القرن الماضى والسنوات الاولى من القرن الحالى ، معروفا فى الوسط الادبى بأنى كاتب شـــاب بارع ، شهرتى أكبر من سنى ، غليظ الطبع ، نفور من الناس ولكنى جدير بالاعتبار والتقدير . وبرغم أنى لم أستفد من كتبى اذ ذاك من الناحية المادية الا

قليلا فانى استفدت منها – أدبيا – الشيء الكثير ، ولكنى حين أقارن بين رواياتى هذه الاولى ، وبين ما يكتبه شباب الكتاب فى الوقت الحاضر لا يسعنى الا الاعتراف بأن رواياتهم أفضل وأحسن ، ولهذا يجمل بالكتاب الشيوخ أن يكونوا على اتصال بانتاج الادباء الشباب ، فيقرءوا رواياتهم بين الحين والآخر . وانه ليبدو لى أحيانا أن بعض الفتيات والشبان الجامعيين الذين لم يبلغوا العشرين بعد ، يصدرون كتبا جديرة بالاعتبار لما تنم عليه من تجربة ناضجة ، وأسلوب جيد ، وخبرة بفن الكتابة . ولست أدرى هل يرجع هذا الى براعة خاصة يمتاز بها شباب هذا الجيل أو الى أن الفن القصصى قد تقدم كثيرا خلال نصف هذا القرن بحيث أصبح من السهل أن تكتب الرواية الجيدة هذه الايام ، فى حين كان من الصعب ان تكتب رواية مقبولة فى العصر الماضى ، واذا خطر للانسان أن يهتم ويعيد النظر فى سلسلة « الكتاب الاصفر » التى كانت تعتبر اذ ذاك من روائع الكتب المسلسلة من حيث المادة والأسلوب والمعالجة الفنية ، فانه سوف يدهش حين يتبين أخيرا تفاهة معظم كتب هذه السلسلة ، فانه على الرغم من تتابع نجاحها لا تعدو أن تكون ألوانا من الادب الرخيص ، وأن التاريخ الادبى فى انجلترا لن يلقى عليها الا نظرة عابرة . وانى لأتوجس اشفاقا وأنا أتصفح انتاج شباب هذا الجيل وأتساءل : هل سيبدو هذا الانتاج أيضا بعد أربعين سنة أخرى ، تافها رخيصا سطحيا كانتاج أسلافهم من كتاب سلسلة « الكتاب الاصفر » .

لقد كان من حسن حظى أنى ظفرت بالشهرة كمؤلف مسرحى ، وانى لن أضطر لان أكتب فى كل عام رواية واحدة لأضمن بسطة الرزق، فقد وجدت الكتابة للمسرح سهلة ، وجالبة للشهرة التى كانت ترضينى ، وموردا لرزق يضمن لى حياة معتدلة ، انتى لم أشعر يوما بذلك الاحساس البوهيمى الذى يجعل صاحبه لا يحفل بما يأتى به الغد . ولم يكن ابغض الى من الاستدانة ، أو من الانغماس فى حياة اللهو والعربدة ، لانى لم أولد فى بيئة لاهية عربيدة ، وهكذا انتهزت أول فرصة متاحة لى واشتريت منزلا فى « مايفير » .

ان هناك أناسا يحتقرون حب التملك ، وهم بطبيعة الحال يقصدون أنه لا يجوز للفنان أن يشغل نفسه بالشئون المادية ، وقد يكونون على حق فى هذا ، ولكن الفنانين أنفسهم لا يتفقون معهم فى هذا الشأن ، فليس هناك فنان عاش طواعية فى الحضيض الذى يحب المعجبون به أن يروه فيه دائما . والواقع أن معظم الفنانين أساءوا الى أنفسهم باسرافهم الشديد وبذخهم البالغ ، وحبهم الجنونى للمظاهر . وهم ، مع هذا ، رجال من أصحاب الخيال الواسع ، يحبون الترف ، واللوحات الفنية ، والاثاثات الفاخرة ، والمنازل الأنيقة ، والخدم ، والحشم ؛ وقد عاش كل من «نيتيان» و «روبين» كالامراء وكذلك عاش الفنان « بوب » والكاتب الكبير « وولتر سكوت » ، وكان « لألجريكو » قصر ، وفرقة موسيقية خاصة تعزف له فى أثناء الطعام ، ومكتبة فاخرة ؛ وخزائن للملابس الثمينة ؛ ولكن أكثر هؤلاء ماتوا معدمين مفلسين . وليس من الطبيعى أن يعيش الفنان فى مسكن رخيص ويأكل طعاما تافها تطهيه له خادم تقوم بكل الاعمال المنزلية . انه

لو فعل هذا لدل على أنه فنان بخيل عديم الذوق ، ذلك أن الترف بالنسبة للفنان نوع من اللهو والتسلية .. فسياراته وقصوره ، وأراضيه ، وتحفه ، كلها أدوات للهو والتسلية التى ترضى خياله ونزعاته .. انها الدلائل الساطعة على قوته ونجاحه ؛ ولكنها فى الوقت نفسه ليست جزءا من طبيعته الفنية المنعزلة التى تتوق الى الوحدة والتأمل والخيال . انى شخصيا لا اتردد فى أن أتخلى - فى رضا تام - عن كل شىء يمكن أن يشتريه المال ، اذا دعت الضرورة ، فنحن نعيش فى عصر متقلب لا يستطيع المالك فيه أن يضمن ممتلكاته الى غاية العمر ، ويكفينى جدا أن أتناول الضرورى من الطعام البسيط ، لأن شهيتى متواضعة ، ويرضينى أن أعيش فى غرفة واحدة خاصة ، وأن أقرأ الكتب المعارة من المكتبات العامة ، وأن يكون معى قلمى وأوراقى .. واذا حرمت كل شىء الا هذه الاشياء البسيطة ، فلن أشعر بأى ندم أو أسف . ولكن هذا كله لم يمنعنى من الشعور بالغبطة لما ظفرت به من مال وافر عن طريق مسرحياتى ، فقد اتاح لى هذا المال لونا من الحرية التى اشتهيتها .. ولهذا حرصت عليه لأنى لا اريد أن أعود الى الظروف التى كانت الحاجة فيها الى المال ترغمنى على أن أفعل ما لا أريد .

- ٤٣ -

اننى اشتغلت بالكتابة كما لو كنت قد اشتغلت بالطب أو بالمحاماة . وليس من شك فى أن الكتابة مهنة جميلة رائعة تغرى الكثيرين بمحاولة الاشتغال بها حتى ولو لم تكن لديهم المؤهلات أو المواهب اللازمة لها . انها مثيرة وممتعة ، والكاتب حر فى أن يكتب حينما يريد وفى أى وقت يشاء .. انه حر فى أن يمتنع عن العمل اذا شعر بالسقم أو بالضيق . ولكنها مع هذا ، مهنة لا تخلو من مساوىء ، منها أنه على الرغم من أن العالم كله أمامك ، وان كل ما فيه من أناس ومناظر يعتبر خامات بين يديك . فانك لا تستطيع أن تستفيد من هذه الخامات الهائلة الا بما يتناسب مع كفايتك وطبيعتك النفسية .

ان المنجم غنى جدا بالذهب ، ولكن الكاتب لا يستطيع أن ينال منه الا كمية محدودة . ومع ذلك فقد يموت الكثيرون جوعا برغم وجودهم فى قلب هذا المنجم الذهبى .. لقد خانتهم معداتهم وآلاتهم وامكانياتهم ، ولكننا نقول عنهم انهم استنفدوا كل ما لديهم . وأعتقد أن قليلا جدا من الكتاب هم الذين لا يفزعون من هذا المصير . ومن المساوىء أيضا أنه ينبغى على الكاتب المحترف أن يرضى القراء ، واذا لم يكن له العدد الكافى من القراء ، فانه قد يموت جوعا ، وفى كثير من الاحيان يزداد احساسه بضغط الحياة وقسوتها ، فيضطر ، وهو ثائر النفس ، مهتاج الشعور بالغضب ، الى أن يتملق القراء بقلمه ويقدم اليهم ما يطالبون به ، وعلى الانسان ألا يتوقع الشىء الكثير من الطبيعة البشريه ، ولهذا فقد يستقبل القراء فى هدوء وعدم اهتمام كتابا رائعا جديرا بكل اهتمام ، وانه لينبغى على الكتاب الذين لا يشغلهم البحث عن لقمة العيش ، ألا يسخروا أو ينفروا من

زملائهم الذين ترغمهم قسوة الحياة على الانتاج الضحل أحيانا . وقد قال أحد الكتاب المتفلسفين ذات مرة ، أنه لا يستطيع أن يهضم انتاج الكاتب الذى يكتب من أجل المال . وبرغم أن هذا الكاتب المتفلسف - وهوفيلسوف حقا - قد قال أشياء طيبة كثيرة ، الا أن قولته هذه جانبت الصواب ، ذلك لانه ليس من شأن القارىء ان يتعرف على الدوافع التى حفزت الكاتب الى الكتابة ، ان له أن يهتم فقط بالنتيجه . فهناك كتاب لا يكتبون الا تحت ضغط الحاجة الملحة الى المال « وكان صامويل جونسون أحدهم » ، ولكنهم مع هذا لا يكتبون من أجل المال فقط . وانها لحماقة ضخمة منهم لو انهم فعلوا ، فان هناك أعمالا أخرى كان يمكن أن تدر عليهم المزيد من المال مع القليل من الجهد ، لو كان المال هو الهدف الاساسي للكتابه . وان معظم اللوحات الفنية الرائعة فى العالم قد رسمت لان الرسامين كلفوا رسمها نظير مبالغ ضخمة . والرسم - كالكتابة - عمل مثير يجعل المشتغل به يستغرق فيه بكل مشاعره بمجرد أن يبدأه . وكما أن الرسام لن يظفر - بالزبائن - الا اذا استطاع - على الجملة - أن يرضى الذين يكلفونه بالرسم ، فكذلك الكاتب لن يظفر بالعدد الكافى من قراء كتبه ما لم يعمل - فى جملته - على ارضائهم وجذب اهتمامهم اليه ، ولكن الكتاب يخامرهم الشعور بأن القراء ينبغى أن يحيوا ما يقدمونه اليهم ، وأن السبب فى عدم رواج كتبهم يرجع الى القراء لا اليهم ، وانى لم أعرف بعد كاتبا يعترف بأن السبب فى عدم اقبال القراء على كتبه يرجع الى أنها مملة ، وأن هناك أمثلة كثيرة عن فنانين ظل انتاجهم أعواما طوالا لا يقابل بالرضا والتقدير ، ولكنهم استطاعوا ، فى النهاية ، أن يبلغوا الشهرة . ونحن بطبيعة الحال لا نسمع أو نعرف شيئا عن أولئك الذين تبقى كتبهم عرضة للاهمال الدائم ، ولكن عدد هؤلاء كبير جدا .. أكبر بكثير من الكتاب المعروفين . وأين هى الكتب التى قدمها الكتاب المغمورون بعد أن ضيعوا فيها حياتهم ، واذا صح ان النبوغ يتكون من بساطة التعبير مع نظرة خاصة الى العالم ، فان من المفهوم قطعا الا تقابل الاصالة الفنية بالترحيب فى أول الامر ؛ فان الناس فى هذا العالم المتغير المتقلب يرتابون فى كل جديد ، ويحتاجون الى وقت كاف ليألفوه . وان على الكاتب الموهوب أن يتعرف تدريجيا على من يتذوقون أصالة فنه قبل أن يفاجأ به الكثرة منهم . ولا يستلزم هذا كله وقتا طويلا فحسب ،وانما يحتاج الى الصبر الطويل لاقناع هؤلاء الذين يسميهم - فى عظمة واختيال - قراءه ، بأن لديه حقا ما يقدمه اليهم ، لانهم فى حاجةاليه . وكلما ازداد شعورا بذاتيته وفرديته ، كان من الصعب عليه ان يحقق هذا الهدف ، كما أن الامر يطول به حتى يستطيع أن يظفر بحاجته من المال ، وعدا هذا فانه لن يستطيع أن يتأكد بأن نجاحه - فى النهاية - لن يكون موقوتا ، لأنه من المحتمل ألا يكون لاحساسه العميق بذاتيته غير شىء أو شيئين يقدمهما الى القراء ، ثم يعود وينكمش فى قوقعة الخمول التى خرج منها بعد الجهد والمشقة .

ومن السهل أن يقال انه ينبغى ان يكون للكاتب عمل آخر يرتزق منه ، وأن يخصص للكتابة أوقات الفراغ التى يتيحها له ذلك العمل . لقد

كان هذا ممكنا فيما مضى عندما يجد الكاتب ـ برغم شهرته وذيوع اسمه ـ نفسه مرغما على البحث عن عمل آخر يقيم أوده. ذلك لان الادب، فيما مضى، لم يكن وحده كافيا لاعالة صاحبه، وقد يكون هذا أيضا فى الاقطار التى ليس فيها غير عدد محدود من القراء، ومن ثم يحتاج الكاتب الى أن يقوم بعمل يتكسب منه بجانب احتراف الكتابة. كأن يعمل كاتبا فى شركة أو فى الحكومة، أو محررا أو مخبرا بالصحف. أما الكاتب باللغة الانجليزية فان الناطقين بهذه اللغة، وعددهم ضخم يتيح له القدرة على الحياة فى بسطة من العيش من احتراف الكتـابة فقط، وأن فـرص النجاح أمام الكاتب الانجليزى لتزداد أضعافا لو أن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية خارج وطنه تخفف قليلا من احتقارها لبعض الفنون، فان هناك احساسا مشتركا بين هذه الشعوب بأن فن الرسم، أو فن التأليف، ليسا من الاعمال اللائقة بالرجال. وهذا الشعور الاجتماعى يمنع الكثيرين من الانضمام الى زمرة أهل الفنون والادب. وان الفنان ليحتاج الى حافز عنيف قوى يدفعه الى احتراف مهنة تعرضه لشىء ولو يسير من احتقار الرأى العام.

ان احتراف الادب فى المانيا وفرنسا شرف كبير، وان الآباء ليدفعون بأبنائهم فى هذا السبيل بـرغم أن مكافآته المادية غير مرضـية، وكثيرا ماتلتقى بأم المانية اذا سألتها عن المهنة التى سيشتغل بها ابنها فى المستقبل فانها تقول انه سيغدو شاعرا. أما فى فرنسا فان أسرة الفتاة التى تدخر لها صداق زواج ضخم «ذوطة» تعتبر زواج هذه الابنة من روائى شاب موهوب فرصة طيبة.

ولكن المؤلف لايكتب فقط وهو جالس الى مكتبه، وانما يكتب طول اليوم، يكتب وهو يفكر، وهو يقرأ، وهو يمر بالتجارب، ان كل شىء يراه ويشعر به له معناه ودلالته وفائدته له كمؤلف، وهو دائما يختزن بفعله الظاهر، وشعوره الباطن ـ كل الانطباعات التى تمر به أو عليه. انه لا يستطيع، لهذا السبب، أن يركز اهتمامه الخاص بأى عمل آخر. انه لن يستطيع القيام به كما ينبغى بالنسبة له أو لصاحب العمل. ولعل أنسب عمل له هو الاشتغال بالصحافة، فهى ذات علاقة وطيدة بعمله الأساسى ككاتب ولكنها فى الوقت نفسه، أشد الأعمال خطرا عليه، ذلك لأن لكل صحيفة أو مجلة شخصيتها الخاصة القوية ـ التى تؤثر عليه، فان الكتاب الذين يكثرون من الكتابة للصحف وفى الصحف، يفقدون بالتدريج، موهبة ملاحظة الأشياء الخاصة بهم كمؤلفين، لأنهم تعودوا النظر اليها من زاوية اهميتها العامة للقراء، وقد يقدمون هذه الأشياء بحيوية، وأحيانا بوضوح وسطوع، ولكن ليس (أبدا) بالموهبة التحليلية التى تتعمق الحقائق، والتى تطفئها شخصية الكاتب الباحث عن الاثارة والسبق الصحفى.

الواقع أن الصـحافة تقتل ذاتيـة الكتاب الذين يشتغلون بها. وكذلك الحال مع الكاتب الصحفى المتخصص فى اسـتعراض المؤلفـات الحديثة وتناولها بالنقد والتحليل. ان اشتغاله بالصحافة يسىء اليـه

اكثر مما يفيده ككاتب ، فهو أولا لايقرأ من أكداس الكتب التى تصل اليه الا مايتفق مع مزاجه الخاص ، وحتى لو لم يكن هذا ، فان قراءة هـذه الكتب المختلفة التى تعد بالعشرات ، أو بالمئات ، قراءة عامة ، لا للدراسة الخاصة أو المتعة الروحية أو الغذاء الفكرى ، تشـل تفكيره الخـاص ، وتعوق انطلاق فيض أفكاره ، وتحدد من اتساع خياله .

ان التأليف عمل يسـتغرق من الكاتب كل الوقت . انه الهـدف الاساسي والعمل الرئيسي للكاتب طوال حياته ، وبمعنى آخر ، ينبغى أن يكون الكاتب محترفا لمهنة الكتابة ، وهو سعيد محظوظ لو كانت لهثروة خاصة تجنبه الاحتياج الى أرباحه من الادب ، ولكن هذا لايمنعه من أن يكون كاتبا محترفا ، فان «سويفت ، وورد زورث» بثروتهما الطائلتين كانا كاتبين محترفين تماما كبلزاك ، وديكنز .

- ٤٤ -

من المسلم به ان اتقان قواعد فن الرسم والتلحين الموسيقى يستلزم جهدا بالغا وصبرا طويلا ، وأن انتاج الهواة اما أن يقابل بابتسامة مجاملة ومرح أو بنظرة احتقار ونحن جميعا نهنىء أنفسنا لأن الراديو وملحقاته قد انقذتنا من هواة الطرب والعزف على البيانو . وأن اتقان أصول فن الكتابة لاتقل صعوبة ومشقة عن اتقان غيرها من الفنون ولكن بعضالناس يظنون أن فى مقدورهم تأليف كتاب كامل لانهم يحسـنون القراءة وكتابة الرسائل الخاصة .

ويبدو أن الكتابة قد أصبحت الآن ملهاة الجنس البشرى فى هـذا العصر ، فان أفـرادا كثيرين من الاسرات يحـاولون احتراف التـأليف والكتابة كما كان أسلافهم من قبل يعتنقون بالجملة مذهبا دينيا معينا . ان النساء يكتبن الآن الروايات ليشغلن أنفسهن فى أثناء فترات الحمل . وكذلك يفعل السادة الأعيان الملولون ، والضباط المحالون الى الاسـتيداع ورجال الحكومة المحالون الى المعاش .. كلهم يلجئون الى القلم كما يلجأ الرجل الملول الى الشراب . وثمة يقين منتشر فى كثير من الاقطار بأن فى كل انسان القدرة على تأليف كتاب واحد .. ولكن .. هل المسألة هى مجرد تأليف كتاب أيا كان ، حقا ان بعض الهواة قد ينتجون كتبا قيمة . وقد يتصادف أن تكون للهاوى المقدرة على الكتابة بسهولة ، وقد تكون له بعض التجارب المثيرة للاهتمام ، أو قـد تكون له شخصية جذابة لطيفة تفتح له الطريق الى المطبعة ، ولكن عليه أن يذكر أن اليقين السائد هو أن فى كل انسان القدرة على تأليف كتاب واحد ، ولم يذكر هذا اليقين شيئا عن الكتاب الثانى . ويحسن بالهاوى ألا يحاول الاعتماد على حظه مرة أخرى ، فان كتابه الثانى سيكون تافه القيمة حتما .

ذلك أن من أهم الفوارق بين الكاتب الهاوى والآخر المحترف ، أن للاخير القدرة على التقدم ، فان آداب احدى الامم لاتتكون من عدد قليل من الكتب الجيدة ، كما سبق أن ذكرت ، وانما من مجموعات ضخمة من

روائع الكتب ، وهذه لاينتجها الا كتاب محترفون . ان آداب هذه الامم التى يتكون معظمها من انتاج الادباء الهواة تعتبر سطحية تافهة بالنسبة لآداب الأمم الأخرى التى يسكب فيها كتابها العرق والدموع ، ويبذلون الجهد الجهيد : ليلتمسوا أرزاقهم من الكتابة والتأليف . ان انتاج الكتاب المحترفين : هو نتيجة عمل متواصل . وجهد بالغ ، وصبر طويل ، ذلك ان المؤلف ــ كأى شخص آخر ــ يتعلم من محاولاته وتجاربه وأخطائه . أن مؤلفاته الأولى تكون عادة كالتجارب فهو يحاول الكتابة فى مختلف الموضوعات ، ويجرب مختلف الأساليب ، وفى الوقت نفسه ينمى شخصيته ويستكمل مقومات ذاتيته ككاتب. انه بالتطور المجهد والتجارب المرهقة، يكتشف نفسه أخيرا ، وعندئذ يتعلم كيف يستفيد من هذا الاكتشاف ، وكيف يحسن استغلاله ، ثم اذا هو يصبح قادرا ــ بعد أن استكمل مواهبه واستنضج تجاربه ــ على انتاج أحسن ما فى امكانياته وأفضل ما فى وسعه . ولما كانت الكتابة مهنة صحية ؛ فمن المرجح أنه ــ أى الكاتب المستكمل المقومات ــ سيعيش طويلا ، وينتج كتبا كثيرة ، ولكنها غير ذات قيمة بعد أن اصبحت الكتابة عادة رتيبة له . وقد يهمل القراء أمربعض هذه الكتب ، لان قليلا من الكتب التى ينتجها الكاتب طول حياته ، تعتبر فى نظر القراء ، ذات أهمية خاصة ، وهذه الكتب القليلة ذات الاهمية الخاصة لن تكون الإ نتيجة عمل متواصل ، وتجارب عدة ، ومحاولات متنوعة ، وتعلم من الفشل . وهذا كله لايتأتى الا اذا جعل من الادب مهنة الحياة ، وجعل من نفسه كاتبا محترفا .

- ٤٥ -

لقد تحدثت عن مساوىء مهنة الأدب ، وأرى أن أتحدث الآن عن أخطارها :

الواضح انه ليس فى وسع الكاتب المحترف أن يمتنع عن الكتابة حتى يشعر بالرغبة فيها . فهو اذا انتظر حتى يحس بهذه الرغبة ، أو حتى يهبط عليه الوحى ، فانه سينتظر الى ما لا نهاية ، وينتهى الى انتاج شىء قليل أو لاشىء اطلاقا . ان الكاتب المحترف يخلق الجو المناسب للكتابة ، وان له وحيا والهاما أيضا ، ولكنه يعرف كيف يسيطر عليه ويخضعه لرغباته عندما يعود نفسه تخصيص ساعات معينة منتظمة للكتابة كل يوم . ولكن ، على مر الايام تصبح الكتابة عادة ، وكما أن الممثل القديم المعتزل يشعر بالقلق واللهفة عندما تحل الساعات التى كان يعتلى فيها خشبة المسرح ليقوم بدوره المسائى ، فكذلك يشعر الكاتب بمثل هذه اللهفة الى قلمه وأوراقه حين تحل الساعات التى تعود أن يجلس فيها للكتابة . وهو فى هذه الحالة يكتب بطريقة آلية ، فتنثال الكلمات من قلمه بسهولة وبساطة والكلمات تولد الافكار . انها حقا أفكار قديمة ، فارغة ، ولكنها بقلمه المحترف البارع ، تتحول الى قطعة أدبية مقروءة . ثم يمضى الى طعام الغداء أو العشاء أو الى الفراش وهو يشعر أنه أدى فى يومه عملا طيبا . أن كل انتاج الفنان ينبغى أن يكون تعبيرا عن مقامرة

روحية . وأن هذا اللون من الوان السعي الى الكمال في عالم ليس متكاملا لجدير بأن يدفع الناس الى احاطة الكاتب المحترف بهالة من التقدير والاعجاب . ولاشك أن هذا الاعجاب وهذا التقدير من بين الاهداف التى يضعها الكاتب نصب عينيه ، ولكنه ، مع هذا ، يكتب ليحرر روحه من موضوع ظل يختمر فى حنايا عقله ومشاعره طويلا ، واذا أراد جادة الصواب ، فيحسن به أن يكتب فقط من أجل احساسه بالسكينة والهدوء ولعل أبسط وسيلة للترويح من عادة الكتابة هى تغيير المواعيد والجو الذى يشتغل فيه كل يوم ، فأنت لاتستطيع أن تكثر الكتابة أو تجيدها « ومن رأيي أن الاجادة مرتبطة ، بالاكثار » الا اذا تعودتها ولكن عادة الكتابة – كأية عادة فى الحياة – يجب تغييرها بين الحين والآخر قبل أن تصبح غير ذات نفع .

ولكن الخطر الاكبر الذى يهدد الكاتب هو – للاسف – الخطر الذى لم يحترس منه غير القليل .. انه خطر النجاح . انه من أشد الاخطار التى يواجهها الكاتب ، فانه بعد الجهاد العنيف والعرق والدم ، يجد أن النجاح الذى دان له ، ينطوى على فخ رهيب لاصطياده والقضاء عليه . وقليل منا – نحن الكتاب – الذين أستطاعوا بقوة الارادة أن يتجنبوا مهالكه . فمن الواجب أن يقاومه الكاتب بالقوة والعزم ، وان الرأى الشائع عن ان النجاح يجعل صاحبه تافها ، فارغا ، أنانيا ، متعجرفا ، ليس هو الراى الصواب ، بل العكس هو الصحيح . ان النجاح – فى معظم الأحوال – يجعل صاحبه متواضعا ، شفيقا ، واسع الصدر ، والفشل هو الذى يملأ القلب بالمرارة والقسوة . فالنجاح يحسن أخلاق الرجل ، ولكن ليس حتما أن يحسن أخلاق المؤلف ، ذلك أنه من المحتمل جدا أن ينتزع منه هذه القوة الحافزة التى دفعت به الى النجاح . لقد تكونت شخصيته من تجاربه ومن كفاحه ، ومن كبت آماله ، ومن محاولاته لملاءمة فنه مع العالم ، ومثل هذه الشخصية لا بد أن تكون شديدة القوة اذا لم تسكرها خمرة النجاح .

والنجاح مع هذا يحمل فى طياته بذور الفشل والهلاك ، ذلك لانه – من المحتمل جدا – أن يقطع صلة الكاتب بالمواد الخام التى أدت اليه – انه بعد النجاح ، يقتحم عالما اجتماعيا جديدا . انه يصبح نجما متألقا . انه يحتاج الى قوة روحية هائلة ، وارادة عارمة لكى يحتفظ بتوازنه وثباته أمام أكاليل المديح التى تضفيها عليه نجوم المجتمع من كتاب وفنانين وكبراء ، ونساء جميلات . انه بعد هذا يتعود لونا جديدا من الحياة ، وهو لون على الارجح يمتاز بالرغد والترف اللذين لم يكن له بهما عهد من قبل ، كما يتعود الاتصال بأشخاص من المجتمع الراقى يختلفون عمن كان يعرفهم سابقا . وهؤلاء الاشخاص الجدد يمتازون الى حد ما باللباقة والثقافة والجاذبية الشخصية . فكيف يتسنى له أن يعيش داخل هذا الوسط بالحرية والبساطة التى كان يعيش فيهما بين الاوساط التى زودته بأسباب النجاح ؟ ان نجاحه هذا قد غيره فى نظر معارفه القدامى ، فأصبحوا لايستطيعون أن يتعاملوا معه بالحرية السابقة نفسها ، ومنهم من ينظر اليه فى حسد أو فى اعجاب ، ولكنهم جميعا لاينظرون اليه على أنه واحد منهم . وان هذا العالم الجديد الذى أدخله

فيه النجاح ، يثير خياله ويلهبه ويدفعه الى الكتابة عنه . ولكنه وهو يكتب عنه يراه من خارجه .. لانه لن يستطيع أن ينفذ بسهولة الى داخله ليصبح جزءا منه . وليس هناك أفضل مثل على هذا مما حدث للكاتب الكبير « أرنولد بينيت » ، فانه لم يستطع أن يعرف شيئا معرفة وثيقة دقيقة الا «المدن الخمس» التي فيها ولد وشب، وامتلأت حياته بالتجارب. ومن ثم لم تكن لكتابته أية قيمة كبيرة الا حين يكتب عنها حتى اذا دفع به النجاح الى عالم نجوم الادب والمال والنساء الحسناوات الانيقات وحاول أن يكتب عنه .. عن هذا العالم .. جاءت تافهة .. جوفاء .. لقد حطمه النجاح .

- ٤٦ -

ان الكاتب الحكيم هو الذى يحذر النجاح ، فانه ينبغى عليه أن ينظر فى خوف واشفاق الى المطالب التى تنتظر منه نحو الغير ، والى التبعات التى ستفرض عليه ، والى ألوان النشاط والحركة التى ستعوق أعماله الادبية . ان كل مايقدمه النجاح للكاتب أمرين اثنين : الاول — وهو الاهم جدا — انه يزوده بالحرية اللازمة للاستمرار فى تحقيق أهدافه ككاتب ، والثانى انه يضاعف من شعوره بالثقة فى النفس .

ان الكاتب ، برغم كل مايتظاهر به من رضا بنفسه واعجاب بكفايته لايسعه وهو يقارن بين انتاجه العقلى ، وبين الانتاج الذى يهفو اليه، الا الشعور بالريبة والضعف ، فان الفارق الكبير جدا بين مايراه الانسان بعين خياله وبين أفضل مايمكنه انتاجه ، ليجعله يشعر أنه لايبرز مما يزخر به ذهنه من روائع الا الشىء اليسير الضحل . انه قد يبتهج بصفحة هنا أو هناك ، أو بجمال رسمه لشخصية ما فى بعض كتبه ، ولكني أعتقد انه قلما ينظر الى أى كتاب فى مجموعه نظرة الرضا التام ، فهو عادة يحس احساسا غامضا بأنه ليس جيدا على الاطلاق ، وان ثناء القراء عليه حتى لو ارتاب فى قيمته ، ليس الا نجدة من السماء .

وهذا هو السبب فى أهمية الثناء بالنسبة له . انه يخفف من شعوره بالضعف والريبة الذاتية . على أن حب الفنان للثناء ، فى ذاته ، لون من الضعف أيضا ، ولكنه الضعف الذى تلتمس له الاعذار ، وذلك أن الفنان الحق ينبغى ألا يحفل كثيرا بالثناء أو بالذم مادام يهتم فقط بعلاقة عمله بالنسبة اليه ، وبأثر هذا العمل فى الناس ، وبقيمة هذا العمل من الوجهة الروحية ، لا المادية . ان الفنان ينتج ليحرر روحه من ثقل ماتزخر به من أفكار وموضوعات . ان عملية الخلق الفني طبيعية فيه ، كما أن من طبيعة الماء الجريان من أعلى الجبل الى السفح . وانه لتعبير صحيح قول الفنانين : ان أعمالهم هى من « بنات أفكارهم » وان عملية « وضع » هذه الافكار على الورق أو على لوحات الرسم أو على الحجارة أو على أوتار المعازف ، لاتقل فى أهميتها عن عملية « وضع » الحامل للجنين . ان الفكرة فى نموها تكون كخلية عضوية ، ولا أعنى نموها فى العقل فحسب ، وانما فى القلب وفى الاعصاب وفى حنايا الصدر . انها شىء تبلوره مواهبهم

الخـالقة من تجارب الروح والجسم ، ويظل هـذا الشيء ينمو ويختمر ويثقل حتى لايبقى مفر من التخلص منه ، فاذا تم هذا ، خامرهم الشعور البهيج بالحرية والخلاص ، وأحسوا فجأة بمتعة الراحة وسكينة النفس، ولكنهم ، بعكس الامهات ، يفقدون بسرعة اهتمامهم « بنات افكارهم » بعد خروجها الى حيز الوجود . انها ، أى هذه الافكار ، لم تعد بعد جزءا من كيانهم ... لقد أدت الفرض منها ، واستنفدته ، وأصبحت عقولهم وأرواحهم متفتحة لعملية خلق جديدة .

ان المؤلف بانتاجه وخلقه ، يحقق ذاتيته ، وهذا التحقيق فى ذاته ليست له قيمة خاصة لاى شخص آخر ، فان قارىء الكتاب ، أو متأمل الصورة ، لاتعنيه مشاعر الفنان الخاصة ان هدف الفنان هو التحرر من عبء أفكاره أو « بنات أفكاره » ولكن هدف القارىء هى الصلة الروحية بينه وبين الفنان ومدى مافيها من فائدة له . أما هذه الصلة بالنسـبة للفنان فهى مسألة ثانوية . وأنا لاأتحدث الآن عن الفنانين الهـادفين ، أعنى الذين يكرسون فنهم للوعظ والارشـاد . ان هؤلاء مجـرد دعاة ــ رجال دعاية ــ والفن بالنسبة اليهم مسألة ثانوية . ان عملية الخلق الفنى هى نشاط ذاتى محدود يستنفد اغراضه عن طريق الحركة والتفاعل وقد يكون الانتاج الناشىء عن هذه العملية جيدا أو رديئـا ، فان هـذا مايقرره الجمهور . انه يكون رأيه بالفائدة الشخصية التى يستمدها من هذا الانتاج ، فاذا وجد أنه أى الانتاج الفنى قد أتاح له فرصة الهرب من الواقع ، فانه سيرحب به ، ولكنه ، على أحسن الفروض ، لن يصفه الا بأنه فن من الدرجة الثانية ، اما اذا أمتع روحـه وأثـراها وضخم من شخصيته ، فانه سيعتبره من الفنون الرائعة . ولكنى أصر على أن هذا لايعنى شيئا بالنسبة للفنان . حقا لن يكون انسانا من بنى البشر اذا لم يشعر بالبهجة حين يعلم انه أبهج غـيره أو أفاده . ولكن ينبغى عليه الا يحزن أو يقلق اذا رأى أن انتاله لم يحقق رغباتهم ، حسب ماظفر به من متعة ارضاء رغباته الفنية الخالقة . وليس هناك من يبغى من الفنان أن يصل الى الكمال فى قفزة واحدة ، وانما الامر الطبيعى المعقول هو أن الفنان يستهدف من انتاجه الفنى الوصول فى النهاية الى درجة الكمال التى قل أن يصل اليها أحد ــ فاذا كان روائيا ، فانه يستغل تجاربه مع الناس والاماكن ، ومخاوفه وارتيابه فى فنه وحبه وبغضه ، وأعماق أفكاره ، ونزواته وآماله العابرة ، ليرسم صورة قلمية بعـد الاخـرى من صـور الحياة . أن هذه الصور لن تكون أبدا أكثر من جزئية ، ولكن ، اذا أسعده الحظ فانه قد يستطيع فى النهاية أن يرسم صورة كاملة .. عن نفسه .

ان مجرد التفكير فى هذا يوحى اليك بالعزاء وأنت تلقى بنظراتك على القوائم الطويلة التى يعلن فيها الناشرون عن كتبهم . فأنت حين تقرأ هذه القوائم الزاخرة بآلاف الكتب وتدرك أن النقاد قد أبرزوا مافيها من براعة وأصالة ، وجمال ، فانك تشعر كأن قلبك قد هوى الى قدميك . فأيـة فرصة بقيت لك للدخول فى معمعة هؤلاء العبـاقرة . لسـوف يخبرك الناشرون أن معـدل عمر الرواية هو تسعون يوما ، وأنه من الصعب أن تعد نفسك لقبول هذه الحقيقة . حقيقة مابذلت فى الكتاب من جهـد ، وما وضعت فيه من روحك ونفسك ، وما أنفقت فى كتابته من شهور عدة،

ثم اذا كل هذا يقرأ فى ثلاث أو أربع ساعات ، ثم ينسى بعد فترة وجيزة قد لاتصل الى الاشهر الثلاثة . انه لايوجد مؤلف يستطيع أن يمنع نفسه من الشعور بالامل ، مهما يكن بسيطا ، ومهما يكن عدم جدوى هذاالشعور فى أن جزءا — على الأقل — من مجموع انتاجه : سوف يعيش جيلا أو جيلين .

ان الايمان بالشهرة الخالدة لون من الغرور البرىء الذى طالماخفف عن الفنان أحساسه بالضيق وبالشعور بالفشل فى حيـــاته الخاصة . ونستطيع أن ندرك استحالة الظفر بالشهرة الخالدة أو صعوبته على الاقل اذا نظرنا الى أعمال الكتاب الذين كانوا — منذ عشرين سنة — واثقين من خلود ذكراهم ، فأين هم قراؤهم الآن ، ان ضخامة اعـداد الكتب التى تنتجها المطابع كل يوم فى أنحاء العالم والمنافسة المستمرة بين الكتب التى تمكنت من الحياة أجيالا ليجعلان فى حـكم المستحيل تقريبـا أن تعود الكتب التى عفى عليها النسيان الى عالم الذكر . وثمة أمر عجيب ، أو غير عادل ، فى موضوع خلود الذكر هذا : فان « آلهـة الخلود » — كمـا يبدو — تقصر اختيارهم على بعض انتاج الكتاب المشهورين فى حياتهم ؛ أما الكتاب الذين يفرحون بمجرد نشر كتبهم دون أن يبلغوا نطاق جماهير القراء الواسع ، فان « آلهة الخلود » لاتسمع بهم ولاتعرف عنهم شيئا ، ولعل فى هذا العزاء لكبار الكتاب المشهورين الذين يحـاول الكثيرون أن يوهموهم بأن شهرتهم دليل على تفاهتهم . ولعل فى هذا أيضا الدليل على أن « شكسبير » و «سكوت» و «بلزاك» لم يكتبوا فقط من اجل المال ؛ كما يقول الفيلسوف الذى يكره الكتابة من أجل المال ، وانما كتبوا من أجل خلود الذكر ، أن الامان الوحيد للكاتب هو أن يجـد الرضا فى انتاجـه الخاص . فاذا استطاع أن يتحقق من أن عملية تحرير روحه وذهنه من الافكار الناضجة ، ومن أن عرض هذه الافكار وابرازها بالطريقـة التى تتفق مع مواهبه الذاتية ، قد أبهجاه وأرضياه ، فليثق بأنه نال الجزء المنشود ، وأن من حقه ألا يحفل كثيرا بآراء الغير عنه .

— ٤٧ —

ان كل مساوىء ومخاطر مهنة الادب يمكن أن توازن وتعادل بميزة رائعة فى مقدورها أن تجعل كل المصاعب والاستياءات وربما العقبات ، غير ذات قيمة ، ان هذه الميزة تتيح له الشعور بالحرية الروحيـة . ان الحياة بالنسبة اليه مأساة ، وهو بمواهبه الخالقة يستمتع بمرارة الرثاء والخوف التى قال أرسطو عنها — انها أساس الفن . ان خطاياه وحماقاته والوان الشقاء التى تقع عليه ، والحب المرفوض من الجانب الآخر ، وعيوبه الجثمانية وأمراضه ، وحرمانه ، وآماله التى تهاوت كسيرة ، وأحزانه وهوانه ، كل هذا وغيره كثير ، يحوله الكاتب بمواهبه الخالقة الى خامات يستطيع بمعالجتها بالقلم أو الازميل أو الفرشاة أن يتغلب عليها ويقهرها كل شىء يمكن أن يسحق فى طاحونة ذهنه المبدع ، من لمحة عابرة لوجـه فى الطريق ، الى حرب دامية تزلزل العالم المتمدين ، ومن عطر زهرة الى

وفاة صديق لايمكن أن يحدث له شيء دون أن يحوله الى صورة أوانشودة أو قصة ، فاذا فعل هذا فقد تحرر منه ، وهكذا يمكن القول بأن الفنان هو الانسان الحر الوحيد .

ولعل هذا هو سبب ارتياب الناس فى الفنان ، فانهم لايؤمنون بأن فى امكانهم أن يثقوا به حين يتجاوب الى أقصى حد مع المشاعر العامة للناس . والواقع أن الفنان ـ لسخط الجميع وضيقهم ـ لايحس أبدا بارتباطه بالقواعد الانسانية العادية . فلماذا ينبغى عليه أن يفعل ؟ ان الهدف الاساسى لتفكير الناس وتصرفاتهم هوالرغبة فى تحقيق احتياجاتهم والمحافظة على كيانهم ، أما الفنان فانه يحقق مطالبه ورغباته ، ويحافظ على كيانه بمواصلة أعماله الفنية ، ان حياتهم الماضية هى من صنع اهتمامه الشديد ، ومن ثم فلا يمكن أن يكون موقفه من الحياة كموقفهم . انه يخلق مقوماته الخاصة ، وهم يحسبونه مستهترا ، لانه لايحفل كثيرا بالفضائل ، ولا يشمئز من الرذائل ، التى تحركهم وتلون حياتهم . انه فى الواقع ليس مستهترا ، لانه لايشعر باهمية خاصة لما يسمونه فضائل أو رذائل . انها فى نظره مجرد عناصر مختلفة فى محيط الاشياء التى ينشىء منها حريته الذاتية . وبطبيعة الحال يشعر الناس العاديون بالسخط عليه ، ولكن هذا لايؤثر عليه بل لايفيده ، لانه غير قابل للاصلاح .

- ٤٨ -

بعد أن ظفرت بالنجاح والشهرة كمؤلف مسرحى ، قررت أن أكرس حياتى للتأليف المسرحى ، وكنت حين ذاك سعيدا ، موفور المال ، كثير العمل ، زاخر الرأس بالمسرحيات التى أنوى كتابتها ، ولست ادرى : هل ذلك النجاح هو الذى لم يحقق لى كل ما كنت أرجو ، أم أن احساسى بأنى لم أظفر بكل ما ارجو هو رد فعل لهذا النجاح ؟ ذلك أنى ماكدت أصبح كاتبا مسرحيا مشهورا راسخ المكانة ، حتى بدأت ذكريات ماضى حياتى تستبد بى ، فشرعت أذكر بوضوح وفاة أمى ، وحرمانى من الحياة فى محيط أسرة مكونة من أب وأم واخوة ، وشقائى فى السنوات المدرسية الأولى التى لم يؤهلنى لها كما ينبغى تعود لسانى اللغة الفرنسية منذ الصغر ، هذا فضلا عن تأتأتى فى الحديث ، وكذلك شرعت أذكر سرورى بتلك الايام البهيجة التى تناوبت فيها الرقابة والاثارة بمدينة هيدلبرج بالمانيا ، وعندما اقتحمت لأول مرة عالم الأدب والفكر كقارىء مثقف والثالث أمامى ذكرياتى عن تلك السنوات القليلة، الحافلة ، التى أمضيتها فى المستشفى وانفعالاتى النفسية وأنا أواجه الحياة الاجتماعية بلندن ، توالت كل هذه الذكريات على ذهنى ، ضاغطة على مشاعرى فى اليقظة ، وفى النوم ، وفى أثناء حضورى تجارب اخراج مسرحياتى ، وفى خلال وجودى بالحفلات . وقد ظل ضغطها يزداد حتى أصبحت عبئا ثقيلا على نفسى لا سبيل الى التحرر منه الا بتفريغها على الورق فى هيئة رواية . وكنت أعرف انها ستكون رواية طويلة ، وأننى سأحتاج الى التفرغ لكتابتها ، ومن ثم رفضت المزيد من العقود التى

كان أصحاب المسارح يلحون على بها ، وقررت اعتزال التأليف المسرحى الى حين .

وكتبت الرواية على هذا الأساس من فيض الذكريات ، ثم سافرت، بعد أن فرغت من دراستى الطبية نهائيا ، الى مدينة سيفيل بأسبانيا. ومن حسن حظى أن الناشر « فيشر أنوين » رفض أن يعطينى مائة الجنيه التى طلبتها أجرا عن هذه الرواية ، كما رفض أى ناشر أن يشتريها بأى ثمن . واقول من حسن الحظ لأنى لو نجحت فى نشرها لفقدت موضوعا كنت اذ ذاك أصغر من أن أستفيد منه كما ينبغى ، ولاتزال الأصول الخطية للرواية موجودة ، ولكنى لم أنظر اليها منذ فرغت من مراجعة نسخها على الآلة الكاتبة ، ولا أشك فى انها أبعد ماتكون عن النضج ذلك انى لم أكن اذ ذاك على بعد كاف من تلك الذكريات والأحداث التى وصفتها لأراها كما ينبغى ، كما انى لم أكن قد تزودت بعد بالتجارب التى جعلت للرواية قيمتها الفنية بعد أن أعدت كتابتها فيما بعد ، ويبدو لى أنه اذا كانت كتابة هذه الرواية الأولى لم تضغط تماما فى عقلى الباطن الاحداث والذكريات الأليمة التى تتناولها ، فانما يرجع ذلك الى أن الكاتب لا يتحرر نهائيا من الموضوع المختمر فى مشاعره حتى يراه منشورا ، فاذا نشره على الناس ، أيا كان رأى الناس فيه — فقد انقطعت علاقته به ، وتحرر من عبئه نهائيا . وقد أطلقت على هذه الرواية الأولى اسم «جمال من الرماد» ولكنى حين وجدت أن هذا العنوان صدرت به رواية أخرى غيرته الى عنوان آخر اقتبسته من معجم بلدان اسبينوزا فسميتها « عن الروابط الانسانية » . وليست هذه الرواية مجرد تاريخ سيرة ، وانما هى تاريخ روائى لسيرة امتزجت فيها الحقيقة بالخيال ، فالعواطف والانفعالات التى تضمنتها من الحقائق ، ولكن بعض أحداثها التى وقعت فى حياة بطلها لم تكن من أحداث حياتى الشخصية ، وانما من أحداث حياة بعض الأشخاص الذين كنت على صلة وثيقة بهم . وقد أدت الرواية الغرض الذى استهدفته ، وعندما أصدرتها فى عالم ممزق بالحرب العالمية الأولى « وقد كان عالما مشغولا بآلامه وعذابه عن الاهتمام بالمغامرات الخيالية لبطل الرواية » أحسست أنى تخلصت نهائيا من أعباء تلك الذكريات الاليمة . لقد أفرغت فيها كل ما كانت تنوء به نفسى اذ ذاك ، وبعد أن انتهيت منها أعددت نفسى للبدء من جديد .

لقد أحسست بالملل .. لا من الناس والأفكار التى شغلتنى طويلا فحسب ، وانما من الأشخاص الذين كنت أعيش معهم ، ومن لون الحياة التى كنت أحياها . لقد شعرت بانى ظفرت بكل ما يمكن أن أظفر به من الوسط الذى كنت أعيش فيه . ظفرت بالنجاح كمؤلف مسرحى ، وبألوان الترف التى حققها هذا النجاح ، وبالحياة الاجتماعية الراقية ، وبالمآدب والحفلات فى بيوت الكبراء والعظماء ، وبالحفلات الراقصة

الأنيقة ، وبعطلات نهاية الأسبوع فى القصـور الريفية ، وبصحبة الشخصيات البارعة المتألقة ، وبالكتاب والمصورين والممثلين ، وبأحداث الحب والغرام وبصحبة الأصدقاء ، وببهجة الحيـاة الآمنة المضمونة الرزق . ولكن جو هذه الحياة بكل ما فيها كان يثقل على ويثير فى نفسى الاحساس بالاختناق ، وبالرغبة الملحة فى البحث عن ألوان أخرى من الحياة ، وصفوف جديدة من التجارب . ولكنى لم أكن اعرف الى أين أمضى ، وفكرت فى الرحيل ، فقد كنت شديد الملل من نفسى ومن حياتى. وخطر لى أن القيام برحلة طويلة الى قطر بعيد قد يجدد نفسى ويطرد منها كل احساس بالضجر ، وكانت روسيا اذ ذاك تشغل اذهان الجميع، فخطر لى أن أمضى فيها عاما أتقن خلاله اللغة الروسية التى كنت قد ألممت بمبادئها ، وأغرق نفسى فى عواطف تلك البلاد الواسعة واسرارها وخفاياها . وبدا لى أنى قد أجد فيها ما يجدد روحى ويثرى مشاعرى . وكنت فى الأربعين من عمرى ، فاذا قررت الزواج وانجاب الأطفال ، فقد بلغت السن التى ينبغى فيها أن أفعل هذا جديا ، ومن ثم رحت اداعب هذا الخاطر متخيلا انى فى مختلف صور الحياة الزوجية . ولم تكن هناك واحدة معينة أبغى الزواج منها ، ان فكرة الزواج نفسها هى التى كانت تغرينى . انها كما بدت لى ، خط أساسى فى صورة الحياة التى كنت قد رسمتها لنفسى ، وملاذ أستريح فيه من متاعب الغرام الذى يبدأ عادة ــ رقيقا هينـا ثم ينتهى بألوان لا حصر لهـا من المتـاعب والتعقيدات فان الحب يحتاج الى طرفين : رجل وامرأة ، ويبدو أن لحم الرجـل يكون عادة ، سما للمـرأة ، كنت فى حاجة الى جو من السكينة والهدوء أستطيع فيه ان أكتب كل ما أريد كتابته دون أن أضيع أوقاتا ثمينة أو أشغل فكرى بالتفاهات . كنت أريد الهدوء والسلام والاستقرار فى حياة محترمة ، وكنت أبحث عن الحـرية ، وظننت أنى سأجدها فى الزواج ، لقد خطرت لى كل هذه الأفكار وكنت لا أزال مشغولا بكتابة روايتى « عن الروابط الانسانية » وهكذا حولت هذه الخواطر أو الرغبات ، الى خيـال قصصى كما يفعل الـكتاب ، فرسمت فى نهايتها صورة للزواج الذى أرجوه ، ولكن القراء بوجه عام وجدوا أن هذا الجانب من الرواية هو أضعف جوانبها ، ولكن أحداثا لا قبل لى بها وضعت حدا لترددى ، انها أحداث الحرب التى اشتعلت فجأة . فانتهى باشتعالها فصل من فصول حياتى ، لتتفتح صفحات فصل جديد .

— ٥٠ —

وكان لى صديق من الوزراء ، فكتبت اليه طالبا أن يساعدنى فى القيام بعمل ما فى هذه الحرب . وكانت النتيجة أنى دعيت لتقديم نفسى الى ادارة العمليات الحربية ، ولكنى خشيت أن اكلف القيام بأعمال كتابية فى انجلترا ، ومن ثم انضممت الى وحدة الاسـعاف الطبية بالميدان الغربى وبرغم اعتقادى بأنى لا اقل وطنية عن أبناء وطنى ، فقد كانت وطنيتى ممتزجة بالانفعال المثير للتجربة المنتظرة ، ومن ثم حرصت

على أن أحتفظ بكراسة مفكرات منذ لحظة وصولى الى فرنسا ، وظللت محتفظا بها حتى ثقلت أعباء العمل ، وأصبحت فى نهاية كل يوم متعبا مرهقا بحيث لم يكن فى وسعى الا أن أهرع الى الفراش . لقد استمتعت بتلك الحياة الجديدة التى انغمرت فيها وبتخفيفى من حمل أعباء المسئوليات الشخصية ، وكان من دواعى بهجتى أنى أصبحت مجرد انسان ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، ولم أكن قد تعودت تنفيذ أوامر أحد منذ غادرت المدرسة ، وكانت بهجتى ترجع الى أنى أقوم بتنفيذ هذا الامر أو ذاك ، ثم أشعر بعد ذلك بالراحة التامة التى يشعر بها الانسان حين يؤدى عمله ويصبح حرا فى التمتع بوقت فراغه ، ولم يكن يخامرنى مثل هذا الشعور وأنا كاتب ، وانما ، على العكس ، كنت أشعر أنه ليس فى حياتى كلها دقيقة خالية أما الآن ، فانى ، بضمير مستريح، أضيع ساعات طوالا فيما احب من كسل وثرثرة ، وكنت أميل الى مقابلة الناس جماعات ، وبرغم أنى لم أكن أكتب شيئا ، فان ذاكرتى كانت تختزن تفاصيل ما يعرض لى ، ولم يحدث أبدا أنى تعرضت للخطر ، وكنت ملهوفا مشوقا الى ممارسة شعور الانسان الذى يتعرض لخطر الموت . ولكننى لم أحاول يوما الاعتراف بأنى شجاع ، ولم يكن هناك أى سبب يدعونى الى مثل هذا الاعتراف ، والمناسبة الوحيدة التى اختبرت فيها نفسى كانت فى مدينة « جراند بلاس » على نهر الأنبرز ، وكنت وقتها معتمدا على جدار ، فتحركت بضع خطوات لأشاهد أثر الدمار فى مكان قريب ، وماكدت أبتعد بضعة أمتار حتى سقطت قنبلة دمرت الجدار الذى كنت معتمدا عليه ، كما دمرت قاعة الخياطين ، وكان الجدار جزءا منها ، واعتقد أن دهشتى البالغة حينئذ طغت على كل احساس آخر .

وانضممت فيما بعد الى ادارة المخابرات السرية حيث رئى انه تمكن الاستفادة منى أكثر من مجرد قيامى بقيادة مركبة الاسعاف بالميدان ، وكان العمل فى ادارة المخابرات السرية يتجاوب مع شعورى بالميل الى المغامرة والى الغريب من الأمور ، وكانت الوسائل التى تعلمتها لتضليل أى شخص يقتفى أثرى ، وطرق المقابلات السرية مع المندوبين فى الأماكن الخفية ، وحمل الرسائل السرية بطرق خفية ، وتهريب التقارير عبر الحدود — كل هذا يبدو من لوازم العمل فى ادارة المخابرات السرية ، وان كان يبدو أيضا كأنه احداث قصة مغامرات رخيصة . أما بالنسبة لى فقد شغلنى ذلك الجو الخيالى الذى كنت أعيش فيه عن حقائق الحرب ، كما كنت أنظر اليه على انه قد يصلح فى يوم ما مادة للكتابة . ولكنى أشعر الآن أن هذا كله لا يستحق النشر بسبب سوقيته وشيوع أمره .

وانتهت مهمتى فى ادارة المخابرات السرية بعد عام فى سويسرا . وكان عملى يعرضنى لعوامل الجو المتقلبة الباردة حين أقوم برحلاتى عبر بحيرة جنيف فى جميع الأحوال الجوية ، ولم تكن بنيتى قوية ، وبدا لى أنه لم يبق ثمة ماأعمله ، فمضيت الى أمريكا حيث كانت اثنتان من مسرحياتى تعدان للاخراج على خشبة المسرح ، وكنت أريد أن أسترد سكينة النفس التى حطمتها بغبائى وغرورى فى أحداث لا داعى لأن أذكرها الآن ، ومن ثم قررت أن أمضى الى منطقة البحار الجنوبية . وكنت أهفو للذهاب الى

هذه المنطقة منذ الشباب ومنذ أن قرأت روايتى : «مد الجزر» و «الحطام» ـ وكذلك كنت أريد ، بجانب هذا ، أن أظفر بمادة لرواية جديدة كان موضوعها يختمر فى ذهنى منذ قرأت تاريخ حياة الرسام «بول جوجان».

وذهبت .. ذهبت أبحث عن الجمال ومغامرات الحب ، ذهبت لأضع المحيط الواسع بينى وبين الاضطرابات التى كانت تحز فى نفسى ، وقد عثرت على الجمال ، وعلى الحب ، ولكننى عثرت على شىء آخر لم أكن أتوقعه أبدا .. عثرت على نفس جديدة لى ، فمنذ تخرجى فى مدرسة الطب وأنا وثيق الصلة بأناس مثقفين مشغوفين بالقراءة والاطلاع ، وكنت اذ ذاك قد أيقنت أنه لا يوجد فى الدنيا كلها ما هو أهم وأعظم شأنا من الفن ، كنت أفكر فى معنى الوجود ، فلم أجد غير معنى واحد .. هو الجمال الذى يستطيع بنو البشر أن يقدموه بين الحين والآخر ، كنت أشعر أن حياتى على سطح الحياة ، منوعة مفعمة بالاثارة والانفعالات ، ولكنها فى أعماق الحياة ، ضلة ضيقة .. أما الآن .. وفى منطقة البحار الجنوبية ، فقد وجدت نفسى أدخل عالما جديدا ، واذا كل مشاعرى ككاتب روائى تنتعش وتتشرب أغاديق هذا العالم الجديد . انه لم يبهرنى فقط جمال الجزر ، فان « هيرمان ميلفيل وبيير لوتى » اللذين كتبا عنها الكثير قد أعدانى لمشاهدة هذا الجمال كله ، ولكنه مع اختلافه ، ليس أروع كثيرا من جمال بلاد اليونان أو جنوبى ايطاليا أو شمالى مصر ، وكذلك لم تثرنى كثيرا مظاهر الحياة الطريفة السهلة ، فى تلك الجزر ، وانما الذى أثارنى حقا هو أنى رحت التقى بأشخاص جدد لم يسبق لى أن التقيت بأمثالهم ، كنت كالعالم الطبيعى الذى يدخل منطقة يرى فيها نماذج وأنواعا لم تسبق له رؤيتها ، وكانت بعض هذه الشخصيات التى التقيت بها صورا طبق الأصل مما قرأت فى بعض الكتب والروايات ، وهكذا أحسست بأشد الانفعال وأنا أراها أمامى نابضة بالحياة . ولست أنسى دهشتى وأنا أرى جاثما على شجرة فى احدى جزر ارخبيل الملايو ، طائرا لم أره من قبل غير مرة واحدة فى حديقة الحيوانات بلندن ، وخطر لى لأول وهلة أنه هارب من قفصه بتلك الحديقة ، وكانت الشخصيات الأخرى جديدة ، وأحسست بالانفعال الذى أحس به العالم دالاس وهو يدخل منطقة زاخرة بأنواع الحيوانات والنباتات الجديدة . وقد وجدت أن معظم السكان طيبون ومن السهل التعامل معهم ، وكانوا من جميع الاشكال والالوان ، ولولا قوة ملاحظتى التى تهيأت لى بالمرانة ، لأخذتنى الحيرة وأنا أرى كل هؤلاء الاجناس فى منطقة واحدة ، ولكننى استطعت فى غير مشقة ، أن اتعرف على جنسية كل من ألتقى به وأتبادل معه الحديث ، وكان القليلون منهم مثقفين .. تعلموا الحياة فى مدرسة تختلف عن مدرستى . وهكذا اختلفت آراؤهم واستنتاجاتهم عن مثيلاتها عندى ، ولست أستطيع الزعم ان آرائى أرفع وأسمى ، ومع اختلاف الآراء فى النظرة الى الحياة ، فقد اختلفت صور الحياة بيننا أيضا ، واذا نظرت الى حياتهم فى غير تحيز ، وجدت انها شكلت فى صورة لا تخلو من جمال ونظام وترابط .

وخرجت من عالمى الضيق .. هبطت من القاعدة التى كنت أقف

فيها كالتمثال .. وبدأت أتلفت فى هذا العالم الجديد .. وبدا لى أن سكانه يتمتعون بحيوية لم يسبق أن رأيت مثلها . حقا ان حيويتهم هذه لاتتألق بلهب كالمنبعث من الجواهر ، ولكن حرارتها ذات سحب من الدخان والشرر ، أن تفكيرهم ضيق ، وهم متزمتون فى تقاليدهم ، أغبياء عادة ، مثيرون للملل . ولكنى لم أحفل بهذا وانما حفلت فقط باختلافهم عنى . ان تصرفات الناس فى المجتمعات المتحضرة تتشكل طبقا لقواعد معينة من السلوك . والثقافة عندهم هى قناع يخفى تحته حقائقهم . أما هنا ، فان الناس يبدون على سجيتهم .. على الطبيعة . هؤلاء الناس المختلفو الاجناس وجدوا أنفسهم فى غمار حياة لاتزال تحتفظ بالكثير من بدائيتها ، فليس بهم حاجة لان يطوروا انفسهم ويشكلوها فى قوالب متعارف عليها ، لقد أتيحت لخصائصهم الفرصة للنمو بغير عوائق أو كبت . وفى المدن الكبيرة ترى الناس كأنهم مجموعة من الحجارة تمتلىء بها غرارة كبيرة .. ان جوانب هذه الاحجار الخشنة ظلت ، مع الاحتكاك ، تصقل حتى أصبحت ناعمة الملمس ، أما أهل هذه المناطق الطبيعية الواسعة فان جوانبهم الخشنة لم تحتك بعضها ببعض لتصقل . انهم فى نظرى أقرب مايكونون الى عناصر الطبيعة البشرية من أى أناس آخرين عشت معهم طويلا . وأعترف أن مشاعرى مالت اليهم بقوة كما كانت تميل الى أولئك المرضى الذين كانوا ينثالون على العيادة الخارجية بمستشفى سانت توماس وملأت كراسات مذكراتى بأوصاف سريعة موجزة عن مظهرهم ، وأخلاقهم وشخصياتهم ، ثم اذا خيالى بعد هذا ينشط ويتألق بكل هذا الذى رأيت ولمست بحيث كانت تكفى الاشارة أو العبارة أو البسمة أو الحادث البسيط لان يملأ رأسى بألوان من القصص التى تدور بقوة ووضوح حولهم .

- ٥١ -

وعدت الى أمريكا .. ثم مالبثت ان ارسلت فى مهمة خاصة الى بتروجراد ، وقد ترددت فى قبول هذا المنصب الذى كنت أرى أنه يحتاج الى كفاية خاصة ليست لى ، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك من يحل محلى فى ذلك الحين ، كما أن مهنتى ككاتب كانت خير ستار يخفى حقيقة المهمة التى كلفت أداءها ، وكانت صحتى على غير ماينبغى ، وكنت أعرف بحكم دراستى السابقة للطب ، أن حالات النزيف الرئوى التى كانت تنتابنى تنذر بالخطر ، وكان الفحص بالاشعة قد أثبت بوضوح أنى مصاب بداء السل ، ولكنى لم أستطع أن أضيع فرصة الحياة فترة ما فى بلد « تولستوى » ، وديستوفيسكى ، وتشيكوف وكان يخامرنى الشعور بأنى أستطيع فى أوقات الفراغ التى تتيحها مهمتى السرية ، أن أظفر بمايفيدنى فى أعمالى الادبية ، وهكذا تظاهرت بالتعصب الوطنى ، وأخبرت الطبيب المعالج بأنى لن أتعرض لمخاطر صحية فى أثناء قيامى بهذه المهمة . وسافرت بروح معنوية عالية ومعى من المال كل ماأريد ، وفى صحبتى أربعة من التشيكيين ليكونوا حلقة اتصال بينى وبين الرئيس مازاريك الذى كان تحت امرته ، فى جوانب مختلفة فى بروسيا ، نحو ستين ألفا من

مواطنيه. وكنت منتشيا بعبء مسئولية مركزى ، ذلك انى ذهبت كمندوب خاص ، لاعلاقة له بأحد ، ويمكن أن ينكرنى الجميع عند الضرورة ، ومزودا بالتعليمات التى تحتم على الاتصال بمختلف العناصر المعـــادية للدول المتحالفة ، ووضع خطة مناسبة لمنع روسيا من الخروج من مآزق الحرب ، والحيلولة دون وصول البلاشفة ، الذين كانت ألمانيا تؤازرهم الى الحكم . ولست فى حاجة لان أخبر القارىء أنى فى هذه المهمة ، فشلت فشـــلا ذريعا ، ولن أحاول أن أطلب منه أن يصدقنى اذا قررت انه كان من المحتمل جدا أن أنجح لو أنى أرسلت فى هذه المهمة قبل ستة اشهر ، ذلك ان الثورة البلشفية لم تلبث أن اشتعلت بعد وصولى الى بتروجراد بثلاثة أشهر ، وهكذا انتهت مهمتى بالفشل .

وعدت الى انجلترا ، وكانت فى جعبتى ألوان من التجارب المتعددة ، من بينها معرفتى الوثيقة بواحد من أعجب وأغرب الرجال الذين عرفتهم فى حياتى ، أنه بوريس سافنكوف ، الارهابى الذى اغتال تريبوف ، والدوق الكبير سيرجيوس ، ولكننى ، على أية حال ، عدت ممرور النفس مخدوعا بما رأيت عما كنت أسمع . لقد أسقم نفسى وملأها بالنفور من روسيا والروسيين مارأيته من بلادة مدمرة ، ومن احتجاجات جـوفاء ، ومن خيانات شائعة ، واستهتار منتشر ، وكذلك عدت مريضا حقا .. ذلك أننى ، بحكم مهمتى السرية ، لم يكن فى وسعى أن أنعم بالامتيازات الدبلوماسية التى تتيح لرجال السفارات الاجنبية فى روسيا أن يستوردوا وأن يظفروا بما يشاءون من ألوان الطعام ، وانما كان على أن أعيش كأى روسى عادى .. على كميات من الطعام ضئيلة محدودة لا تسمن ولاتغنى من جوع ، وعندما وصلت الى ستوكهلم بالسويد حيث قضيت يوما فى انتظار المدمرة التى ستقلنى عبر بحر الشمال الى انجلترا ، دخلت مخبز حلوى واشتريت رطل شيكولاتة ، ورحت آكلها على قارعة الطريق، وقد صرفت الحكومة النظر عن مشروع ارسالى الى رومانيا للاشتراك فى مؤامرة بولندية ، ولست أذكر الآن تفاصيلها لأدونها ، ولم أشـــعر بالاسف على هذا ، لان السعال كان يجهدنى باستمرار ، وكانت الحمى تشيع الاضطراب فى نومى ، وذهبت لاستشارة أحد الاخصائيين فى لندن . فما كان منه الا أن ارسلنى الى مصحة للامراض الصدرية فى شمالى اسكتلاندا ، فقد كانت مصحتا دافوس وسانت موريس غـير معدتين لاستقبال المرضى فى هذا اليوم . وقد أمضيت عامين ضريح الفراش .

وكانت تلك فترة رائعة .. فقد اكتشفت لاول مرة فى حياتى متعة الحياة الرخية فى الفراش انه مما يثير الدهشـــة تنوع الحياة فى أثناء الرقاد . وكثرة ما يستطيع المريض أن يشغل به نفسه ، فقد كنت مبتهجا بغرفتى الخاصة ونافذتها العريضة المفتوحة ، لقد أتاحت لى احساســا بالوحدة والانفراد والحرية ، وكان السكون رائعا جذابا .. تشـيع فى رحابته اللانهائية مشاعر الرضا ، وتنطلق فيه روحى وحدها مع النجوم الى مغامرات فكرية مدهشة . ولم يسبق أن كان خيالى على مثل هـذه الطلاقة والرحابة .. كان كالسفينة التى تدفع بها ريح منعشة ،مستمرة. أما الايام الرتيبة ، فكنت أتغلب عليها بالقراءة ، وبالتأمل .

وغادرت فراشي جد آسف ·

لقد بدا العالم لى جديدا وأنا أندمج فيه ، بعد أن تحسنت صحتى ، وصرت أعيش جزءا من اليوم مع زملائي المرضى ، وكان بعضهم ،يشبهون فى انطوائهم ــ لا سيما بعد قضاء سنوات عدة فى المصـــحة ــ بعض الشخصيات التى التقيت بها فى أرخبيل الملايو ، فقد أثر المرض وحيـاة المصحة المنعزلة فى نفوسهم بطريقة عجيبة ، فاذا هذه النفوس تلتوى حينا ، وتقوى حينا ، وتتحلل أحيانا كما تتحلل الطبيعة بجزيرة تاهيتى أو ساموريا فى هدوء ، ولكنها تعود فتقوى أو تلتوى حين تتأثر بجـــو الشمال ، وبالبيئة المحيطة بهم ، وأعتقد أنى عرفت عن الطبائع البشرية أشياء كثيرة لم يكن فى وسعى أن أعرفها لولا اقامتى فى هذه المصحة ·

- ٥٢ -

عندما استرددت كامل صحتى ، كانت الحرب العالمية الاولى قـــد انتهت ، فذهبت الى الصين ، ذهبت يخامرنى شعور الرحـــالة المهتم بالفنون " المشوق الى معرفة كل مايمكن عن أخلاق وعادات وتقاليد شعب يمتاز بحضارة قديمة رائعة · وكذلك ذهبت وأنا أرجو أيضا أن أتعرف بألوان مختلفة من الناس حتى تتسع تجاربى وتتلون . وهذا مافعلت . لقد ملأت كراسات مفكراتى بأوصاف الاماكن والشخصيات ومواضـــع القصص التى توحى بها . وبدأت أتثبت منالفوائد الادبية والروحيةالتى أستقيها من الرحلات ، كنت من قبل أشعر بهذه الفوائد فقط وهى تنقسم الى نوعين : فائدة انطلاق نفسى بحرية الى مختلف أنحاء العـــالم ، ثم الحصول على مختلف الصور للشخصيات التى تصلح لاغراضى الادبية · وهكذا ، قمت بعد ذلك ، برحلات عدة ، وسافرت عبر عشرات البحـار ، فى عابرات المحيطات ، وفى بواخر صغيرة ، وفى سفن شحن ، سافرت بالقطار ،وبالسيارة ، وبالمقعد المحمول ، وعلى الاقدام ، أوعلى صهوات الخيول ، وكنت حريصا على أن تظل عينى مفتوحة على الشـــخصيات والعادات ، وكل طريف أو غريب ، وقد تعلمت بسرعة كيف أفطن الى ماقد أظفر به من فوائد جمة فى مكان معين ، فلا أتعجل الرحيل عنه ، وانما أتذرع بالصبر حتى أظفر به ، فاذا لم يكن يبشر بأية فائدة تجاوزته بسرعة ، وكنت أتقبل كل تجربة تعترض طريقى ، وكثيرا ماحرصتعلى أن أرحل فى ترف بقدر ما تتسع له مواردى المالية · فقد بدا لى أنه من الحماقة أن يحرم الانسان نفسه رغد الحياة وهو قادر عليه ، ولكنى لم أتردد أبدا فى القيام بعمل لانه قاس ، أو خطر ، أو غير مريح ·

وأعترف أنى لم أكن من هواة المناظر الطبيعية ، وكثيرا ماقـرأت أو سمعت أوصافا حماسية عن مناظر طبيعية رائعة فى بعض أنحـــاء العالم ، حتى اذا رأيتها بنفسى لم أجد فيهامايستحق كل هذه الحماسة فى الوصف · اننى أفضل دائما الاشياء العادية · منزل خشبى فوقدعائم خشبية مستكن بين خمائل الفاكهة ·· مجموعة من أكواخ الغاب على

جانب الطريق ، ولكن اهتمامى الاكبر مركـــز فى الناس ، وفى طرق حياتهم ، وانى بطبيعتى أخجل من التعرف بالغرباء ولكنى ، لحسن حظى ، أصبحت دائما فى رحلاتى شخصا يتمتع بموهبة الاتصال الاجتماعى ، ان له طرقه الجذابة اللطيفة التى تجعله لى ــ أقصر وقت ــ يتصادق مع الناس فى السفن وفى النوادى ، وفى غرف الشراب ، وفى الفنادق ، بطريقة سهلت على الاتصال بذلك العدد الكبيرمن الناس الذين ــ لولاهم ــ لما عرفتهم الا من بعيد .

لقد وطدت صلاتى بهم بالدرجات التى كنت أراها مناسبة لى ، وكانت صلاتهم بى ، من جانبهم ، وليدة الشعور بالوحشة أو العزلة .. وقليل منهم لم يفض الى بكـــل ذات نفسه ، وانى اذ التفت الى موكب اتصالاتى الطويل بذلك العدد الضخم من الناس ، لأشعر أنه لم يكن بينهم من لم يخبرنى بشىء أفادنى ، ويبدو أنى نميت فى أعماق نفسى احساسا كأنه لوحة التصوير الفوتوغرافى التى تنطبع عليه كل المرئيات، ولم يكن يهمنى مدى مافى الصورة التى ترتسم فى نفسى من حقـــائق ، وانما المهم انى كنت أقيم فيما بينى وبين أى شخص أتصـــل به لونا مناسبا من التوافق والانسجام ، وكان هذا كله من أجل التسليات التى طالما شغلت بها أوقات فراغى .

اننا نقرأ أنه ليس هناك انسان يشبه انسانا آخر من جميع الوجوه، وأن لكل انسان شخصيته المفردة الموحدة ، وهذه حقيقة ، ولكنها حقيقة تسهل المبالغة فيها ، أو هى حقيقة فيها الكثير من المبالغة ، فان الناس عند التجارب ، يتشابهون كثيرا . انهم ينقسمون بالمقارنة الى أنواع قليلة . ان الظروف الواحدة تصبهم فى قالب واحد ، وان بعض الخصائص المعينة تدل على خصائص أخرى معينة عن طريق اليقين ، فأنت تستطيع كالبليو نقولوجسنت ان تقيم هيكل حيوان من عظمة واحدة . ان «الشخصيات » التى كانت نماذج شائعة فى الادب منذ عهد ثيوفراستوس، و « الامزجة » المعروفه فى القرن السابع عشر تدل على نوع من النـــاس كانوا يحبون أن يصبوا انفسهم فى قوالب متشابهة .

والواقع أن هذا هو أساس المنهب الواقعى الذى يعتمد فى جاذبيته على المعرفة والشـــــيوع ، أما المذهب الرومانتيكى فانه يهتم بالنادر والشاذ .. الواقعى هو المألوف المعروف ــ أما الظروف غير المألوفة بعض الشىء التى يعيش فيها الناس بالريف حيث الحياة بدائية ، أو حيث تتلاءم البيئة مع طباعهم ، فانها تؤكد عاميتهم التى تكسبهم شخصيتهم الذاتية . وهم عندما يشعرون فى أنفسهم بالشذوذ أحيانا « وهذا ما يحدث بطبيعة الحال » فان رغباتهم العامة فى كبح نفوسهم تمنعهم من أن يسمحوا لأنفسهم بتنمية ارتباطاتهم بالحرية التى لا يمكن الحصول عليها الا بمشـــقة فى المجتمعات المتمدنة ، وعندئذ لن تســـــتطيع أن تقنعهم بتقبل المذهب الواقعى ، وقد تعودت أن أظل فى الرحلة حتى أجهد ذاكرتى الواعية وحتى أجد أنى لم أعد قادرا على ربط أسباب الخيال بالواقع كلمـــا تعرفت بشخصيات جديدة ، وعندئذ أعود الى انجلترا لأرتب ذكرياتى ومشاهدتى

وانطباعاتى . ثم أستريح الى أن تعود ذاكرتى الى قوتهـــــا من الحفظ والاستيعاب ، وأخيرا ٠

بعد سبع رحلات طوال على ما أذكر ، تبينت وجود هذه المشابهة الاكيدة بين الناس ٠ لقد التقيت المرة بعد المرة بأنواع من الناس سبق ان رأيت أشباها لهم . ومن ثم توقف اهتمامى بهم ٠ وقررت أنى قد وصلت الى نهاية مقدرتى فى البحث عن الجديد من شخصيات الناس الذين كنت أسعى وراءهم ٠ ذلك أنه لم يخامرنى الشك لحظة فى أنى أنا الذى كنت أضفى عليهم هذه المميزات والخصائص التى كنت اكتشفها فيهم ـ وهكذا تبينت أنه لم تعد ثمة فائدة لى من مواصلة الترحال ؛ فقد كدت أموت مرتين بالحمى ، وأوشكت على الغرق ذات مرة ، وأطلق بعض قطاع الطرق الرصاص على ؛ ومن ثم أحسست بالرضا وأنا أقرر أن أعيش فى حياة رتيبة مستقرة .

كنت أعود من كل رحلة وأنا على شيء من الاختلاف ، وكنت فى شبابي أقرأ كثيرا لا رغبة فى الافادة ، وانما بسبب الفضــــول وحب المعرفة ، وقد قمت بالرحلات على سبيل المتعة ، وللحصول على المــــواد الذهنية التى قد تفيدنى فى المستقبل ٠ ولم يحدث أن خطر ببالى يوما أن هذه التجارب الجديدة سيكون لها تأثير فى نفسى ، ولكننى أدركت فيما بعد مبلغ أثرها فى تكوين شخصيتى ، فان اتصالاتى بكل هؤلاء الناس الغرباء ، أفقدتنى هذه النعومة التى اكتسبتها عند ما كنت ـ وأنا أعيش فى قلب المجتمع الادبى ـ كقطعة حجر فى غرارة من الاحجار ، لقــــد عادت الى خشونتى وبدائيتى ، وعدت الى طبيعتى مرة أخرى ؛ ثم توقفت عن الترحال لانى شعرت أنى لن أظفر منه بمزيد من الفائدة ٠٠ ولان مقدرتى على التطور والنمو بلغت مداها ٠ لقد قتلت أوزة الثقافة التى كانت تبيض لى ذهبا ، وسيطر على شعور بالاستسلام المطلق ٠ لم أعد أطلب من أى شخص أكثر مما فى وسعه أن يعطى لقد تعلمت الجلد وقــوة الاحتمال وعرفت كيف أشعر بالسرور من فضائل اخوانى بنى البشر وكيف لا أحزن أو أغضب من مساويهم ٠ لقد اكتسبت الاستقلال الروحى، وتعلمت كيف أمضى فى طريقى دون أن أحفل بآراء الغير فى هــــذا الطريق ٠

لقد طالبت بالحرية لنفسى وأصبحت على استعداد لان أتيح مثل هذه الحرية لغيرى ٠ انه من السهل عليك أن تضحك وتهز كتفيك حين ترى الناس يسيء بعضهم الى بعض ، ولكن الامر لن يكون بمثل هذه السهولة بالنسبة لك اذا كانت الاساءة موجهة اليك . على أنى وجدت بالتجربة أنه ليس مستحيلا أن تهز كتفيك وتضحك اذا أساء أحد اليك . وان الرأى الذى انتهيت اليه عن الناس قد وضعته فى فم أحد الرجال الذين التقيت بهم على سطح احدى السفن بالبحار الصينية ٠ لقد جعلت هذا الرجل يقول : « سوف أضع لك رأيى عن الجنس البشرى فى برشامة ، يا أخى ان قلوبهم لا بأس بها ، ولكن عقولهم ليست كما ينبغى » ٠

كان يحلو لى دائما أن أدع الاشياء تختمر فى ذهنى فترة طويله قبل أن أسطرها على الورق . وهكذا لم أكتب قصتى الأولى عن منطقة البحار الجنوبيه الا بعد أربعة اعوام من تدوين مشاهداتى عنها ، ولم أكن قد كتبت قصصا قصيرة منذ اعوام طوال . كنت قد بدأت حياتى الادبية بكتابتها ، وكان كتابى الثالث يضم ستا منها • ولم تكن قصصا جيده . وبعد ذلك حاولت بين الحين والآخر أن اكتب قصصا للمجلات ، وكان وكلائى يلحون على أن أكتب قصصا فكهة ، ولكن لم يكن لدى الاستعداد لكتابه هذا النوع من القصص ، كانت قصصى جادة ، قاسيه • عنيفه . وكانت محاولاتى لارضاء رؤساء التحرير واكتساب بعض المال قلما تنجح • والقصة الاولى التى كتبتها عن البحار الجنوبية كان اسمها « الامطار » وبدا لى فترة ما ، أنها لن تكون أسعد حظا من اخواتها ، ذلك لانها رفضت من رئيس تحرير بعد رئيس تحرير ، ولكننى لم أعد أحفل كثيرا بالامر ، ومضيت فى طريقى المرسوم ، فلما أتممت كتابة ست منها — نشرت كلها فى فترات مختلفة بالمجلات — أصدرتها فى كتاب ، وكان النجاح الذى ظفرت به هذه المجموعة ممتعا ، وغير متوقع • وأعجبنى هذا اللون من الكتابة • فقد كان من دواعى الرضا أن أعيش أسبوعين أو ثلاثة مع شخوص خيالاتى ثم أنفض يدى منها ، فاننى لم أكن أجد الوقت الكافى لاشعر بالملل الذى كنت أشعر به وأنا أعيش أشهرا طوالا مع شخوص خيالاتى فى أثناء كتابة قصة مطولة . ان هذا النوع من القصص — الذى تبلغ فيه القصة نحو اثنتى عشرة ألف كلمة ، كان يتيح لى فرصة طيبة لتنمية موضوع القصة ووضعها فى القالب المناسب واحكام حبكتها ، ولكنها كانت ترغمنى على نوع من الايجاز والتركيز سبق أن مارسته وبرعت فيه واسترحت اليه وأنا كاتب مسرحى •

لقد كان من سوء الحظ أن أهتم بكتابة القصص القصار اهتماما جديا فى الوقت نفسه الذى كان فيه كبار الكتاب فى انجلترا ، وأمريكا واقعين تحت تأثير قصص تشيكوف •

والمعروف أن العالم الادبى لا يتسم بعض الشىء بالتوازن أو الاتزان، فاذا انتشر فيه أسلوب عارض فى فن الكتابة ، لم يحاول أن ينظر اليه على أنه « مودة » عابرة ، وانما على أنه قانون سماوى ينبغى الايمان به والعمل على هداه ، وهكذا سرى فى الوسط الادبى اليقين بأن كل من له ثقافة فنية ويريد أن يكتب قصصا قصيرة ، يجب عليه أن يحذو حذو تشيكوف ، ومن ثم أخذ الكثيرون من الكتاب ينقلون تصوف الروس ، وكآبتهم ، وتقلبهم ، ويأسهم ، وتفاهتهم ، وترددهم ؛ الى الحياة فى منطقة سورى بانجلترا أو الى مدينة بروكلين أو شابهان بأمريكا ، ويظفرون بالشهرة الواسعة لانفسهم •

وينبغى الاعتراف بأنه ليس من الصعب تقليد تشيكوف ، وكان هناك ، فوق رأسى ، عشرات من اللاجئين الروسيين الذين كانوا يحسنون كتابة قصص قصار على هذا النمط ، وأقول فوق رأسى ، لانهم كانوا

يرسلون بهـــا الى لأصحح أخطاءها الانجليزية ، ثم يغضبون منى لانى لا أحصل لهم على مبالغ ضخمة من المجلات الامريكية ٠

لقد كان تشيكوف كاتبا بارعا فى فن القصة القصيرة ، ولكن كانت له امكانياته المحدودة ، وكان يعرف كيف يحسن استغلالهـــا الى أقصى حد ليجعل منها قواعد أساسيه لفنه ٠ انه لم يكن متمتعا بموهبة تأليف قصة مؤثرة محكمة محبوكة يمكنك أن تثير بها انفعال مدعويك الى مائدة الغداء وانت تقصها عليهم ٠ انه كرجل يبدو مرحا ، واقعيا ، ولكنه ـ ككاتب ـ ذو طبيعة مكتئبة حزينة كانت تدفعه الى تجنب الحركة العنيفة أو خصوبة الانتـــاج ٠ وكانت سخريته تبدو أحيانا مؤلمة الى حد تدل معه على مدى ضيق الرجل الذى رأى أنه يسـير فى الطريق الخطأ مدى الحياة ٠ كان يرى الحياة بمنظار ممل رتيب ٠ وكانت شخوصه تنقصهـا الفردية وقوة الشخصية ، وكان يبدو أنه لم يكن يحفل بهـــا كثيرا كأشخاص تنبض بالحياة على الورق ، ولعل هذا سبب قدرته على أن يثير فيك الشعور بأن هذه الشخصيات كلها أجزاء بعضها يتفرع من البعض ، وبعضها يفنى فى البعض ٠ وكأنها من أسرار الحياة التى تثير فى الانســـان أحيانا الشعور بعدم جدوى الحياة ٠ وتلك هى احدى خصائصه التى ينفرد بها عن غيره ٠

اننى لم أدر أبدا : هل كان فى مقدورى أن أكتب قصصا على طراز قصص تشيكوف ، فانى لم أحاول اذ كنت أريد أن أكتب قصصا تمضى فى حبكة محكمة من البداية الى النهاية ، كنت أرى أن القصة القصيرة عبارة عن حكاية حادثة معينة : مادية أو روحية ، يمكن تضمينها مؤثرات انفعالية دون الاحتياج الى حشوها بأشياء خارجة عن موضوعها الاساسى ، ولم أكن أخشى ما يقال عنه بالتعبير الفنى « أساس الموضوع » ٠ ان الخوف منه لا ينتج الا اذا كان الموضوع قائما على غير أساس منطقى ، أو اذا كان قد سبق استعماله بكثرة ، لأنه يمتاز بقوته التأثيرية فى نفوس القراء ، وأخيرا أحب أن أنهى قصصى نهاية كاملة بدلا من تلك النهاية المائعة التى يفضلها بعض الكتاب ٠

وأعتقد أن هذه النهاية الكاملة هى التى جعلت جماهير القراء يتذوقون القصص الفرنسية أكثر من تذوقها للقصص الانجليزية ، فان رواياتنا الكبيرة المطولة مضطربة السمت ، ثقيلة ، صعبة المأخذ ، ومما يبهج الانجليز أن يفقدوا أنفسهم فى غيابات هذه الروايات الضخمة الملتوية السياق ، ويبدو أنهم يرون فيها طابعا شاذا من الواقع بســـبب ميوعة هيكلها ، واضطراب تصرفات شخصياتها التى لا شأن لهـــا بموضـــوع الرواية الاساسى ، ولكن هذا الطابع نفسه هو الذى يثير فى الفرنسيين الشعور الحاد بالقلق والاضطراب ٠ ان تلك المحاضرات التى ألقاها هنرى جيمس على الانجليز عن « القـــالب » الفنى للرواية ، أثارت اهتمامهم ، ولكنها لم تؤثر فى طريقة ممارستهم لكتابة الرواية ، ذلك أنهم فى الواقع يرتابون فى جدوى هذا القالب الفنى ٠ انهم يجدون فيه نوعا من الاحكام والتزمت، وان قوة أحكامه تثير فى نفوسهم الملل ، انهم يشعرون أن الحيوية تنفلت من قلم الكاتب الذى يحاول أن يضع قصته فى قالب محـــكم ، أما النقاد

الفرنسيون فانهم يطالبون بأن تكون للقصة بداية ، ووسط ، ونهاية ، وأن يتطور موضوعها بوضوح واستطراد منطقي الى النهاية ، وأن تقص عليك كل ما تريد أن تقص حتى النتيجة الاخيرة ، وقــــد كان لتأثرى بادب « موباسان » القصصى فى صدر شـــبابى ، ولاشتغالى بالتاليف المسرحى فترة غير قصيرة من مستهل حياتى الادبية ، وربمــــا لميولى وخصائصى الذاتية ، الاثر الكبير فى التزامى القالب الفنى فى كتابة القصص ، وهذا أرضى الفرنسيين الى حد كبـــير ، وأيا كان رأيهم الخاص فى شخصى ككاتب ، فانهم لا يروننى هوائيا أو مسفا ٠

- ٥٤ -

انه من النادر جدا أن تزود الحياة الكاتب بقصة مجهزة ، فالواقع أن الحقائق المجردة مثيرة للملل الشديد ، انها تعطى فكرة تثير الخيال ، ولكنها كفيلة بأن تمارس سيطرة شديدة الضرر ، وان أقرب مثل فنى على هذه الحقيقة هى روايه « الاحمر والاسود » الفرنسية ، انها رواية بالغة الروعة ، ولكن الرأى العام استقر على أن نهايتها ليست مرضية وليس من العسير أن تعرف السبب ، فقد استقى مؤلفها « ستندال » فكرتها من حادث كان له دوى شديد فى حينه ، فقد قتل طالب جامعي شاب عشيقته فحوكم وأعدم بالمقصلة ، ولكن « ستندال » لم يبث فى «جولبين سوريل» بطل القصة ــ كثيرا من ذات نفسه فقط ، بل أكثر مما كان يريد أن يكون وهو يحس ، فى بؤس أنه لن يكون ، لقد ابتكر شخصيته من أهم وأطرف الشخصيات الروائية ، وجعله فى ثلاثة أرباع الرواية يتصرف فى ترابط وقوة احتمال وتوازن ، ولكنه وجد نفسه فجأة مضطرا للعودة الى الحقائق المجردة التى كانت أساس الهامه ، ولم يستطع أن يفعل هذا الا بأن يجعل « البطل » يتصرف بطريقة متناقضة مع شخصيته وذكائه ، ومن ثم جاءت الصدمة مفاجأة للقارىء ، بحيث يأبى ان يصدق ما حدث ، وأنت كقارىء حين ترفض أن تصدق ما تقرؤه فى رواية ، فقد انقطع خيط اهتمامك بها، والأصول الفنية تحتم على الروائى أن تكون لديه الشجاعة الكافية لأن يلقى بالحقائق وراء ظهره اذا فشلت فى التجـــاوب والتناسق مع التصرفات المنطقية لشخصيات الرواية ، وانى شخصيا لا ادرى كيف كان ينبغى أن ينهى «ستندال» روايته ، ولكنى أعتقد أنك لن تجد أسخف من النهـــاية التى اختارها هو ٠

لقد تعرضت للعتـــاب لأنى أرسم شخوص قصصى عن أشـــخاص حقيقيين ، وقد بلغ من اسراف النقاد فى عتابهم ، أو فى حملتهم ، أن خيل الى أن أحدا من الكتاب لم يسبق أن فعل هذا ، ولكن الواقع يقول ان رسم شخوص الروايات عن الاشخاص الحقيقيين فى الحياة أمر شائع ٠ فمنذ عهود الادب الاولى والمؤلفون يتخذون شخوصهم الروائية من الواقع الحى، ان أساتذة الادب ــ على ما أعتقد ــ يعرفون اسم الرجل الجشع النهم الذى صوره « تبرونيوس » فى روايته «تريمالكيو» ، وهواة أدب «شكسبير» يعرفون من هو الشخص الحقيقى الذى اتخذ منه شكسبير شخصية المستر

شالو القـــاضى ، وحتى وولتر سكوت التزمت رسم لأبيه بقلمه صورة فاسية فى أحد كتبه ، وفى كتاب آخر رسم له صورة أخرى لطيفة بعد أن أزال مرور الأعوام ما فى نفسه من مرارة وألم . وقد كتب «ستندال» فى بعض أصول رواياته الخطية ، أسماء الاشـــخاص الذين أوحو اليه بشخصياته الروائية ، وصور ديكنز بقلمه ــ كما نعرف جميعا ــ أباه فى شخصية المستر ميكوبر ، ورسم « لاى هانت » فى شخصية سكيمبول . وقد ذكر « ترجنيف » أنه لم يكن فى وســـعه رسم أية شخصية روائية مالم يفكر ــ اولا ــ فى شخصية انسان حى ، وانا أظن أن الروائيين الذين يقولون انهم يبتكرون شخوص رواياتهم من الخيـــال المجرد ، يخدعون أنفسهم « وليس هذا ببعيـــد ما دام بعضهم يعتقدون أن فى امكانهم أن يصبحوا كتابا كبارا دون حاجة الى ذكاء خاص أو يخدعوننا ، واذا صدقوا أحيانا في قولهم أنهم ابتكروا شخصياتهم من الخيال ، فلا شك أن هذا الابتكار يرجع الى قوة ذاكرتهم لا الى قوة موهبتهم الخيالية فكم من مرة ونحن نلتقى بدار تانيان ومسز برودى ، وأرشيديكون ، وجرانتلى ، وجين اير ، وجيروم كوانارد ، وغيرهم ، فى أسماء أخرى وملابس مختلفة ، ويمكننى القول بأن رسم الشخصيات الروائية عن أشـــخاص حقيقيين ليس أمرا شائعا فحسب ، وانما هو ضرورى أيضا ، ولست أدرى أى سبب يجعل الكاتب يخجل من الاعتراف بهذه الحقيقة . وكما قال ترجنيف « ما لم يكن فى ذهنك صورة شخص حقيقى فانك لا تستطيع أن ترسم شخصية روائية ذات خصائص مميزة وحيوية نابضة » .

ولكنى ، مع هذا ، أصر على أن الشخصية الروائية ، برغم استقائها من شخصية حقيقية ، هى من خلق خيال الكاتب .

فنحن فى الواقع لا نعرف الا القليـــل جدا عن نفسيات الناس حتى الذين تربطنا بهم أوثق الوشائج . اننا لا نعرفهم الى الحد الذى يجعلهم ينبضون بالحيـــاة فى صفحات كتاب ، ويتخذون سمت الشخصيات الآدمية ، فالناس جد مخادعين وجد غامضين بحيث يصعب نسخهم على الورق ، وهم أيضا قلمـــا يتصرفون بطريقة منطقية مترابطة . فالكاتب لا يصور شخصياته تصويرا طبق الأصل عن الاشخاص الحقيقيين ، بل إنه يقتبس منهم ما يريد ، كأن تسترعى انتبـــاهه بعض خصائصهم أو غرائبهم ، أو بعض تصرفاتهم وألوان تفكيرهم التى تلهب خياله ، وتدفعه الى انشاء شخوص ، انه لا يهتم بحقيقة التشابه بين الصـــورة والأصل . انما يهتم فقط بخلق شخصية ، منسجمة ، معقولة ، تؤدى الغرض منها . وقد يبلغ اختلاف الشخصية المرسومة فى النهاية ، عن الأصل حدا يجعل الناس يتهمون المؤلف بأنه رسم شخصية انســـان معين فى حين أنه فى الواقع كانت فى ذهنه شخصية انسان آخر . وعدا هذا ، فان المصادفة وحدها هى التى تحدد ما اذا كان المؤلف يختار نماذج شخوصه من الناس الذين يعرفهم عن يقين أم لا ، ذلك أنه يكفى أحيـــانا أن يلقى المؤلف نظرة على شخص ما فى مشرب شاى أو يتبادل الحديث ربع ساعة مـــع شخص آخر فى قاعة التدخين باحدى السفن ليجعل منه نموذجا لشخصية روائية ، ان كل ما يحتاج اليه مجرد أساس ، مهما يكن بسيطا ، ليبنى

عليه شخصية يضمنها بعض تجارب حياته ، وبعض معلومات عن الجنس البشرى ، وبعض الميول التى تفرضها البيئة والظروف المحلية عليه .

وكان من الممكن أن نكون العملية كلها بسيطة ميسورة لولا اسراف الناس فى تحفظهم حين يتخذ المؤلف من شخصياتهم نمـــاذج لشخوص رواياته ، فان شدة اعجاب الناس بانفسهم تجعلهم . عند اللقـــاء بأحد المؤلفين ــ يتكلفون ويتحفظون حتى يتخذ المؤلف منهم شخصيات ممتازة فى رواياته ، فاذا جاءت هذه الشخصيات على غير ما يحبون ، استبد بهم الغضب . وبرغم أن هؤلاء الناس أنفسهم يكتشفون ــ بسهولة ــ أخطاء اصدقائهم وشذوذ تصرفات غـــيرهم ، فان غرورهم الذاتى يمنعهم من الاعتراف بأن لهم ، هم أيضا أخطاؤهم وشذوذ تصرفاتهم . وتزداد الحالة سوءا وحرجا عندما يصطنع الاصدقاء الاســـتياء والغضب ويتظاهرون بالمواساة لما لحق أصدقاءهم من اضرار أدبية على أيدى المؤلفين . ولا يخلو هذا كله بطبيعة الحال من التظاهر والخداع . واعتقد اننى لست الكاتب الوحيد الذى اتهمته النساء بأنه استغل كرمهن وحسن ضيافتهن ثم راح يسىء رسم شخصياتهن فى رواياته ، وهو فى الواقع لم يرهن يوما أو يعرفهن ، ان بعض الناس المساكين يحاولون عمدا بسبب تفاهتهم وفراغ حياتهم أن يدعوا وجود المشابهة بينهم وبين الشخصيات الروائية لكى يظفروا ببعض الشهرة فى محيطهم المحدود .

وأحيانا يتخذ المؤلف شخصية انسان عادى ويجعل منها ــ بخياله ــ شخصية روائية نبيلة الاصل ، على جانب كبـــير من الشجاعة والثقة بالنفس ، ويرجع السبب فى هذا الى أنه لمس فى ذلك الانسان خصائص ذاتية لم يلمسها حتى المقربون ، وعندئذ ــ وهنا موضع الغرابة ــ لايعرف أحد من القراء الأصل الحى لهذه الشخصية الرائعة ، ولكنهم اذا وجدوا شخصية روائية مليئة بالأخطاء والرذائل والشذوذ ، فسرعان ما يربطون بينها وبين شخص يعرفونه فى الحياة ، وأنا مرغم على القول ، لهـــذا السبب ، بأننا لا نعرف أصدقاءنا الا بنقائصهم لا بمزاياهم ، وقلما يكون المؤلف متعمدا ايذاء أحد بالذات ، وانما هو فى الواقع يبذل جهده ، لستر الشخص الأصلى الذى نقل عنه صـــورته القلمية ، انه يضع شخصيات خياله فى أماكن مختلفة ، ويبتكر لها أسبابا مختلفة للارتزاق ، بل يلحقها أحيانا بطبقة أخرى غير التى تنتمى اليهـا الشخصيات الحقيقية المأخوذة عنها ، ولكن الذى يصعب عليه تغييره ، أو تبديله هو مظهرهم العام ، فان المظهر العضوى للانسان يؤثر على شخصيته ، ومن ثم فان لرسم الشخصية علاقة أكيدة بهذا المظهر ، انك لا تستطيع أن تصور شخصية رجل طويل بالخطوط الفنية نفسها حين تجعله قصـــيرا ، ان للرجل الطويل مزاجا خاصا يجعل شخصيته تختلف عن شخصية القصير ، وكذلك لا تستطيع أن تستر شخصيتك الأساسية بأن تجعل الفتاة السمراء ، شقراء . ان عليك أن تدع مظهر هذه الشخصيات كما هو اذا أردت أن تحـــافظ على الجوهر الذى دفع بك الى رسم الشخصية . وليس من حق أحد أن يشير الى شخصيته فى كتاب ويقول اننى مقصود بهذه الشخصية، وكل مايمكنه أن يقول انه كان الشخص الذى أوحى بها فقط ، واذا كان انسانا عاقلا متزنا ، فعليه أن يبتسم مرحا وهو يرى جانبا من شخصيته بدلا من أن

بفضب ، وان قوة خيال المؤلف وبراعته فى التصـــوير قد يتيحان للشخص المرسوم الفرصة لأن يعرف أشياء فى نفسه كانت خافية عليه ٠

- ٥٥ -

انى لست مخدوعا عن حقيقة مركزى الأدبى ، انه لا يوجـــد فى وطنى غير اثنين فقط من كبار النقاد شغلا نفسيهما بانتاجى الأدبى الى حد كبير ٠ أما النقاد الشبان فانهم لا يقيمون لى أى اعتبار وهم يكتبون عن فن القصة الحديثة وعن كتابها ٠ ولست ساخطا على موقفهم هذا ، فانه موقف طبيعى ، فأنا لم أحب فى يوم الشهرة والدعايه ، فان عدد القارئين قد تضاعف كثيرا فى أثناء الثلاثين عاما الاخيرة ، ولكن بينهم أعدادا ضخمة من ذوى العقليات السطحية الذين يريدون موضـــوعات القراءة الخفيفة السهله . انهم يعتقدون أن فى مقدورهم أن يتعلموا شيئا اذا هم قرءوا روايات تقوم فيها الشخصيات بالحديث والدعاية عن موضوعات اليوم ، فاذا وضع المؤلف موقفا غراميا هنا أو هناك ، فانه سيجعل روايته مقبولة، مرضيا عنها ٠ ان مثل هذه الرواية تصلـــح لأن تكون منبرا للدعاية عن بعض الآراء والافكار ، وان كثـــيرا من الروائيين لديهم الاستعداد الكافى لأن ينظروا الى أنفسهم على أنهم قادة الفكر ، ولكن عيب هذه الطريقة أو هذا الأسلوب ، أن الرواية تفقد قيمتها بعد فترة وجيزة وكأنها عدد من جريدة يومية صدر منذ أسبوع ، ولكن ازدياد الطلب على هذا النوع من الكتب التى تعالج الموضوعات العامة ، رفع كثيرا من نسبة توزيع هـــذه الكتب التى تدور حول هـــذه الموضوعات العـــامة : كالعلوم المبسطة ، والتدريس ، والصلات الاجتماعية ، وما لا أدرى من هذه الكتب التى تكتب بطرق أبعد ما تكون عن أدب الكتابة الفنى ٠ وقد أدى نجاح هذا الكتاب الى القضـــاء على ذلك الصنف من روايات الدعاية الرخيصة ٠ ولكن من الواضح أنه ما دام شيوعها سائدا فى وقت ما ، فانها تصبح مثار النقد والتعليق أكثر من الروايات الاخرى ذات الشخصيات الادبية والمغامرات المتزنة المنطقية ٠

ولكن النقاد الأذكياء ، والقراء الجادين ، ظلوا محتفظين باهتمامهم الكبير بالكتاب الذين كان يبدو أنهم يقدمون لونا من الأدب المتسم بالطابع الفنى الحديث ، ولهذا سببه المعقول ، لأن الجدة الفنية التى قدموها كانت تشيع النضارة فى الاساليب القديمة المهلهلة وتتيح الفرصة للمناقشات والتعليقات ٠

وقد يبدو من العجب أن يبذل كل هذا الاهتمام لهذه الاشياء ، فى حين ان الطريقة التى ابتدعها هنرى جيمس وبلغ بها درجة عالية من الكمال فى سرد القصة عن طريق راوذكى شديد الملاحظة ، له دور فى حوادثها ٠٠ هذه الطريقة تعتبر لمسة بارعة أضفت على الادب الروائى العوامل التأثيرية المطلوبة ، وأتاحت للكاتب المتـــأثر بالأسلوب الفرنسى الطبيعى الفرصة ليتغلب على المصاعب التى تعترض الروائى الذى يحـــاول أن يجمع بين

القدرة على النظرة الشاملة والبراعة الفائقة فى السرد ٠٠ ان ما لا يعرفه الراوى الذكى يمكن أن يترك محوطا بالغموض والابهام ، وهذه الطريقة فى السرد تشبه الى حد كبير طريقه كتابة السير التاريخية بكل ما فيها من فوائد ومميزات ٠ ومن بين التجارب التى كانت لها أهمية كبيرة ، طريقه استخدام التسلسل الفكرى ، فان الكتاب عادة شديدو الاعجاب بالفلاسفه المهتمين بالنفوس البشريه الذين يمكن فهمهم بسـهولة ٠ وبين هؤلاء الفلاسفة على التوالى شوبنهور ، ونيتشه ، وبرجسون ، ولم يكن ثمة مفر من أن تستهوى هؤلاء الكتاب نظريات التحليل النفسى ، فقد استبان لهم ما فيها من احتمالات كبيرة فى الفن الروائى ٠ فالكاتب يعرف مبلغ ما كان يدين به للعقل الباطن فى أحسن انتاجه ، ومن ثم أغرته النظريات الجديدة على أن يتوغل فى أعماق جديدة لتقديم صور خيالية عن العقول الباطنة ، أو اللاشعور ، فى نفوس شخصياته المبتكرة ، ولكن هذا كله لم يكن فى الواقع غير خدعه بارعة مسلية — ولا أكثر من هذا — فقد ثبت أن هذه التحليلات النفسـية العميقة مجهدة للكتاب الذين يتخذونها أساسـا لموضوعاتهم ، بدلا من ان يستعينوا بها لتحقيق عرض معين فى سياق القصة ، كالايضاح أو التأثير ، أو التهكم ٠ وانى أرجح أن هذه الطريقة وما يماثلها ستندمج فى الاسلوب الفنى العـام لكتابة القصة ، ولكن الروايات والكتب التى تبرزها سوف تفقد أهميتها بسرعة ٠ لأنه يبدو أن هذا الانتاج لم يحظ باهتمام أولئك الذين استهوتهم هذه الطريقة الجديدة العجيبة ، لأن الموضوعات التى عالجها ذلك الانتاج كانت بالغة التفاهه ، ويكاد يخيل الينا أن مؤلفى هذه الكتب التافهة قد دفعوا الى الاسراف فى استخدام هـذه الطريقة بسـبب احساسهم الذاتى بفراغ عقولهم ٠ فالشخصيات التى وصفوها بذلك الاسلوب التحليلى المعقـد لم تثر أى اهتمام ، والموضوعات التى عالجوها كشفت فى النهاية عن التفاهة ، وربما كان هذا محتملا . ان الفنان يستغرق فى الاهتمام بفنية القصة اذا أعوزه الاهتمام بموضوعها أما اذا كان شديد الاهتمام بالموضوع ، فانه لا يقيم وزنا كبيرا للقواعد الفنية لتقويمه ، وهكذا كان الكتاب فى القرن السابع عشر ، بعد أن أتعبهم المجهود الفكرى فى عصر النهضة ، وبسبب استبداد الملوك وطغيـان رجال الكنيسة ، راحوا يشغلون أنفسهم بالجنجورية والكونستية ، وما اليهما من المذاهب الادبية الضحلة ، ولعـل الاهتمام الذى تركز فى السنوات الاخيرة حول الاساليب التجريبية فى الفنون ، هو الدليل على قرب انهيار المدنية الحالية ، فان الموضـوعات التى كانت هامة فى القرن التاسع عشر فقدت الآن أهميتها ، ومع ذلك فان الفنانين لا يزالون غافلين عن النتائج الضخمة التى ستؤثر على الجيل الجديد الذى سينشىء ، على مر الأيام ، مدنية جديدة ، غير مدنيتنا المنهارة ٠

- ٥٦ -

لهذا كله كنت أرى أنه من الطبيعيجدا ألا يقيم العالم الأدبى اهتماما كبيرا لأعمالى الادبية ٠ وقد كنت أجد نفسى مستريحا مطمئنا وأنا أكتب

المسرحيات بالاسلوب التقليدى المعروف . أما فى التأليف القصصى ، فانى أعود بعيدا الى الوراء خلال عصور لا حصر لها .. الى رواة القصص حول النار فى الكهوف التى كان يعيش فيها انسان ما قبل التاريخ . ان لدى نوعا من القصص أريد أن أقصه ، وأشعر بالمتعه والاهتمام وأنا أقصه ، وهذا وحده يعتبر سببا كافيا بالنسبة الى . ومن سوء الحظ أن فن كتابة القصة ظل فترة ما موضع الازدراء من المثقفين . وقد قرأت عددا كبيرا من الكتب التى عالجت فن كتابة القصه ووجدت أنها جميعا لم تول موضوع الحبكه الفنية للقصة ، الا اهتماما يسيرا ، « واذكر بهذه المناسبة أننى لا أستطيع أن أفهم الفارق الكبير الذى يضعه بعض النقاد البارعين بين القصة والموضوع . فان الموضوع ما هو الا الهيكل الذى تدور حوله القصة » ويمكنك أن تحكم من هذه الكتب على أن حبكة الموضوع ليست الا عائقا للكاتب المثقف البارع ، وأنها نوع من الاذعان لتلبية الرغبات الحمقاء للقراء ، وأنك من ثم لتدرك أحيانا أن أفضل الكتاب الروائيين هم كتاب المقالات ، وأن أحسن القصص القصيرة هى التى كتبها « تشارلس لامب » و « هازليت » .

ولكن متعة الانصات الى القصص هى من الطبيعة البشرية التى لا تقل عن متعة النظر الى الرقص وتمثيل المسرحيات ، والدليل على وجود هذا الشعور الطبيعي بالمتعة هو ذلك الرواج العجيب للقصص البوليسية ، ان أرفع الناس ثقافة يقرءونها — فى تفضل طبعا — ولكنهم يقرءونها على كل حال ، فلماذا يفعلون ؟ لان الروايات الادبية التحليلية ، والنفسية الدراسية ، لا ترضى غرائزهم المشوقة الى الاثارة والانفعال ، وان هناك عددا كبيرا من الكتاب البارعين الذين أوتوا موهبة خلق الشخصيات النابضة على الورق ، والذين تمتلىء رءوسهم بمختلف الموضوعات القصصية ولكنهم لا يدرون ماذا يفعلون بهذا كله .. انهم محرومون من القدرة على كتابة قصة محكمة مقروءة . وكجميع الكتاب « وجميع الكتاب عبارة تنم عن الكلام الفارغ » يحاولون أن يحولوا نقصهم هذا الى ميزة ، فيضعوا القارىء بين أمرين : اما أن يفهم بنفسه ما يحدث وما يريد أن يقوله الكاتب برغم غموضه ، واما أن ينهره الكاتب على غبائه وعجزه عن الفهم والادراك ، انهم يزعمون أن قصص الحياة لا تنتهى عادة نهاية محكمة ، وانما تترك نهاية الاحداث فيها عادة معلقة مائعة ، ولكن هذا ليس الواقع دائما لان الموت — على الاقل — يضع النهايات المحكمة لكل أقاصيص حياتنا ، وحتى اذا صح رأيهم فان النهاية المائعة لا ترضى أحدا ..

ذلك أن الروائى يؤكد عن نفسه أنه فنان ، والفنان لايقلد الحياة تقليدا طبق الأصل وانما ينتقى من أحداثها ما يتناسب مع اغراضه وأهدافه ؛ وكما يفكر الرسام بفرشاته وألوانه كذلك يفكر الروائى بقصته ، فان نظرته الى الحياة «برغم أنه ربما لا يكون شاعرا بهذه النظرة» وشخصيته الذاتية تتضحان فى سلسلة من التصرفات والتحركات البشرية . وأنت حين تنظر الى الفنون القديمة ، لن يعسر عليك أن تلاحظ أن الفنانين قلما يقيمون وزنا كبيرا للمذهب الواقعى ، ولكنهم فى الجملة يتخذون من الطبيعة خطوطا زخرفية ، ولا يقلدونها طبق الاصل الا بين الحين

والآخر عندما يشرد بهم خيالهم بعيدا عنها بحيث تلزمهم العودة اليها . والمعروف في الرسم والنحت أن الاقتراب الشديد من تقليد الطبيعة دليل على قرب انهيار المدرسة الفنية التي يتبعها هذا المذهب . وانك لتلاحظ على أبوللو بلفيدير للمثال الاغريقي تيدياس طابع البلادة وفي صورة « معجزة بولسانو » لرافاييل تقليدا ممسوخا لفن بوجيرو . والخلاصة أن تجدد حيوية الفن لا يتم الا بتجدد النظرة الى الطبيعة -

ولكن هذا كله خارج عن الموضوع .

لا جدال في أن القارىء — بطبيعته — يجب أن يعرف ماذا يحدث لأولئك الأشخاص الذين أثر فيه اهتمامه بأمرهم . وأن الحبكة الفنية للموضوع هي الوسيلة لارضائه في هذا الامر . ومن الواضح أنه ليس من السهل دائما أن تكتب قصة جيدة ، ولكن صعوبة كتابتها لا ينبغي أن تكون سببا لاحتقارك لها !! يجب أن تمتاز القصة الجيدة بالترابط وقوة الاحتمالات وكفاية الامكانيات اللازمة للموضوع ، كما يجب أن تمتاز بالقدرة على تطور شخصياتها؛ وهذه القدرة من المميزات الرئيسية للادب الروائي الحديث ، ويجب أيضا أن تكون متماسكة متكاملة بحيث اذا أنهيتها ، لم تترك للقارىء ، الفرصة ليتساءل عن مصير بعض الشخصيات التي قامت بأدوار فيها ؛ ويجب أن يكون لها — كما قال ارسطو — بداية ، ووسط ، ونهاية .

ان المهمة الاساسية لحبكة موضوع القصة تبدو كأنما الكثيرون من الناس لا يلاحظونها . انها مجرد الخط الذي يوجه اهتمام القارىء، وهذا على الارجح أهم شيء في الادب الروائي ، ذلك لان قدرة الكاتب على الامساك بزمام اهتمام القارىء يتيح له الفرصة لأن ينتقل به من صفحة الى صفحة ، وأن ينقل اليه ما يريد من آراء وأفكار ، ولكن على الكاتب البارع ألا يجعل القارىء يشعر بقوة تأثيره فيه ؛ ويمكن أن يفعل هذا بمقدرته على تحريك خطوط الحبكة الفنية للقصة ببراعة تلهى القارىء عن الشعور بتأثير الكاتب عليه ؛ وأنا هنا لا أكتب قواعد مفصلة عن فن القصة . كما انى لست بحاجة لان أعدد أنواع الاخطاء التي يقع فيها الروائيون وهم يحاولون تحقيق هذا الهدف . ولكن يمكننا أن ندرك أثر النجاح في السيطرة على اهتمام القارىء أو مبلغ الخطأ الناشىء عن اهماله في رواية «العقل والادراك» لجين أوستين . فقد ظل المؤلف يقود القارىء في قوة عبر صفحات القصة البسيطة دون أن يدعه يتوقف ليدرك أن بطلتها النيانور غبية . وماريان حمقاء . وأن الرجال الثلاثة مجرد دمى لا حياة فيها . أما فلوبيرت في روايته « الدراسة والعاطفية » فانه وهو يهدف الى القيام بدراسة الموضوعية الصارمة يوجه اهتمام القارىء في غير مبالاة ليجعله يشعر بعدم الاهتمام بمصير شخصيات الرواية ؛ ومثل هذا الاهمال في السيطرة على اهتمام القارىء يجعل قراءة الرواية أمرا شاقا . وانى لا أتذكر كتابا آخرين يتمتعون بمواهب ومميزات « جين أوستين » و « فلوبيرت » . ومع ذلك تركون مثل هذا الاثر الغامض في نفوس القراء .

قال النقاد عني وأنا في العقد الثالث من عمري اني كاتب عنيف غليظ ، وبعد أن تجاوزت الثلاثين من عمري قالوا انى ثرثار ، وبعد سن الاربعين قالوا انى ساخر متهكم قاس ، وبعد الخمسين من العمر ، قالوا انى قدير ، وبعد الستين ، قالوا انى سطحى ، لكنى ظللت سائرا فى سبيلى ، مقتفيا اثر الطريق الذى رسمته لنفسى ، محاولا بانتاجى أن انفذ الخطة التى وضعتها لحياتى ، وأعتقد أن الكتاب الذين لا يقرءون النقد الموجه اليهم مخطئون ، فانه من المستحب أن يدرب الانسان نفسه على أن يتقبل الذم بالهدوء والثبات والرزانة التى يتقبل بها المدح . ذلك أنه من الطبيعى انه يسهل على الكاتب أن يهز كتفيه فى غير مبالاة حين يجد من يصفه بأنه عبقرى ، ولكن ليس من السهولة أن يشعر الكاتب بعدم الاهتمام حين يعامل على أنه (لا هنا ولا هناك) ! فان تاريخ النقد يدل على أن النقد المعاصر لا قيمة له كثيرا لانه غير ذى نفع ، وأنه لأمر مهم أن يقرر المؤلف الى أى مدى يمكن أن يهتم به أو يتجاهله . وقد يبلغ اختلاف الرأى عن المؤلف حدا يجعله يشك فى نفسه وفى كفايته . وفى انجلترا اتجاه طبيعى نحو احتقار الرواية ، فان تاريخ حياة سياسى مغمور ، أو احد رجال البلاط الملكى يلقى من النقاد اهتماما كبيرا ، فى حين لا تلقى نحو ست روايات غير نقد بالجملة بقلم ناقد لا يهمه الا أن يتظرف على حسابها .. والسبب الحقيقى فى هذا يرجع الى أن الانجليز يهتمون بالانتاج الاخبارى أكثر من اهتمامهم بالانتاج الفنى ، ولهذا يصعب على الكاتب الروائى أن يظفر من نقاد انتاجه بشىء قد يفيده فى عمله الفنى .

ان من سوء حظ الأدب الانجليزى الا يكون بيننا فى هذا العصر ناقد من طبقة سانت ــ بيف أو ماتيو أرنولد ، أو حتى برونتيير . حقا انه لم يكن ليشغل نفسه كثيرا بالانتاج الادبى المعاصر ، ولو أنه لو فعل ــ كما فعل واحد من الثلاثة المذكورين ــ لما كان ذا فائدة مباشرة للكتاب المعاصرين ، ذلك أن سانت ــ بيف ــ كما نعرف ــ كان شديد الغيرة لنوع من النجاح ــ طالما هفا اليه دون أن يبلغه ــ بحيث يعسر عليه أن يعامل زملاءه المعاصرين فى عدالة وانصاف ، وكان ذوق ماتيو أرنولد على غير ما ينبغى ، وهو يتعامل مع الكتاب الفرنسيين فى عصره بحيث يمكن القول بأن معاملته ما كانت لتختلف مع الكتاب الانجليز . أما برونتير فكان ضيق الصدر : كان يقيس الكتاب بمقاييس عنيفة دقيقة بحيث لم يكن يعترف بكفاية اى كاتب لا يتفق معه فى الهدف ، كانت قوة شخصيته تطغى على جمال مواهبه ، ولكن رغم هذا كله ، فان المؤلفين يستفيدون من الناقد الذى يهتم بالادب اهتماما جديا ، وحتى لو كان فى نقده لهم بعض التحامل المنفر ، فان فى مقدورهم أن يستفيدوا من نقده بتحديد أهدافهم فى وضوح . والواقع أن مثل هذا الناقد يضرم فى نفوسهم الانفعال الذى يدفعهم الى بذل المزيد من الجهد ، ويغريهم بمعالجة أعمالهم الفنية بمزيد من الاهتمام .

لقد حاول أفلاطون ــ كما يبدو ــ فى حوار له أن يبين عدم جدوى

النقد ؟ ولكنه فى الواقع ، أوضح فقط مدى التطرف الذى قد تقود اليه طريقة « سقراط » أحيانا ، فهناك لون واحد فقط من ألوان النقد، يمكن أن يقال انه عديم النفع ، ذلك هو النقد الذى يكتبه الناقد ليعوض به أنواع المذلة التى عاناها فى شبابه ، فان النقد يتيح له فرصة رد اعتباره ، فمثلا اذا كان عاجزا وهو فى المدرسة عن مسايرة الجو المحدود الذى يعيش فيه فكان يضرب ويهان بين زملائه فانه اذا كبر ، اخذ يضرب ويهين غيره ليخفف عن مشاعره المهيضة .

لعله لم يحدث أن اشتدت بنا الحاجة — كما تشتد الآن — الى ناقد نافذ الكلمة ، ذلك أن الفنون فى هذا العصر أصبحت أخماسا فى أسداس ، فاننا نجد الآن موسيقيين يؤلفون القصص ، ورسامين يتفلسفون ، وروائيين يرتدون مسرح الوعظ والارشاد، وشعراء يضيقون بالوزن والقافية ، فيحاولون أن يتخففوا منهما بما يسمونه الشعر الحديث أو الشعر المنثور ، وكتابا ناثرين يحاولون أن يطعموا نثرهم بأوزان الشعر . فما أشد حاجتنا الى شخص يعيد تحديد خصائص كل فن وما يستلزمه من مواهب خاصة . ويبين لأولئك الشاردين أن محاولاتهم التجريبية هذه لن تقودهم الا الى الفشل والاضطراب .

وانه لمن المستبعد كثيرا أن نتوقع وجود شخص يستطيع أن يعالج، بكفاية متساوية ، مختلف فروع الفن ، ولكن اذا صح أن الطلب يخلق المطلوب ، فقد يجوز لنا أن نأمل ذات يوم رؤية ناقد يرتفع من بين الصفوف ويعتلى العرش الذى سبق أن جلس عليه سانت — بيف — وماتيو أرنولدز ، وعندئذ يصبح فى مقدوره أن يفعل الكثير ، فقد قرأت منذ عهد قريب كتابين أو ثلاثة يطالب فيها مؤلفها بتقرير دراسة علمية لفن النقد ، ولكن مؤلفى هذه الكتب لم يقنعونى بأن هذا ممكن ؟ فان النقد — فى رأيى — مسألة شخصية ، وليس هناك اى اعتراض على أن تكون للناقد شخصيته القوية ، ولكن من الخطر عليه أن ينظر الى نشاطه الأدبى على انه نشاط خالق ، فان مهمته هى أن يرشد ، وأن يمتدح ، وأن يستعرض ، وأن يشير الى طرق جديدة للخلق والابتكار ، ولكن اذا نظر الى نفسه على انه فنان خالق فسيجد نفسه مشغولا بعمليات الخلق الفنى ، وهى أشد ألوان النشاط استبعادا للانسان عن العمل المناسب لمواهبه . وقد لا يكون ثمة بأس فى أن يكتب مسرحية أو رواية أو مقطوعة شعرية ، لأنه بهذه الطريقة يستطيع أن يمارس عمليا فنية الكتابة ، ويدرك — عمليا أيضا — بعض الجهد الذى يبذله المؤلفون ، ولكنه لن يكون ناقدا عظيما ما لم يتأكد من أن التأليف ليس من عمله .

ان من أسباب تفاهة النقد المعاصر اشتغال بعضهم به على انه عمل ثانوى بجانب التأليف ، ومن ثم صار المؤلف الناقد يعتقد — بطبيعة الحال — أن عمله كمؤلف ، أجدى عليه من عمله كناقد . ان الناقد العظيم هو الذى يتمتع بسعة الصدر ووفرة العلم ، ولكن لا ينبغى أن تكون سعة الصدر ووفرة العلم قائمة على أساس من عدم المبالاة ، كما هو الحال مع من تتسع صدورهم لاحتمال الاشياء التى لا يهمهم أمرها فى قليل أو كثير ، وانما على أساس من الشعور بالبهجة فى التوجيه

والارشاد ، كما ينبغى أن يكون عالما نفسيا وملما الماما كبيرا بعلم وظائف الاعضاء . لانه يجب أن يعرف علاقة العناصر الاولية للادب بعقــول وأجسام الناس ، كما ينبغى أن يكون فيلسوفا ، لانه سيتعلم من الفلسفة الجد والوقار ودقة البحث وعدم التحيز وزوال الجنس البشرى، وكذلك ينبغى أن يكون واسع الاطلاع ، لا بآداب وطنه فحسب ، وانما بآداب الأمم القديمة التى كانت منابع للآداب الحديثة ، وأن يكون دارسـا للأدب المعاصر فى الامم الاخرى ، وبذلك يستطيع أن يرى بوضوح الطريق الذى اتخذه الادب فى تطوره ، فيتسنى له من جانبه أن يفيـد أدب مواطنيه . ويجب عليه أيضـا أن يكون على المام واسـع بالتقاليد والعادات . لانها التعبير عن الخصائص الملزمة فى أدب أمة من الأمم ، ولكن عليه أن يبذل كل ما فى وسعه لتشجيع نمو أدب أمته والدفـع به الى الطريق الطبيعى لهذا النمو . ان تقاليد الامة أقرب ما تكون الى المرشد منها الى السجان . وعلى الناقد أن يكون صبورا ، حازما ، متحمسا ، عليه أن يجد فى كل كتاب يقرؤه عالما جديدا ومتعة مثيرة ، ومغامرة ممتعة مثيرة .. عليه أن ينظـر اليه بمعلوماته الواسعة وشخصيته القوية . وفى الواقع يجب أن يكون الناقد العظيم رجـلا عظيما ، ويجب أن يكون عظيما الى حد يجعله يدرك فى استسلام مرح لطيف أن أعماله مهما تبلغ أهميتها لن تكون لها الا قيمة وقتية . وأن كفايته يجب أن تتجاوب مع مستلزمات أدب عصره وتوجيهه الوجهـة المناسبة ، وأقول عصره ، لان الجيل الجديد ينبعث بمطالب جـديدة ، وتمتد أمامه طرق جديدة ، وعندئذ لن يكون لديه مزيد من القـول ، وهكذا يلقى هو واقواله وآراؤه فى سلة المهملات .

أن الذى يوجه حياته الى مثل هذه النهاية ، هو فى الواقع انسان عظيم يؤمن بأن الادب من أعظم الاعمال التى يمارسها بنو البشر .

— ٥٨ —

ذلك هو ما يؤمن به أيضا المؤلف بصفة دائمة ، ويضيف اليه ايمانه بشىء آخر ، وهو أنه ، أى المؤلف ، ليس كغيره من النـاس . ومن ثم لا تنطبق عليه القواعد العامة المنطبقة عليهم ، ولكن هناك أناسا آخرين ينظرون الى الادب فى زراية وسخرية واحتقار . والمؤلف يقابل هـذه النظرة بوسائل مختلفة تتناسب مع خصائصه الشخصـية ، ومن بين هذه الوسائل أنه يباهى أحيانا بالميل الى مبدأ « خالف تعرف » وهـو يقصد مخالفة مايسميه «قطيع» العامة أو البورجوازيين ، فترى أحدهم، مثل تيوفيل جوتيير يسير متمنطقا بصديرية حمراء وجيراردى نيرفال يضع «الكابوريا» مربوطة فى ربطة عنقه ويسير هكذا فى الطـرقات ، وأحيانا يستمد الكاتب بهجته الساخرة من تظاهره بأنه كأى شـخص عادى ، وكان الشاعر براونج يأبى الا أن يرتدى زى رجال المال الأثرياء، ومن المحتمل أن تكون جميعا مجـرد حزم من المتناقضـات فى أعماق نفوسنا ، ولكن الكاتب ، والفنان ، أكثرنا جميعا شعورا بهذه الحقيقة.

أما الأشخاص الآخرون ، فان الحياة التى يحيونها تجعل جانبا منهم ميالا الى الغلبة والتسلط ، وهذا ما يؤدى فى النهاية الى احساسهم بالتكامل ، سواء أكان هذا الاحساس طافيا على الشعور أم مستترا فى أعماق اللا شعور ، أما الرسام والكاتب والقديس ، فان كلا منهم لا يكف عن النظر الى أعماق نفسه للبحث عن جوانب جديدة ، فهو يشعر بالملل حين يكرر نفسه ، ويلتمس جاهدا ــ برغم أنه قد لا يعترف هذه الحقيقة ــ أن يمنع نفسه من أن ينظر ــ كبقية الناس ــ الى الحياة من جانب واحد . وهكذا لاتتاح له الفرصة لكى يصبح شخصا متفانيا فى ذاتيته .

ويشعر كثير من الناس بدهشة الاستنكار حين يكتشفون ــ وكثيرا ما يفعلون ــ التناقض الشديد بين حياة الفنان وانتاجه . انهم لا يستطيعون أن يهضموا التناقض بين مثالية بيتهوفن وبين حقارته النفسية ، والحان فاجنر السماوية وأنانيته وخيانته للأمانة ، وانحراف سرفانتس واعوجاجه ورقته وكرم نفسه وشهامته . ويحاول هؤلاء أحيانا ــ لفرط استنكارهم ــ أن يقنعوا أنفسهم بأن روائع هؤلاء الفنانين ليست بالغة الجمال كما يظنون . وهم عندما يدركون أن كبار الشعراء الموهوبين النوابغ قد تركوا وراءهم كميات ضخمة من الشعر الفاحش البذيء ، لامتلأت نفوسهم بأشد أنواع الاستنكار ، ولحاولوا أن يشعروا بأن كل ما يقال عن هؤلاء الشعراء لغو فى لغو ، وأن يوحوا الى أنفسهم قائلين « ما أشد تفاهة هؤلاء الفنانين » .

ولكن الحقيقة فى نظر الكاتب هى أنه ليس رجلا واحدا ، وانما هو عدد كبير من الرجال فى شخص واحد ؛ ولأنه عدد كبير من الرجال فانه يستطيع أن يصوغ من خياله عددا كبيرا من الشخصيات فى رواياته وقصصه ، وتقاس عظمته بعدد النفوس التى يصوغها . وهو اذا صور شخصيته تصويرا غير مقنع أو مقبول ، فان هذا يكون دليلا على أنه ليس فى أعماق نفسه شيء من هذه الشخصية ، وأن كل ما فعله ، هو انه رسمها من ملاحظاته لا من أعماق نفسه . ان الكاتب لا يشعر بالشيء وانما يستغرقه الشعور فيه . ان مشاعره لا ينبغى أن تكون رقيقة سريعة التأثر ؛ لان هذا سيدفعه لان يكون عاطفيا هوائيا . وانما ينبغى ان يكون كما يقول علماء النفس « ثابت العواطف » . وقد كان شكسبير يتمتع بجانب كبير من ثبات العاطفة ؛ وهكذا كان أكثر المؤلفين حيوية ، وأقلهم عاطفة وهوائية . وأعتقد أن «جوته» كان أول من أدرك حقيقة تعدد الشخصيات فى الكاتب الواحد . وقد ظل هذا الكشف ينقل عليه مدى الحياة . لقد كان يقارن دائما الكاتب . بالانسان . ولكنه لم يستطع ان يوفق أبدا بين تناقضهما . والنتيجة لدى الفنان تختلف عنها لدى الرجل العادى . ذلك ان نتيجة تعدد الشخصية فى الفنان ؛ هى الانتاج ، أما عند الرجل العادى فهى التصرف الحكيم ؛ ومن ثم فان نظرة الفنان الى الحياة تتفق ، الى حد ما ، مع طبيعته . ان علماء النفس يقولون لنا ان منظر الصورة أمام الرجل العادى ليس له حيوية قوة الاحساس . والتجارب الخفيفة هى التى تزود الاحساس بالمعلومات عن الاشياء . وفى عالم الاحساس تكمن القدرة على الحركة ؛ فأحلام اليقظة ترضى

رغباته العاطفية وتحقق آماله المكبوته في دنيا الواقع . ولكن هذه الاحلام ليست الا ظلالا شاحبة لواقع الحياة ، وهو في أعماق نفسه يدرك أن مطالب عالم العقل والتفكير لها صور أخرى من الاحلام أثبت وأجدى .

ان الصور وهي الافكار الطليقة التي يزخر بها عقله ـ ليست من أسباب التوجيه ، وانما هي مواد للحركة . ان فيها كل حيوية الاحساس، وقد تكون لأحلام يقظته سمات قوية تقلب الوضع ، وتجعل عالم الواقع هو الظلال الشاحبة ، ومن ثم تصبح محاولة الوصول اليه شاقة مجهدة تحتاج الى قوة ارادة شديدة . ان القصــور التي يبنيهـا على الرمال بأحلامه ، ليست بالنسبة اليه قصورا بلا أساس ، وانما هي قصــور حقيقة يعيش فيها .

ان عبادة الفنان لنفسه أمر يشين حقا ، ولكن هذا ما ينبغي أن يكون . فهو بطبيعته من عبـــاد الذات ، ويعتقـد أن العالم لم يخلق الا ليمارس فيه قدرته على الخلق الفني . انه يشترك في الحياة بجزء من نفسه فقط ، ولا يشعر أبدا بانفعالات الاشخاص العاديين بكل كيانه، لانه مهما تكن الضرورة ، لا يستطيع الا أن يكون متفرجا ، وممثلا في وقت واحد ، وهذا ما يجعله ، أحيانا ، قاسيا ، ومن ثم فان النســـاء بمرحهن الغريزي يكن دائما على حذر منه انهن ينجذبن اليــه عادة ، ولكنهن يشعرن في أعماق نفوسهن أنه من المستحيل عليهن أن يسيطرن عليه تماما . والسيطرة هي رغبتهن الأساسية ،ذلك لأنهن يعلمن أنه ، بطريقة ما ، سيروغ من بين أصابعهن . ألم يخبرنا جوته ـ وهو عاشق كبير ـ كيف انه كان ينظم الشعر بين ذراعي حبيبتــه ويوقع بأصــابعه نغم الوزن على ظهرها ، ان الحيـــاة مع الفنان شاقة مجهدة ، فهو في مقدوره أن يكون مخلصا في عواطفه الخالقة ، ولكن يوجد في أعمــاق نفسه شخص آخر يحاول أن يصــنع الفخاخ لمن يوقع في أسر هــذه العواطف ، انه انسان لا يمكن الاعتماد عليه .

ولكن آلهة المواهب لا توزع هباتها دون أن تجعــل لها بعض العيوب ، فان تعدد شخصية الكاتب تتيح له القـــدرة على صياغة الشخصيات النابضة بالحياة على الورق ، ولكنها في الوقت نفسه تمنعه من أن يزودها بالصدق التام في حياتها . ان الواقعية مسألة نسبية ، وان أشد الكتاب تعصبا للواقعية يزور في شخصياته التي يقدمها تحقيقا لأغراضه الشخصية . انه يراهم عن طريق عينيه هو ، لا عن طــريق عيون الآخرين التي قد تكون أصدق منه حكما ، وهو يجعلهم أشــد احساسا بذاتيتهم من الواقع . انه يضاعف من تعقيدهم ، ويسرف في تصوير قدرتهم على التأمل ، انه يلقى بنفسه فيهم ، محاولا أن يجعلهم يبدون كأشخاص عاديين ، ولكنه قلما ينجح ، ذلك لأن الخاصية التي منحته الموهبة وجعلت منه كاتبا ، تمنعه بصفة دائمة ـ من أن يعــرف ما هو الشخص العـــادي على حقيقته ؟ انه ـ اي الكاتب الواقعي ـ لا يستهدف الحقيقة ، في الواقع ، وانما يستهدف فقط مجرد تصــوير شخصــيته الذاتية وابرازها ، وكلما عظمت موهبته ، ازدادت قــوة شخصيته ، وتضاعفت بهرجة الصورة التي يرسمها عن الحياة ، وانه

ليخيل الى احيانا انه لو أراد احفادنا أن يروا كيف كان عالم اليوم ، فانهم لن يلجئوا الى الكتاب الكبار الذين أضفوا شخصياتهم الذاتية على معاصريهم ، وانما الكتاب المتوسطين ، العاديين الذين أتاحت لهم بساطتهم أن يصفوا ما حولهم بأسلوب أكثر صدقا واخلاصا . انني لا أذكر هؤلاء الكتاب في حديثي لانهم ــ كغيرهم من الناس ــ يكرهون أن يقال عنهم : متوسطون وذلك برغم أن انتاجهم هو الذى قد ينال تقدير الاجيال الآتية ، ولكنى اعتقد انه يمكن القول بأن فى مقدور الانسان أن يظفر من الحياة بصور أكثر صدقا فى قصص آنتونى ترولوب ، مما فى قصص تشارلس ديكنز .

ــ ٥٩ ــ

ينبغى على الكاتب احيانا ان يسأل نفسه : هل لما يكتبه اية قيمة غير ذاتية العمل ؟ والحاجة الى هذا السؤال تزداد فى الوقت الحاضر بعد أن أصبح العالم يبدو ــ لنا نحن العائشين فيه على الاقل أشد ما يكون بؤسا واضطرابا عن أى وقت مضى ، وان لهذا السؤال بالنسبة الى ، أهمية خاصة ، لانى لم أرغب فى شيء أكثر من أن أكون كاتبا . انني أرغب فى أن أستكمل كل مقومات حياتى ، وكنت أشعر ــ بقلق ــ لان من واجبى نحو نفسى أن اشترك ، ولو بنصيب ضئيل ، فى الشئون العامة للحياة ، ولكن ميولى الخاصة كانت تحاول أن تعزلنى عن اى نوع من النشاط الاجتماعى ، وقد بذلت جهدا كبيرا لارغم نفسى على الاشتراك فى بعض اللجان التى تكونت لخدمة الشئون الاجتماعية ، كان شعورى بأن حياتى مهما طالت لن تكفى لان أجيد الكتابة كما ينبغى ، يمنعنى من أن أبذل فى أى نشاط آخر وقتا انا احوج ما أكون اليه لاحقق هدفى الذى اختزنته فى ذهنى ، لم يكن فى مقدورى أن أقنع نفسى بنفسى الاشيء آخر له قيمة . ولكن الانسان يضطر احيانا الى ان يتساءل عن جدوى كتابة المسرحيات والقصص والروايات فى عالم يعيش أغلب الناس فيه على حافة الموت جوعا ، وتكاد الحرية فى جوانب كثيرة مأهولة منه تحتضر . وتتوالى فيه الحروب الرهيبة سنوات وسنوات تصبح السعادة خلالها أبعد ما تكون عن متناول الكتل الهائلة من بنى البشر ، وبتسيع فيه اليأس بين الناس حتى لا يرون فى الحياة اية قيمة او اى امل من الآمال التى طالما اعانتهم على احتمال الشقاء والوهم على مر الزمن ! ان الاجابة الوحيدة التى تخطر ببالى هى ان بعض الناس خلقوا لاداء عمل معين ليس فى وسعهم أن يؤدوا عملا آخر غيره . ان الكاتب لا يكتب ، لانه يريد أن يكتب ، وانما لأنه يجب أن يكتب . وقد تكون فى الحياة أشياء أخرى اهم ينبغى أن تؤدى : فهل يجب على الكاتب عندئذ أن يحرر نفسه من قوة الخلق الغريزية الكامنة فيه ؟ أم يجب أن يمضى فى طريقه المرسوم وروما تحترق ؟ ان بعض الناس قد يحتقروننا نحن الكتاب لاننا لا نساهم معهم فى اطفاء الحريق بجردل ماء ، ولكن هذا ليس فى وسعنا فاننا لا نعرف كيف نمسك جردل الماء او نحمله . وعدا هذا ، فان هذه المآسى كلها تلهب خيالنا وتثير نفوسنا وتدفع عقولنا الى الانتاج .

ان الكتاب ، بين الحين والآخر ، يشـغلون أنفسهم بشئون السياسة ، ولكن تاثيرها عليهم ككتاب ، شديد الضرر ، فانى لم الاحظ يوما أن نصائحهم وارشاداتهم وتوجيهاتهم كان لها أى أثر فى تصريف الشئون السياسية ، وان الشذوذ الوحيد فى هذه القاعدة بقدر علمى ، هو الكاتب السياسى دزرائيلى ، ولكن هذه حالة واحدة ، وليس من الانصاف القول بأن الكتابة ليست غاية قائمة بذاتها ، وانما هى وسيلة للنجاح السياسى ، فنحن فى هذه الايام نعيش فى عصر تتسم فيه الأعمال بطابع التخصص ، ومن ثم أرى أنه خير للأسكافى أن يتمسك بمهنته حتى آخر يوم من حياته .

عندما سمعت أن « درايدن » تعلم فن الكتابة بالانجليزية بعد دراسته لانتاج « تيللوتسون » قرأت عددا معينا من فصول ومقالات هذا الكاتب ، ووقعت على عبارة حكيمة بثت فى نفسى شيئا غير قليل من العزاء فى هذا الموضوع ، وهذه العبارة هى « ينبغى لنا أن نبتهج حين نرى أولئك الذين يصلحون لحمل أعباء الحكم ، يقبلون أن يحملوه اذا طلب اليهم ذلك ، وينبغى أن نكون لهم شاكرين أيضا قبولهم احتمال هذه المسئوليات المرهقة .. مسئوليات الحكم ، ثم القدرة على مواجهة الحياة العامة ، ومن ثم فانه من سعادة العالم أن يكون فيه أناس ولدوا وشبوا مؤهلين لحمل هذه الأمانة ، بعد أن جعلتها التقاليد سهلة الحمل ، أو على الأقل ، محتملة . أما الفوائد التى يظفر بها أولئك الذين كرسوا أنفسهم للفكر والتأمل عن طريق العزلة الاجتماعية ، فانها ــ أى العزلة ــ تمنع عقولهم من التشتت فى ميادين مختلفة . ان عقولهم وعواطفهم قد تركزت فى اتجاه واحد . ان ينابيع مشاعرهم وقواهم تتجه الى هذا الاتجاه ، وان كل أفكارهم ومجهوداتهم مرتبطة فى نهاية وسمت واحد يجعل كل حياتهم قطعة واحدة مترابطة لا سبيل الى تفككها على مر الزمن .

- ٦٠ -

عند ما بدأت هذا الكتاب ، حذرت القارىء بقولى : انه ربما كان الشىء الوحيد الذى أتأكد منه هو أنى لا أتأكد من اى شىء . لقد حاولت أن اعبر بأفكارى عن أشياء مختلفة متباينة ، تعبيرا منظما ، ولست أطالب أحدا بأن يتفق مع وجهات نظرى ، فلما راجعت ما كتبت ، حذفت كلمات كثيرة على ما أظن ــ فى عدد كبير من المواضع ، لأنى برغم انسيابها من قلمى بسهولة طبيعية ، وجدتها حشوا الفرض منه تأكيد أقوالى وتزيينها . وانى بعد أن وصلت الى هذا الجزء الأخير من كتابى ، قد غدوت أشد اهتماما بتكرار القول بأن ما أقدمه للقارىء فى هذا الكتاب هو رأيى الخاص الذى أومن به . بل لعلها جميعا تكون آراء سطحية ، ولعل بعضها يناقض بعضا ، فانه من غير المحتمل ، حتى لو افترضنا أننى استقيت أفكارى ومشاعرى ورغباتى من مختلف أنواع التجارب والأحداث ، ولونتها بخصائص شخصيتى ، ان تكون منطقية محكمة ، جامعة مانعة ، فاننى حين كتبت عن أدب المسرح

وأدب القصة ، كانت كتابتى عن تجربة شخصية وخبرة مهنية . أما الآن وأنا أريد الكتابة عن الموضوعات التى عالجها الفلاسفة فانى أعترف بأنه ليس لى من العلم بها أكثر مما لأى رجل عاش حياة حافلة بالتجارب المنوعة الأسباب . فان الحياة ، أيضا ، مدرسة للفلسفة . ولكنها أقرب شىء الى المدارس التجريبية التى يترك فيها الأطفال ليلعبوا أو يتعلموا ما يحلو لهم ، طبقا لميولهم ، لأن انتباههم يدور فقط . حول الموضوعات التى تبدو ذات معنى بهم . ولكنهم لا يلتفتون الى كل ما لا يثير اهتمامهم الخاص . وفى معامل التحليل النفسى ، تدرب الجرذان على طريقة اهتدائها الى طريق بين طرق مختلفة متشعبة ، وبعد الكثير من الأخطاء والتدريبات ، تعرف طريقها المؤدى فورا الى مكان الطعام . واننى فى تناولى لهذه الموضوعات الفلسفية أشبه ما أكون بالفأر الذى يتحسس طريقه بين شبكة الطرق المعقدة .. ولكنى أختلف عنه فى أنى لا أدرى هل سأصل الى الهدف أولا .. ؟ ذلك لان كل ما اعرفه عن طرق هذه الشبكة ، أن نهاياتها .. مغلقة

لقد بدأت دراسة الفلسفة على يد « كونو فيشر » الذى كنت أشهد محاضراته فى أثنـاء اقامتى فى مدينة هيدلبرج بألمانيا . وكان ذا شهرة واسعة هناك . وقد ألقى سلسلة من المحاضرات فى موسم الشتاء عن الفيلسوف شوبنهور . وكانت مدرجات قاعة المحاضرات تزدحم دائما بحيث كان على الراغب فى سماعها أن يبكر فى الحضور ليأخذ مكانه فى الطابور قبل فتح أبواب القاعة ، حتى يظفر بمقعد قريب من المحاضر .. وكان رجلا نشيطا خفيف الحركة . قصير القامة . ممتلىء الجسم ، أنيق الملابس ، مستطيل الرأس . أبيض الشعر . أحمر الوجه ، صغير العينين ، سريع اللفتات . متألق النظرات . وكان له أنف صغير « مفلطح » كأنما بطحه أحد بلكمة قوية . ومن ثم كان أقرب فى سمته العام الى ملاكم محترف منه الى فيلسوف نابغ . وكان ميالا للفكاهة والسخرية اللاذعة . وقد وضع كتابا عن فن الفكاهة قرأته فى حينه ، ولكنى نسيته الآن تماما .. وكان فى أثناء المحاضرة يلقى بين الحين والآخر فكاهة رائعة تثير الضحك العريض فى صفوف المستمعين . أما صوته فكان قويا جهوريا ، والقاؤه رائعا جذابا كله الحيوية والقدرة على التأثير . وكنت فى ذلك الحين شابا حدثا . لا أكاد أفهم الكثير مما يقول . ولكنى استوعبت فكرة واضحة عن شخصية شوبنهور العجيبة الأصيلة ، وخامرنى شعور مختلط بفلسفته ذات القيمة الدراماتيكية والطابع الرومانسى فى آن واحد .. وانى لاتردد فى كتابة اى رأى عما سمعته بعد كل هذه الأعوام الطوال . ولكنى أحس تماما أن كونوفيشر كان يتحدث عن فلسفة شوبنهور على أنها لون من الوان الفن أكثر مما هى فلسفة جادة عن شئون ما وراء المادة وعلم النفس .

وقد قرأت منذ ذلك الحين . عـددا كبيرا من كتب الفلسفة : ووجدتها كلها من القراءات الممتعة . بل وجدت قراءة الفلسفة — فى الواقع — من أمتع وأنفع وأحفل الموضوعات للقارىء الذى يرى القراءة ضرورة ومتعة له . وتمتاز كتب الفلسفة التى وضعها الاغريق القدامى بالاثارة والتشويق ، ولكن من ناحية أخرى يخلو عـدد كبير منها مما

يشبع نهم القارىء . وهكذا تجد نفسك بعد وقت وجيز قد قرأت كل ما تركه الفلاسفة اليونانيون القدامى وكل ما كتب عنهم ، والفلسفة الايطالية فى عصر النهضة ، مثيرة مشوقة ايضا ، ولكن موضوعها ، بالقياس والمقارنة ، صغير محدود ، والأفكار التى وضعت فيها قليلة ، وانك من ثم لتشعر بالملل من فنيتها التى استنفدت منذ أمد بعيد قوتها الخالقة . وهكذا لا تلبث أن تجد نفسك أمام فلسفة ليس فيها غير الجمال والجاذبية والتنسيق ، وهى مميزات يمكنك أن تجد كفايتك منها فى موضوعات أخرى . ومن ثم يخامرك الضجر من رجالها الذين يحرصون على القالب الفنى للأسلوب أكثر من حرصهم على ابتكار المعانى والآراء ، ويمكنك أن تقرأ عن عصر النهضة فى ايطاليا الى ما لا نهاية ، ولكنه لا تلبث أن تشعر بالملل قبل أن تمضى فى القراءة قليلا .. والثورة الفرنسية موضوع آخر يثير الاهتمام، ومن مميزاتها أن معانيها ودلالاتها واهدافها واقعية واضحة ، وهى أيضا جد قريبة منا فى الزمن ، بحيث يمكن فى سهولة أن نضع أنفسنا مكان الذين قاموا بها انهم يكادون يكونون معاصرين لنا ، وأن ما قاموا به ، وما فكروا فيه كان له أثر كبير فى اسلوب حياتنا الآن ، ويمكن القول بأننا ، جميعا ، منحدرون من صلب الثورة الفرنسية ، ان موضوعاتها وموادها لكثيرة .. والسجلات الخاصة بها لا تعد ولا تحصى ، ويمكن القول بأن الكتاب والفلاسفة لم يفرغوا بعد من الكتابة عنها وتحليل دلالاتها . فالقارىء يجد ، دائما ، شيئا جديدا عنها تثير قراءته المتعة والتشويق ، ولكن ليس كل ما نتج عنها يبعث على الرضا دائما ، فان الفنون والآداب التى نتجت عنها مباشرة ليست كما ينبغى ، ومن ثم تجد نفسك مضطرا الى القراءة عن فنانيها وادبائها ، وكلما ازدادت قراءتك عنهم امتلأت احساسا بتفاهتهم وسوقيتهم .. والنتيجة هى أن ممثلى أعظم أدوار التاريخ فى العالم كانوا أبعد الناس صلاحية للقيام بأدوارهم ، وهكذا تشيح بوجهك عن الموضوع فى نفور وتقزز .

ولكن الموضوعات العقلية ، أو ما وراء المادة ، لا تخذلك أبدا .. فأنت لا تستطيع أن تبلغ غايتها .. لأنها موفورة منوعة ، تتسم بالعظمة، لأنها تتناول ما لا يقل عن المعرفة الكاملة . انها تشمل دراسة العالم .. الكون .. الخلود .. الايمان .. امكانيات العقل البشرى .. الوسيلة والغاية فى الحياة .. قوة الانسان وحدود قدرته ، وهى اذا كانت عاجزة عن الاجابة عن بعض الأسئلة التى تدور بذهنه فى أثناء رحلته فى هذا العالم المظلم الغامض ــ فانها قادرة على اقناعه باحتمال جهالاته فى صبر ومرح . أنها تعلم الناس كيف يستسلمون ، وكيف يستميتون فى المقاومة بقوة وعنف .. وانها تستهوى الخيال كما تستهوى العقل أيضا . وهى تتيح للهاوى ، أكثر مما تتيح للفيلسوف المحترف ، فرصة التأمل التى تثير أكبر جانب من المتعة فى نفس الانسان الذى يريد ان يملأ فراغ حياته ..

وبعد أن أثارت محاضرات كونوفيشر اهتمامى بالفلسفة ، بدأت فى قراءة شوبنهور ثم قراءة مؤلفات عدد كبير من الفلاسفة المحدثين . وبرغم أنى وجدت فى هذه المؤلفات أشياء كثيرة لم استطع فهمها ،

ولعلي لم أفهم أبدا كثيرا مما ظننت انى فهمت ، فقد كنت أقرؤها فى حماسة واعتمام ومتعة نفسية بالغة ـ ولعل الفيلسوف الوحيـد الذى احسست بالملل دائما منه ، هو « هيجل » . ولا شك أننى المسئول عن هذا ، لأن أحدا لا يستطيع أن يمارى فى أن تأثير « هيجل » على الفكر الفلسفى فى القرن التاسع عشر كان عظيما . ولكنى وجدته مسهبا أكثر مما ينبغى بالنسبة لى ، مشغوفا بالاستطراد بحيث لم استطع أن اتجاوب مع « البهلوانية » الأسلوبية التى بدا لى أنه كان يحاول أن يقيم بها البراهين على كل ما يريد أن يقول . ولعـلى كنت متحيزا ضده بسبب الاحتقار الذى كان يشيع فى كتابات « شوبنهور » عنه . اما الفلاسفة الآخرون ابتداء من أفلاطون الى هذا العصر . فقد اسلمت قيادى لهم « الواحد بعد الآخر ، فى سرور وغبطة الرحالة الذى يسلم قياده للمرشد فى رحلة مثيرة ببلاد مجهولة . اننى لم أكن اقرأ لهم بعقلية الناقد ، وانما بعقلية تشـبه عقلية قارىء الرواية الذى يلتمس المتعة والثقافة والتسلية فى آن واحد ، هذا وقد ذكرت كثيرا أنى لا اقرأ الروايات من أجل المعـرفة ، وانمـا من اجل التسلية والاستمتاع ، ومما ضاعف من بهجتى واستمتاعى انى كنت أحـد المشغوفين بدراسة الشخصيات ، وكانت هـذه الكتب الفلسفية قد كشفت لى الكثير من أسرار نفوس كتابها .

لقـد كنت ارى ، وانا اقرأ ، الرجل الـكامن وراء فنه ، وكثيرا ما انتشيت وانا أكتشف نبل الأخلاق وسمو الطباع فى بعضهم ، وكثيرا ما ابتسمت فى اشفاق ونهم وانا أكتشف انوان الطرافة والشذوذ فى بعضهم الآخر ، ولشد ما انتشيت وانا أتابع مترنحا فرار أفلاطون من الجوهر الفرد الى الجوهر الفرد . ورغم أنى قد علمت أن « ديكارت » قد استمد نتائجه الغريبة الشاذة من مقدماته التأثيرية د فقد فتنت بوضوح تعبيره وتألق اسلوبه . ان قراءته تشبه السباحة فى بحيرة بلغ من صفائها أن يرى السابح قاعها بوضوح وأن يحس فى ملامسة مائها الرائق بالنضارة والانتعاش ، وأنى أعتبر أن قراءتى الأولى لاسبينوزا من أروع تجاربى فى الحياة . لقد أفعمت روحى بلون من العظمة والشعور بالقوة كالذى يشعر به الانسان امام سلسلة جبال شماء .

وبدات قراءة الفلاسفة الانجليز فى شىء من التحيز . لأنى أدركت من الاتجاه العام للفلسفة فى ألمانيا ، ان الفلاسفة الانجليز ــ عدا هيوم ــ ليسوا بذى بال ، وأن أهمية « هيوم » ترجع الى هجوم « كانت » عليه والتنديد به . وقد وجدت أنهم ليسوا فلاسفةمجيدين فحسب ، وانما هم كتاب ممتازون أيضـا . وبرغم أنهم ربما لا يكونون من عظماء المفكرين ــ وليس لى أن أحكم بهذا ــ فانهم ، قطعا ، كانوا على شىء غير قليل من الغرابة . وانى لأعتقد أن قليلا من الناس يستطيعون قراءة كتاب « الحوت » للفيلسوف هوبز دون أن يفاجئوا بشخصيته الخشنة الغليظة « الجون بوليه » ومن المؤكد أنه لن يسـتطيع أحد أن يقرأ مساجلات « بيركلى » دون أن يستمتع بجاذبية ورقة ذلك الأسـقف اللطيف ، واذا صح أن الفيلسوف الألمانى « كانت » قد هلهل نظريات هيوم ، فانه من المستحيل على ما أعتقد أن يجارى أحد أسلوب «هيوم»

الفلسفي في صفاته ، وجزالته ، ووضوح عبارته ، وكذلك الفيلسوف « لوك » فان أسلوبه في التعبير عن آرائه الفلسفية جدير بالدراسة . وقبل أن ابدأ الكتابة الروائية أعدت قراءة كتب الفيلسوف «كانديد» ، لكي أعيد الى قلمي تلك اللمسات الأسلوبية الرقيقة ، الواضحة ، البارعة ، وانه ليخطر ببالي أن ليس ثمة ضرر على الفلاسفة الانجليز المعاصرين لو أنهم شقوا على أنفسهم بقراءة كتاب « هيوم » عن «البحث الخاص بالعقل البشري » ذلك لأنهم لا يحفلون كثيرا بوضوح التعبير . وقد يحتمل أن تكون آراؤهم أعمق وأغزر من آراء أسلافهم ، وهذا ما يرغمهم على ابتكار تعبيرات جديدة وأساليب خاصة للتعبير عنها . ولكن هذا الاجراء ينطوي على خطر شديد . ذلك أنهم حين يعالجون موضوعات ومسائل ذات أهمية خاصة لجميع القراء المثقفين الواعين ، فان الانسان لا يسعه الا أن يأسف حين يرى أنهم لا يعبرون عن هذه الآراء بذلك الوضوح الذي يجعل جميع القراء يفهمونهم . لقد قيل لي أن البروفسور « هوايتهيد » أنبغ عقلية بين جميع المشتغلين بالفلسفة الفكرية ؛ ولكن يخيل الي من دواعي الأسف أنه — أحيانا — لا يشق على نفسه ليجعل التعبير عن آرائه واضحا مفهوما ؛ وان اسبينوزا على صواب حين لجأ الى التعبير عن طبيعة الأشياء بكلمات لا تتعارض معانيها المألوفة مع المعاني التي أراد أن يستخدم هذه الكلمات في التعبير عنها .

- ٦١ -

انه ليس هناك اى سبب يمنع الفلاسفة من أن يكونوا كتابا أدباء . ولكن اجادة الكتابة لا تتأتى بالموهبة وحدها ، فالكتابة فن يحتاج الى دراسة للالمام به ثم اتقانه ؛ والفيلسوف لا يتحدث فقط الى فلاسفة آخرين أو الى طلبة جامعيين في طريقهم الى التخرج ، وانما يتحدث أيضا الى رجال الأدب ، والى الساسة ، والى رجال الفكر والتأملات الذين سيكيفون هذه الآراء وينقلونها الى الأجيال التالية . وبديهي أن هؤلاء جميعا سينجذبون الى هذه الفلسفة المثيرة بشرط الا تكون عسيرة الفهم والهضم . واننا جميعا نعرف مدى تأثير فلسفة «نيتشة» على بعض مناطق العالم ، وأن القليلين هم الذين يزعمون أن أثرها في العالم لم يكن مدمرا شديد الضرر ، ولم يكن انتشارها لما فيها من عمق التفكير ، وانما لما في اسلوب التعبير عنها من قوة التأثير . ان الفيلسوف الذي لا يهتم بتوضيح آرائه ، لا شك يعتقد أنه ليس لهذه الآراء الا قيمة علمية محدودة النطاق .

وقد كان من دواعي عزائي — أني اكتشفت أنه حتى الفلاسفة قد لا يفهمون بعضهم البعض أحيانا ، فكثيرا ما اعترف « برادلي » بأنه لا يفهم أحيانا ماذا يعني بعض الذين يجادلونه في الشئون الفلسفية ؛ ويذكر البروفسور « هوايتهيد » ان بعض اقوال « برادلي » تند عن فهمه ؛ فاذا كان أكبر الفلاسفة — أحيانا — لا يفهم بعضهم البعض ،

فلا شك أن للقارىء عذره اذا هو لم يفهم ــ فى كثير من الأحيان أغراضهم؛ وليس من شك فى أن دراسة ما وراء الطبيعة ليست بالأمر البسيط ، فهذه حقيقة لا جدال فيها ، والقارىء العادى حين يقرأ عنها ، أشبه ما يكون بالسائر على حبل مشدود دون أن يمسك بعصا التوازن . ومن حقه أن يحمد الله اذا هو استطاع أن يسير خطوات دون أن يسقط ! وان المقامرة لتنطوى على لون من الاثارة يكفى لحفز بعض الناس على محاولة ركوبها !

اننى كثيرا ما انتابتنى الحيرة كلما طالعت هنا أو هناك ذلك الرأى القائل بأن الفلسفة هى المجال لعلماء الرياضيات العليا . وبرغم أنه من العسير على أن أصدق هذا . فانه ، اذا كانت المعرفة ، كما يقول علماء التطور البشرى ، قد نمت لاسباب عملية فى أثناء الكفاح للبقاء . وأن الكمية اللازمة منها وهى الكمية الضرورية لمصلحة الانسان عموما . يمكن أن تنحصر فى عدد محدود من الناس الذين منحتهم الطبيعة مواهب خاصة نادرة ، أقول اذا كان هذا أمر المعرفة . فان شخصا مثلى كان يمكن أن يحال بينه وبين مواصلة دراساته الممتعة فى هذا الاتجاه مادام لا يتمتع بعقلية تستوعب الرياضيات العليا ، لولا أنى قرأت ، لحسن حظى ، اعترافا لبرادلى بأنه لا يكاد يفهم الا الشىء القليل من علم الرياضيات . ولم يكن « برادلى » بالفيلسوف البسيط . واننا لنعرف أن احساس التذوق يختلف باختلاف الناس . ولكن الانسان بدونه لا يستطيع البقاء على قيد الحياة . ومن ثم فانه يبدو من غير المحتمل أنك ربما لاتستطيع ان تفهم النظريات المعقولة عن الوجود ومكان الانسان فيه ، وعن خفايا الشر ، وعن معنى الحقيقة ما لم تكن من علماء الرياضيات العليا ، وكأنما ــ على هذا الأساس ــ لا يستطيع الانسان ان يتذوق زجاجة من الخمر ما لم يكن متمرنا على تحديد أعمار الخمور المعتقة المختلفة .

ان الفلسفة ليست من الموضوعات التى تقتصر دراستها على الفلاسفة وعلماء الرياضيات فحسب . وانما هى من الموضوعات التى تهمنا جميعا كبشر . وليس من شك فى أن معظمنا يتقبل الآراء الفلسفية بعد شيوعها . وأن معظمنا لا يكاد يدرى شيئا عن الفلسفة . ولكنها مضمرة فى مشاعر الناس حتى أشدهم جهلا . فالمرأة ــ أو الرجل ــ العجوز الذى كان أول من قال « لا جدوى من البكاء على ما فات » فيلسوف بطبعه . لأنه ما كان يعنى بهذا الا أن الندم لا فائدة فيه . أى أنه ، بهذه العبارة ، قد وضع نظرية فلسفية كاملة . ان الفرضيين يعتقدون أنك لا يمكن أن تتخذ أية خطوة فى الحياة ما لم يكن هناك باعث أو حافز عليها فى لحظة اتخاذها ، وانك لست فقط مجرد عضلات وأعصاب وأحشاء ، وعقل وانما أنت أيضا عادات وأفكار وآراء . وأيا كان مبلغ جهلك بها وأيا كان مبلغ تناقضك وتحاملك . واجحافك . فانها « أى المشاعر الفلسفية » كامنة فى أعماق نفسك . تسيطر على تصرفاتك وتأملاتك . وحتى لو أنك لم تعبر عن هذه التأملات بالكلمات: فانها فلسفتك شئت أو لم تشأ . ولعله من حسن الحظ أن أكثر

الناس لا يعبرون عنها . ذلك لانها فى الواقع أقرب ما تكون الى مشاعر واحساسات غامضة منها الى تأملات وخواطر يمكن التعبير عنها . . انها كالتفكير العضلى الذى اكتشفه أساتذة علم الأعضاء منذ عهد قريب . . هذه الاحساسات والمشاعر الغامضة هى نتيجة استيعاب الميول الشائعة فى المحيط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، والذى استطاعوا أن يكتسبوا منه بعض التجارب . انهم يعيشون حياتهم الرتيبة ، ومن ثم فهم فى غير حاجة الى كل هذه الأفكار والآراء المحيرة المربكة . ولما كانت بعض هذه المشاعر تتضمن بعض الحكم القديمة ، فانهم يجدون فيها ما يكفى لملاءمتهم مع الحياة أما أنا فقد استهدفت منذ شبابى وضع خطة معينة لحياتى ، ومن ثم حاولت منذ ذلك الحين أن أتعرف على العناصر التى سأتفاعل معها فى تنفيذ هذه الخطة — لقد أردت أن أستوعب من المعرفة قدر ما أستطيع عن السمت العام للوجود . اردت أن أقرر فى ذهنى : هل اهتم فقط بحياتى فى هذه الدنيا أم بحياتى الأخرى ، التالية ؟ اردت ان أعرف هل أنا انسان حر التصرف أم أن مشاعرى التى يمكن أن أحبسها فى قالب ارادتى مجرد وهم . اردت ان اعرف : هل لحياتى هذه أى معنى ؟ وهل على أن ابذل جهدى لكى أجعل لها معنى ؟

وهكذا شرعت اقرأ كل ما يقع بين يدى فى غير نظام أو ترتيب .

- ٦٢ -

كان أول الموضوعات التى أثارت اهتمامى ، هو موضوع الدين ، فقد بدا لى أنه من الأهمية البالغة أن أقرر : هل هذا العالم الذى أعيش فيه هو العالم الوحيد الذى ينبغى أن أوليه كل اعتبار واهتمام ، أو ينبغى أن أنظر اليه على انه مجرد مكان للاختبار يعدنى ويؤهلنى لحياة أخرى فى عالم آخر ، فعندما كتبت «عن الروابط الانسانية» خصصت فصلا عن فقدان البطل لايمانه بالعقيدة التى نشأ عليها . وقد قرأت أصول الكتاب قبل الطبع سيدة بارعة كانت فى ذلك الحين تشرفنى بالاهتمام بأمرى ، وقد قالت لى ان هذا الفصل ينقصه النضج . فأعدت كتابته ، ولكنى اعتقد انى لم أغير فيه كثيرا ، لأنه يصف شعورى الخاص وتجربتى الذاتية ، ولم يكن لدى شك فى أن أسبابى للوصول الى النتائج التى وصلت اليها لم تكن ناضجة ، فقد كانت أسباب غلام جاهل ، كانت أسبابا ناشئة عن العواطف لا عن التفكير المتزن ، فاننى حين توفى والداى ، ذهبت للاقامة مع عمى الذى كان يشتغل قسيسا ، وكان رجلا عقيما فى نحو الخمسين من العمر . وكنت واثقا أنها مهمة شاقة مثيرة للضيق ، واعنى بها مهمة الاشراف على تربية ألقت بها الأقدار عليك . وكان يقرأ الصلوات فى الصباح وفى المساء ، وكنا نذهب الى الكنيسة مرتين فى يوم الأحد ، وكان يوم الأحد هذا من أيام المشاغل الكثيرة فى حياة عمى الذى كان دائما يقول انه الرجل الوحيد فى الابراشية الذى يشتغل سبعة أيام فى الاسبوع . ولكن اذا شئت الحقيقة فانه كان أقل الناس عملا ، وكان يترك عبء العمل على نائبه وحراس الكنيسة .

وكنت انا سريع التأثر ؛ ومن ثم سرعان ما أصبحت شديد التدين . وقد تقبلت كل ما كان يدرس لى فى شئون الدين ؛ فى كنيسة عمى ، وفى المدرسة بعد ذلك « دون أن يخامرنى اى شك أو تساؤل .

وكان لمسألة واحدة تأثيرها المباشر على ٠٠ انها التأتأة ٠٠ ذلك أنى ما كدت أمضى فى المرحلة الدراسية غير قليل حتى تبينت – منخلال ألوان المهانة التى تعرضت لها – مبلغ سوء حظى بسبب هذه التأتأة ٠ وكنت قد قرأت فى الانجيل أنك تستطيع تحريك الجبال من موضعها اذاكنت مؤمنا حق الايمان ٠ وأكد لى عمى أن هذه حقيقة لا شك فيها ٠ وفى ذات ليله ، وقد كان على أن أعود الى المدرسة فى صباحها ، ابتهلت الى الله بكلمشاعرى لكى يشفينى من عاهتى الكلامية ، وقد بلغ من ايمانى انى آويت الى فراشى وأنا جد واثق ، بأنى ؛ حين أستقيظ فى الصباح ، سوف أجد نفسىمتحدثا كأى انسان آخر ، وصورت لنفسى مبلغ دهشة الاولاد «فقدكنت فىمدرسة المرحلة الاولى » عندما يجدون انى لم أعد أتأتىء ٠ واستيقظتمفعما بالأمل والنشوة ، ويمكنك أن تتصور صدمتى الرهيبة حين وجدت تأتأتى أسوأ مما كانت ٠

ومرت الاعوام ، وذهبت الى « مدرسة كنج » ، وكان المدرسون فيها من رجال الدين ٠٠ أغبياء سريعى الغضب ٠٠ لم يستطيعوا الصبر على تأتأتى ، فكانوا يتجاهلوننى تماما أحيانا – وهذا ما كنت أفضله – وأحيانا يعنفوننى بقسوة ٠ وقد بدا لى انهم كانوا يحملوننى وزر هـــذه العاهة ، وأخيرا تبينت أن عمى كان رجلا أنانيا لا يعنيه شىء الا راحته الشخصية ، فقد كان رجال الدين المجاورون للابراشية يأتون لزيارتنـــا ، وعلمت أن أحدهم حكم عليه بالغرامة لانه كان يقسو على أبقاره ويحـرمها الطعام الضرورى ، وأن آخر اضطر الى الاستقالة من عمله لادمانه الخمر ، وكانوا قد علمونى أننى أعيش فى الحضرة الالهية ، وان المهمة الاساسية للانسان هى العمل على انقاذ روحه من العذاب الأبدى . ولكنى لاحظت أنه لم يكن بين رجال الدين هؤلاء أحد يعمل بما يعظ النـــــاس به ، وبرغم تدينى الشديد ، فقد بدأت أضيق بكثرة الذهاب الى الكنيسة رغم أنفى ، سواء فى البيت أو فى المدرسة ٠ ولما ذهبت الى ألمانيا رحبت بالحرية التى أتاحت لى عدم التردد على الكنيسة ، ولكنى ، بدافع من الفضول ، ذهبت مرتين أو ثلاثا الى مراسم انقداس الدينى الكبيرة فى كنيسة الجزويت «اليسوعيين» فى هيد لبرج ، وبرغم أن عمى كان شديد التقدير للكاتوليك فقد « كان قسيسا كبيرا ٠٠ وفى أيام الانتخابات كتبوا على بوابة كنيسته بالطـــلاء الابيض « الطريق الى روما » فانه لم يكن لديه أدنى شك فى انهمسيغلبون ويشوون فى جهنم ! لقد كان شديد الايمان بالعذابالأبدى ؛ ولشد ماكان يكره الخوارج على مذهبه الدينى فى الابراشية ، ويرى ان الحكومة مخطئة أفظع الخطأ باحتمالها لهم ، وكان عزاؤه الوحيد أن العذاب الأبدى فىانتظار هؤلاء الملاعين ، أما الجنة ، فانهـــا مدخرة فقط لرجال الدين الانجليز ٠ ولشد ما كانت سعادتى برحمةالله التىجعلتنى أولد فى هذه البيئةالموعودة بالجنة ! فان هذه معجزة كمعجزة أنى ولدت انجليزيا !

ولكنى عندما ذهبت الى ألمانيـــا ، اكتشفت ان الالمان جد فخورين بألمانيتهم كفخرى بانجليزيتى ، وسمعتهم يقولون ان الانجليز لا يفهمون الموسيقى ، وان شكسبير لا يجد التقدير الحقيقى الا فى ألمانيا ، وكانوا يتحدثون عن الانجليز باعتبارهم مجرد أصحاب متاجر ، ولم يكن لديهم أدنى شك فى أنهم ـ اى الالمان ـ سادة الانجليز فى العـــلوم والفنـــون والفلسفة • وقد زلزلتنى هذه الآراء ـ وحين ذهبت لحضور القداس الكبير فى هيدلبرج ، لاحظت ان الطلبة الذين كانوا يملئون جوانب الكنيسة ـ شديدو التدين والواقع ان مظهرهم كان ينم عن أنهم يؤمنون بعقيدتهم بقوة ايمانى بعقيدتى • وقد أدهشتنى هذه الحقيقة ، لانى طبعا كنت أومن بأن عقيدتهم باطلة ، وأن عقيدتى هى الحقيقة ، وأظن أنه لم يـــكن لى ـ بطبيعتى ـ احساس دينى قوى ، والا كان ينبغى لى ـ فى فورة الشباب ـ أن أصدم بالفوارق الواضحة فى مراسم العبـــادات والصلوات التى كان يمارسها مختلف رجال الدين الذين اتصلت بهم ، هذا ماكان يحدو بى الى الشك والا لما كان لهذا الخاطر البسيط الذى طرأ على ، كل هذه النتـائج الخطيرة لقد خطر لى أنه كان من الممكن أن أولد فى جنوبى ألمانيـــا ، وأن أشب كاثوليكى المذهب بطبيعه الحال ، وعندئذ وجدت أنها قسوة شديدة أن يكون العذاب الأبدى مصيرى لسـبب خارج عن ارادتى وثارت طبيعتى اللوذعية ضد هذا الظلم ، وكانت الخطوةالتالية بسيطة سهلة ، فقدانتهيت الى نتيجة هى أن عقيدة أو جنسية الانسان ليست لها أية أهمية •• فانالله لايمكن أن يعذب انسانا لانه اسبانى ، أو من شعب الهوتنتوت ، وكان يمكن أن أتوقف عند هذا الحد ، ولو كنت أقل جهلا ، لاعتنقت لونا من ألوان الايمان بالله ـ فقط ـ كما كان الحال فى القرن الثامن عشر • ولكن العقائد التى امتلأت بها نفسى منذ الصغر ، كانت متآزرة بعضها ببعض ، بحيث اذا حاولت احداها التمرد ، تصدت لها الباقيات وأعادتها الى الحظيرة، وكان الاساس الرهيب الذى قامت عليه هذه العقائد كلها ، ليس حب الله والأمل فى رحمته ، وانما الخوف من عذاب الجحيم •• فلا عجب أن انهار هــــذا الاساس كأنه بيت مصنوع من أوراق اللعب •

- ٦٣ -

كان هذا الخوف هو الذى حاولت طرده من أعماق نفسى ، حتى اذا التحقت بكلية الطب ، وجدت نفسى فى عالم جديد ، وقرأت عددا كبيرا من الكتب ، وعلمت منها أن الانسان آلة ، خاضعة لقوانين الآلات ، فاذا إستهلكت الآلة ، فمعنى هذا نهايته كانسان ، وقد رأيت كثيرا من الناس يموتون فى المستشفى ، وهذا ما جعلنى ازداد اقتناعا بمـــا جاء فى تلك الكتب •

وبدأ يخامرنى الشك فى وجود الله ، ولكن سرعان ما واجهت نفسى بهذا السؤال : اذا لم يكن الله موجودا •• فمن الذى سيلقى بى الى عذاب الأبد فى الجحيم ، واذا كان الانسان مجرد آلة ، وأن ظروف الحياة هى التى تدفعها الى الحركة والدوران ، فمـــا معنى الفضيلة والرذيلة والخير والشر الذى تعلمته منـــذ الصغر ، وبدأت أقرأ كتب الفلسفة ، وشرعت

أخوض في غيابات المخلدات الهائلة . وانتهت من هذا كله الى أن الانسان لا يستهدف شيئا غير اللذة ، وانه حين يضحي بنفسه من أجل الغير ، فانما يفعل هذا بناء على وهم جعله يعتقد أنه يفعل شيئا عظيما رائعا سيخلد ذكره ٠

وأنه لما كان المستقبل غيبيا ، فمن المعقول أن يحـــاول الانسان الاستمتاع باللذة التي يقدمها له الحاضر . وقررت ان الخطأ والصواب مجرد كلمات ، وأن قواعد الاخلاق ليست أكثر من مبادىء وضعها الناس لخدمة أغراضهم الذاتية ، وأن الرجل الحر ليس لديه ما يدعـــوه الى مجاراتهم الا فيما يتناسب مع أغراضه ٠ ولما كانت الشعارات شائعة في ذلك الحين ، فقد رايت أن أجعل لنفسي في هذا الميدان ، ميدان العقيدة ــ شـعارا خاصـا بي ، مؤداه : « اتبع ميولك الطبيعية ولا تنس أن رجل البوليس واقف لك بالمرصاد » ولما بلغت الرابعة والعشرين ، كونت لنفسي نظرية فلسفية كاملة تقوم على دعامتين : « نسبية الاشياء بعضها الى بعض ، ومحيط امكانية الانسان » ٠ وقد تبينت فيما بعد أن الدعامة الاولى لم تكن اكتشافا أصيلا ، وقد تكون الثانية شيئا خطيرا ، ولكني عبثا حاولت ــ برغم ما بذلت من جهد عقلي ــ أن أفهم ٠٠ معناها !!

وحدث في احدى المناسبات أن قرأت قصة صغيرة كان لهـا أكبر الأثر في تفكيري ٠ وهي موجـــودة في أحد مجلدات « الحياة الادبية » لأناتول فرانس ٠ لقد مرت سنوات عدة على قراءتي لها ، ولكن ما أذكره منها هو كما يلي :

« كان ثمة ملك شاب في الشرق ، عقد العزم بعد اعتلائه العرش على أن يحكم بالعدل فاستدعى حكماء مملكته وطلب منهم أن يجمعوا حكم العالم في كتب يمكنه أن يقرأها ، وأن يتعلم منها أفضل وسائل الحكم . فانصرفوا عنه ، ثم عادوا بعد ثلاثين عاما ومعهم قافلة من الجمال محملة بخمسة آلاف مجلد ضخم ٠ وقالوا له ان في هذه المجلدات كل ماعـرفه الحكماء عن تاريخ ومصير الانسان . ولكن الملك كان عندئذ مســتغرقا في شئون الحكم فلم يكن لديه فسحة من الوقت لقراءة هذا العدد الضخم من الكتب . ومن ثم أمرهم أن يعملوا على تلخيص مافيها في عدد من الكتب صغير . وبعد خمسة عشر عاما اخرى ، عادوا محملين بخمسمائة مجلد فقط . قالوا عنها للملك انها تحتوي على كل مافي العالم من حكم ولكن الملك استكثرها وطلب منهم أن يعاودوا تركيزها ، وبعد عشرة أعوام عادوا ومعهم خمسون كتابا فقط . ولكن الملك كان قد بلغ مرحلة الشيخوخة والضعف . ولم يكن لديه وقت حتى لقراءة عدد يسير جدا من الكتب ، فطلب منهم أن يعاودوا تلخيصها في كتاب واحد يضم بين دفتيه خلاصة حكم العالم ، وبعد خمسة أعوام عادوا وقد اصبحوا رجالا في أرذل العمر ؛ ووضعوا نتيجة عملهم بين يدي الملك . ولكنه ؛ أي الملك . كان على فراش الموت ؛ ولم تكن لديه فسحة من الوقت لقراءة بضع صفحات من الكتاب . . »

وقد حاولت جاهدا ان أبحث عن مثل هذا الكتاب الذي تركزت فيه

حكم العالم كله ، لعلى أستطيع أن أجد فيه الاجابة على الأسئلة المحيرة لى ، حتى اذا انتهيت من هذه الاسئلة ، بدأت فى تنفيذ الخطة التى وضعتها لحياتى دون عائق او تردد • وظللت أقرأ وأقرأ •• من الفلاسفة القدامى الى المحدثين •• آملا أنى قد أجد بينهم من يروى غلتى • ولكنى لم أجد كثيرا من الاتفاق بينهم • كنت أتمتع احيانا بمقدمات كتبهم ، حتى اذا فرغت منها ، لم أجد شيئا • ان الاثر الذى تركته هذه الكتب الفلسفية فى نفسى ، هى أن هؤلاء الفلاسفة - برغم عمق تفكيرهم، ومنطقية آرائهم - يعتنقون هذه النظرية أو تلك لا لأنها تتفق مع عقولهم وتفكيرهم ، وانما لان مزاجهم أرغمهم على اعتناقها - والا لما أمكننى ان أفهم كيف تتسع بينهم فروق الاختلافات بعد كل هذه الاجيال ، وعند ما قرأت ، ولست أذكر أين قرأت هذا أن «فخت» قال ان نوع الفلسفة التى يعتنقها الانسان يتوقف على طبيعته الذاتية ومزاجه الشخصى ، خطر لى أنى قد أكون باحثا عن شىء لايمكن العثور عليه • وقد بدا لى حينئذ أنه اذا لم تكن فى الفلسفة حقائق عامة لايمكن لكل انسان أن يتقبلها ، وانما بعض الحقائق التى تتفق مع شخصية الفرد ، فان الشىء الوحيد الذى بقى امامى ، هو تضييق نطاق البحث ، ثم محاولة العثور على فيلسوف تتجاوب نظرياته معى ، لانى أتفق معه فى الطبيعة والمزاج ، فلا شك أن اجاباته على الأسئلة المحيرة لى ، ستكون مرضية لانها ستكون الاجابات الوحيدة المعقولة التى تناسبنى ••

واستهوتنى الفلسفة المادية بعض الوقت ، وكنت اذ ذاك لم أظفر بالفائدة المرجوة من كتب الاساتذة الجامعيين الخاصة بما وراء المادة • فقد بدا لى أنهم أكثر تهذيبا وتحفظا من أن يكونوا فلاسفة مجيدين ، ولم أستطع مقاومة ارتيابى فى أنهم - أحيانا - يفشلون فى مواصلة مناقشة الموضوعات الفلسفية العميقة الى نهايتها المنطقية خوفا من استنكار بعض زملائهم المرتبطين معهم بوشائج اجتماعية •

وقد تبينت أن أصحاب الفلسفة المادية على جانب كبير من الجرأة والحيوية ، وكانت أهم ظاهرة فيهم هى اجادتهم للكتابة ، وقدرتهم على بسط المسائل العريضة المعقدة بأسلوب واضح مفهوم ، ولكن على الرغم من هذا كله ، لم استطع ان أدفع نفسى الى الاعتقاد - مثلهم - بأن الحقيقة هى من صنع أيدينا لملاءمة أغراضنا العملية .

لقد وجدت الاساس الذى اقاموا عليه فلسفتهم مهزوزا ، غير واضح ، وأنه يحمل هيكل المعرفة التى تقدم لكى نقبلها دون أن تعرف هل هى ملائمة لك أم لا ، وهكذا توقف اهتمامى بفلسفة الماديين ، وقد استمتعت بقراءة «برجسون» ، ولكنى لم أجد لديه ، أو لدى بنديتو كروس ما يشفى غليلى • ومن ناحية أخرى وجدت براتراند راسل كاتبا أفعم قلبى بالبهجة والسرور فقد كان جيد الاسلوب ، واضح العبارة ، جديرا بما كنت أحس نحوه من اعجاب وانا أقرأ له • وكنت على استعداد تام لان أتخذ منه مرشدا فيما أبحث عنه ، فقد كان يمتاز بالحكمة ورزانة التفكير ، وعمق الفهم والعطف على الضعف البشرى ، ولكنى اكتشفت

فيما بعد أن قيادته لى لن تؤدى بى الى الغاية المطلوبة ، وقد كان غير مستقر الرأى ٠٠ كالمهندس المعمارى الذى تطلب منه أن يبنى لك منزلا، فيقنعك أولا بأن تشيده بالآجر ، ثم لا يلبث أن يقدم اليك سلسلة من البراهين على وجوب اقامته بالاحجار ، حتى اذا اقتنعت ، رأيته يعـــود فيؤكد لك أن المادة الوحيدة الصالحة لبناء منزلك هى ـ الاسمنت المسلح ، وفى خلال هذا كله تكون أنت مقيما بالعراء !! لقد كنت أبحث عن مبدأ فلسفى محكم ، جامع مانع ، كفلسفة «برادلى» التى يرتبط بعضها ببعض بحيث لايمكنك أن تغير فيها شيئا والا انهار البناء كله ٠ وهذا مالم يحققه «برتراند راسل »

وانتهيت أخيرا الى أنى لن أجد أبدا بغيتى ٠٠ لن أجد الكتاب الكامل المقنع الذى يرضينى ، لان هذا الكتاب لايمكن الا أن يكون تعبيرا عن نفسى ، ومن ثم جمعت أطراف شجاعتى وقــررت ان أكتبه بنفسى ٠ واهتديت الى الكتب والمراجع التى وضعت للطلبة الجـــامعيين الذين سيتخرجون فى اقسام الفلسفة ، وشرعت فى قراءتها بهمة ونشاط ٠ وقد خطر لى انى ، بهذه الطريقة ، سأقيم الاساس لكتابى ، وبدا لى انى بهذا ، مع معرفتى بالحياة خلال أربعين عاما « اذ كنت فى الاربعين من عمرى حين اقتنعت بهذه الفكرة » مع دراساتى للفلسفة الفكرية والادبية التى نويت أن أكرس لها بضع سنوات ، سيكون فى مقدورى أن أضـع هذا الكتاب الذى يختمر فى ذهنى ٠ وكنت اعلم ان أهمية هذا الكتاب ـ اذا استثنيت نفسى ـ لن تزيد عن تقديم صورة واضحة محكمة عن النفس البشرية للانسان المفكر الذى عاش حياة حافلة ، وتعرض للكثير من التجارب المتنوعة التى قل أن تعرض لمثلها معظم الفلاسفة المحترفين ، وكنت أعلم تماما اننى لا أتمتع بموهبة التأمل فيما وراء الطبيعة ، ومن ثم قررت أن أقتبس من هنا ومن هناك النظريات التى لم تكن لتتجاوب مع عقلى فحسب وانما مع ماهو أهم من العقل ٠٠ مع كل غرائزى ٠٠ ومشاعرى ٠٠ وميولى ذات الجذور الضاربة فى أعماق نفسى ٠٠ ميولى الخاصة التى تعتبر جزءا من النفس بحيث يصعب تمييزها عن الغرائز ٠ ومن هذا كله أصوغ مبدئى الفلسفى الخاص المناسب لى ، والذى يعيننى على المضى فى الطريق الذى رسمته لحياتى ٠

ولكنى وجدت أنى كلما اكثرت من القراءة فى هـــذا الموضـوع ، ازددت شعورا ـ أو هكذا خيل الى ـ بجهلى ، ومما ساعد على ازدياد هذا الشعور فى نفسى تلك المجلات الفلسفية التى كانت تتنـاول بعض الموضوعات بالبحث المطول ، الذى يدل على أهمية هذه الموضـوعات ، ولكنها ، مع هذا ، كانت تبدو فى ظلمات جهلى سطحية تافهة ، وكذلك تبينت أن الوسيلة التى تعالج بها هذه الموضوعات ، والاساليب المنطقية، والعناية التى تبذل فى بحث كل نقطة من الموضوع ، وفى مناقشــة كل اعتراض محتمل عليها ، والتعبيرات الخاصة التى يحـــدد بها الكاتب معانيه ، والمراجع التى تذكر للاثبات تبينت أن هذا كله قد اثبت لى أن الفلســفة ـ فى كل حالاتها ـ عمل لا يقوم به الا المتخصصون له ، وأن القارىء أو الكاتب العادى لن يكون له الا أبسط الأمل فى فهم خفـاياها

وأسرارها ومن ثم رأيت أنى سأحتاج الى نحو عشرين سنة لأعد نفسى لكتابة المصنف الفلسفى المطلوب وعندئذ أكون ـ كالملك فى قصة أناتول فرانس ـ قد أصبحت على فراش الموت ، وأن هذا الكتاب لم يعد ذا فائدة بالنسبة لى على الأقل .

وتخليت عن هذه الفكرة أخيرا .. وكل ما يمكن أن أثبت به الدليل على كل ما بذلت من مجهود فى ذلك السبيل ، هو هذه الملاحظات التالية التى سوف أقدمها كيفما يكون ، والتى أعترف أنها ليست أصيلة من ناحيتى ، بل ليست الكلمات التى سأعبر عنها هى كلماتى ، فأنا ـ من هذه الجهة ـ كالصعلوك الذى يرتدى بنطلونا استجداه من زوجة مزارع ، وسترة أخذها من « خيال المقاتة » وحذاء غريبـــا عثر به فى صندوق القمامة ، وقبعة وجدها فى الطريق .. انها أمشاج بالية ، ولكنه عرف كيف يرتديها وكيف يجعلها مناسبة ، وكيف يشعر بالراحة والامن فيها، برغم كل ما لديها من عيوب . فاذا به سيد أنيق فى بذلة فاخرة ، وقبعة جديدة ، وحذاء لامع ، يعتقد أن هذا كله شيء رائع ، ولكنه مع هـــذا لا يشعر عن يقين بأن هذه الملابس الفاخرة ، لو أنه ارتداها ، ستريحه وترضيه كهذه الامشاج التى يرتديها فعلا ...

- ٦٤ -

عندما قرأت للفيلسوف «كانت» وجدت نفسى مضطرا الى هجر الفلسفة المادية التى انتشيت بها فى صدر الشباب ، وكل ما يتعلق بها من التفسيرات النفسية والعضوية ، كما أنى لم أكن أعرف اذ ذاك تلك الاعتراضات التى « غربلت » آراءه الفلسفية ، وانما وجدتها فلســـفة ترضى العقل والعاطفة ، وقد أثارنى التفكير والتأمل فى ذلك المجهـــول « ذاتية الشيء » ، وكنت راضيا عن العالم الذى أنشأه الانسان من المظاهر ، لقد ملأت هذه الفلسفة روحى باحســـاس خاص بالحرية ، ولكنى تهكمت من مبدئه القائل بأنه ينبغى أن يسلك الانسان سلوكا قد يصلح لأن يكون نظاما عالميا ، فقد كنت اذ ذاك مفعم الشعور بتباين طبائع البشر فلم أصدق أن هذا ممكن أو معقول ، فقد لاحظت أن ماهو صواب مع شخص يكون خطأ مع شخص آخر . أما عن نفسى فقـــد كنت أرغب فى أن أترك وشأنى ، ولكنى تبينت أن كثيرين لا يتفقون معى فى هذا ، ولو أنى تركتهم وشأنهم لاعتبرونى قاسيا ، أنانيا ، مستهترا بمشاعر الغير .

ولكن الانسان لا يستطيع أن يطيل دراسة الفلاسفة المثاليين دون أن يتصل من قريب أو من بعيد بنظرية « الذاتية » . ان المثاليين كثيرا ما يضطربون على حافتها ، وان الفلاسفة عامة يتجنبونها كما يتجنب الطير شيئا مفزعا ، ولكن جدلهم يعود بهم دائما اليها ، وانى أعتقـــد انهم يفرون منهـا ، لأنهم لا يســـتطيعون المضى فى محاولة اثباتها الى النهاية . وهى نظرية قلما تفشل فى اغراء الكاتب الروائى بها ، ذلك لأنها تتفق دائما مع طبيعة مهنته .. انها تمتاز بشيء من الرشاقة والكفاية

الذاتية تجعلها على جانب كبير من الاغراء والجاذبية . ولما كنت أعتقد انه ليس من الضرورى أن يكون قارىء كتابى هذا على علم بكل الآراء والنظريات الفلسفية ، فانى ألتمس الصفح من القراء المثقفين اذا شرحت لهم فى ايجاز نظرية « الذاتية » هذه . ان المؤمن بهذه النظرية يؤمن فقط بنفسه وبتجاربه . انه ينظر الى العالم على أنه مجرد مسرح لنشاطه . ولكن العالم فى رأيه لا يتكون الا من نفسه وأفكاره ومشاعره ؛ وما عدا هذا ، فلا شىء . ان كل شىء معروف وكل حقيقة وكل تجربة ؛ هى فكرة فى عقله ، أى أنها بدون هذا العقل لا وجود لها . وليس هناك أى احتمال ، أو أى فرض يحتم عليه التسليم بوجود شىء خارج نفسه . لان الأحلام والحقيقة بالنسبة اليه واحدة . فالخيال هو حلم يخلق فيه الاشياء التى تتراءى له ، حلم محكم متصل .. فاذا توقف عن هذا الحلم ، فان العالم بما فيه من جمال وآلام وأحزان ومختلف الاشياء ؛ لم يعد له وجود . انها نظرية متكاملة ، ولكن عيبها الوحيد .. انها غير معقولة !

اننى عندما داعبنى الأمل فى وضع كتاب عن هذه المسائل. اعتقدت أنه ينبغى أن أبدأ من أول السلم .. أعنى سلم الفلسفة طبعا .. ولكنى لم أجد فى أية نظرية فلسفية درستها ما يقنعنى أو يريح ضميرى ، وبدا لى أن الشخص العادى مثلى هو موضع احتقار الفلاسفة الا اذا حدث أن اتفقت آراؤه مع آرائهم ، وفى هذه الحالة يصبح كبير الأهمية غير قادر على ادراك قيمتها ؛ ومن ثم يجب عليه أن يختار من بينها ما يتناسب مع طبيعته ونزواته ، ولكنى اعتقد شخصيا برغم كل ما قرأت ودرست أن هذه النظريات على كثرتها وعمق فلسفتها لا تتيح للانسان أن يثق فى شىء منها . أما ما يدور حول هذه النظريات فى أذهان الفلاسفة فانه مجرد وهم وخيال .

ان هؤلاء الفلاسفة ، حين ارادوا ان يتخذوا اماكنهم فى موكب التطور البشرى راحوا يلتقطون شذرات للصور العقلية من هنا وهناك. لأنها تحقق أغراضهم . ذلك هو عالم الظواهر الذى يعيشون فيه . اما الحقيقة ، فانها فى نظرهم ، مجرد افتراض لسبب وجوده؛ ولعلهم فى بعض الأحيان يلتقطون شذرات أخرى من المعرفة ليعدوا بها صورة أخرى تناسب خيالهم وتتفق مع أغراضهم .

انه من العسير ان تقنع كاتبا مؤلفا بأنه لا توجد ثمة علاقة تجاوب وثيق بين الجسم والعقل ، وأن تجربة فلوبيرت عندما أحس بأعراض التسمم الوهمى بالزرنيخ فى أثناء كتابته قصة « انتحار ايمابوفارى » مثل واضح لما يعانيه المؤلف فى اثناء قيامه بعمله ؛ فان معظم الكتاب يحسون بالبرد ، وبالحمى ، وبالأوجاع ، والآلام ، وغثيان النفس ، أحيانا وهم مشغولون بالتأليف ، كما أنهم على عكس ذلك يدركون الى أى مدى يدينون بروائع انتاجهم الى الحالات المرضية التى تعانيها أجسامهم أحيانا ، ولعلمهم بأن الكثير من مشاعرهم العميقة ومن تأملاتهم التى تبدو كأنها آتية من السماء ، انما تكون فى الواقع نتيجة التراخى أو خمول الكبد ، فانهم قلما يتركون الفرصة للنظر الى « الوحى

والالهام » بعين التهكم والسخرية ، وهذا فى الواقع خير ما يفعلون ، لأنهم ، بهذه الطريقة يعرفون كيف يسيطرون عليهما ويمارسونهما « أعنى الوحى ، والالهام » عند الطلب . وانى شخصيا لم أجد فى مختلف النظريات عن العلاقة بين المادة والروح ، أو الحقيقة والهيولى التى قدمها الفلاسفة لتأملات الرجل العادى ، غير نظرية واحدة جديرة بالاعتبار ، وهى نظرة «اسبينوزا» فى قوله ان المادة المفكرة ، والمادة النامية ، هما من جوهر واحد ، ولكن يحسن بطبيعة الحال أن نسميها — فى الوقت الحاضر — نظرية النشاط المادى . واذا لم أكن مخطئا فى فهمى ، فان «برتراند راسل» عبر باسلوبه المحدث عن نظرية مشابهة لهذه النظرية حين تحدث عن المادة الوسط التى هى خامة العالم العقلى والبدنى معا . ولما حاولت أن أكون لنفسى من هذه النظرية صورة خاصة ، رأيت الروح فى هيئة نهر يشق طريقه فى غابة المادة ، ولكن النهر هو الغابة ، والغابة هى النهر ، لأن النهر والغابة شىء واحد ، وربما لا يكون من المستحيل أن يتمكن بعض العلماء فى المستقبل من صنع خلية حية فى معاملهم ، واذ ذاك يتسنى لنا أن نعرف المزيد من هذه المسائل .

— ٦٥ —

ان اهتمام الرجل العادى بالفلسفة ، هو اهتمام عملى . انه يريد ان يعرف ماقيمة الحياة ، وكيف ينبغى أن يعيش ، وأى احساس يمكن أن يشعر به نحو الوجود ، وعندما يتوقف الفلاسفة بعيدا ، ويرفضون أن يقدموا له بعض الاجابات العامة عن هذه الأسئلة ، فانهم يتنصلون — أى الفلاسفة — من مسئولياتهم . والآن ، فان أهم مشكلة يواجهها الرجل العادى ، هى مشكلة الشر ..

انه لمن العجيب أن نلاحظ أن الفلاسفة حين يتحدثون عن الشر يضربون المثل عنه دائما بوجع الأسنان . انهم يصيبون فى قولهم — حقا — ان الانسان لا يستطيع أن يشعر بوجع أسنان غيره . ويبدو انهم فى حياتهم الآمنة المستقرة ينظرون الى وجع الاسنان على انه الألم الوحيد الذى طالما عانوا منه ، ومن ثم يمكن القول — بعد تقدم طب الأسنان فى أمريكا — بأن المشكلة كلها يمكن أن توضع على الرف لهذا السبب . وقد خطر لى أحيانا ، أنه ينبغى أن يفرض على الفلاسفة ، قبل منحهم درجاتهم العلمية أو السماح لهم بنقل علومهم وفلسفتهم الى عقول الناشئة ، أن يعيشوا عاما أو أكثر فى خدمة سكان المباءات الشعبية ، أو أن يتكسبوا أرزاقهم بالقيام ببعض الأعمال البدنية ، فلو انهم رأوا — على الأقل — طفلا يموت بالالتهاب السحائى فانهم سيواجهون بعض المشكلات التى تهمهم بنظرة أخرى ..

ولولا ان للموضوع أهميته الخاصة فى الوقت الحاضر ، لما كان من العسير أن نقرأ الفصل الخاص عن الشر فى كتاب «الظاهر والباطن» فى شىء من السخرية والمرح انه فصل مهذب أكثر مما ينبغى ، ولكنه

يتركك وانت تعتقد ان من ســوء الخلق أن تقيم وزنا كبيرا للشر ... وانه برغم الاعتراف بوجوده ، لا ينبغى أن نثير حوله كل هذه الضجة. وعلى أية حال ، ليس هناك ما يدعو الى المبالغة فى تصوير الشر ، كما لا ينبغى أن ننكر انه لا يخلو من الخير أحيــانا . ويرى « برادلى » أنه لا يوجد ثمة الم اطلاقا ، وان «الكمال» يزداد ثروة بالتباين والاختلاف، وهو يضرب المثل على هذا ، بالآلة .. فان ما يحــدث فى أجزائهــا من مقاومة وضغط يؤدى الى النتيجة المطلوبة من وجودها وكذلك الحال ــ فى مستوى أرفع ــ مع «الكمال» فاذا كان هذا ممكنا ، فانه حقيقة مؤكدة . ان الخطأ والشر يحققان ــ على نطاق اوسع ــ أغراضا معينة، انهما يؤديان دورا فى آفاق عليا من الخير ، وهما من هذه الناحية جزء من الخير . وعلى الجملة ، فما الشر الا خدعة من حواسنا لا أكثر ..

وقد حاولت أن أعرف راى فلاسفة المدارس الأخرى فى هذا الأمر، ولكنى لم أجد فى آرائهم شيئا كثيرا . ومن المحتمل الا يكون هناك الكثير مما يقال فى هذا الشأن ، كما أن من عادة الفلاسفة أن يركزوا اهتمامهم فى الموضوعات التى يستطيعون فيها ان يجولوا وأن يصولوا ! ومع ذلك فانى لم أجد فى القليل من آرائهم عن الشر الا الأقل مما يقنع . ولعل الشرور التى نتحملها تكون دروسا لتحسين أنفسنا ، ولكن الشــواهد لا تسمح لنا باعتبــار هــذا مبدأ عاما ، وقد تكون صــفات الشجاعة والعطف من أجمل الصــفات ، ولكن اكتســابهما لا يكون الا عن طريق المخاطرة والاحســاس بالالم ، وانه لمن العســير أن ندرك كيف يمكن لصليب الشجاعة الحربى أن يسعد أو يواسى جنــديا فقد بصره وهو يعمل على انقاذ زميل له كفيف من خطر الموت .

ان الاحسان على المتسولين دليل على الرأفة ، والرأفة فضيلة، أى نوع من الخير ، ولكن هل هــذا الخير يعوض الألم أو الشر الذى يعانيه الكسيح الذى استدعت فاقته هذا الاحسان ؟! ان الشر موجود فى سمات مختلفة : منها الألم والمرض وموت الأعزاء ، والفقر والجريمة، والرذيلة والآمال المكبوتة وغير هذا مما لا يكاد يعد ولا يحصى من آلام البشر ، فما التفسير الذى يقدمه لنا الفلاسفة ؟ بعضهم يقول انالشر ضرورة منطقية لكى نعرف عن طريقه الخير ، وبعضهم يقول ان الحياة بطبيعتها صراع بين الخير والشر ، وانه لا مندوحة لأحدهما عنالآخر. فما هى التفسيرات التى يقدمها الينا علماء اللاهوت ؟ ان بعضهم يقول ان الله خلق الشر فى الدنيا لتدريبنا ، وبعضهم يقــول انه خلق الشر لمعاقبة عبــاده المذنبين الخاطئين ، ولــكنى رأيت طفلا يموت بالالتهاب السحائى !! ووجدت تفسيرا واحدا فقط هو الذى يتفق مع تفكيرى وخيــالى .. انه المذهب القــائل بتناسخ الأرواح . فكما يعرف كل انســان ، فان هــذا المذهب يفترض ان الروح لا تخلق مع الولادة ، ولا تنتهى عند المــوت ، وانمــا هى حلقة فى سلسلة لانهائية من ألوان الحياة ، كل حياة منها يقرر مصيرها بافعال الحياة الســابقة عليها . فالأفعال الطيبة قد ترتفع بالانسان الى مدارج السموات العلى، والأفعال الشريرة قد تهبط به الى قرار الجحيم ، ثم تأتى جميع ألوان الحيــاة الى نهاية مقررة تبدأ بعدها ألوان من السعادة الخالية من آلام التناسخ،

وذلك حيث تستقر الروح راضية مرضية فى عالم الخلود «النيرفانا» ان الانسان عندئذ يستطيع أن يحتمل آلام حياته ما دام يعلم أنها نتيجة أخطائه وشروره في حياة سابقة ، وكذلك تتضاعف رغبته فى عمل الخير مادام يعلم أن هذا الخير سيتيح له السعادة وحسن انجزاء فى الحياة التالية . ولكن اذا كان الانسان يشعر بآلامه بأقوى مما يشعر بآلام الغير « فأنا لا أشعر بأوجاع أسنان غيرى كما يقول الفلاسفة » ، فلا أقل من أن تثير آلام الغير مشاعر العطف فى نفس الانسان ، ان من الممكن أن يحتمل الانسان فى استسلام ، ولكن الفلاسفة فقط ــ المؤمنين بالكمال المطلق » ــ هم الذين يشعرون بآلام الغير كأنها آلامهم ، ومن ثم يؤسفنى القول بأنى لا أستطيع ان أومن بمذهب هؤلاء الفلاسفة المسمى «كارما» بالقوة التى لم أستطع أن أومن فيها بنظرية « الذاتية » التى تحدثت عنها آنفا .

- ٦٦ -

ولكنى لم أفرغ بعد من معالجة موضوع «الشر» . وتبرز المشكلة بكل قوتها حين نتناول موضوع الايمان بوجود الله . فالمؤمنون بالله يحبون أن يتعرفوا على صفاته «سبحانه وتعالى» . وقد جاء الوقت ــ كما جاء فى حياة كل انسان ، الذى قرأت فيه الكثير من مؤلفات علماء الطبيعة والفلك . واعترف انى احسست بأشد الرهبة وأنا أتصور الأبعاد الرهيبة التى تفرق بين النجوم والكواكب ، والمسافات الزمنية التى يستغرقها الضوء فى الوصول الينا . وكاد ذهنى يشرد من فرط الروع حين حاولت أن أتخيل اتساع السديم ، فاذا كنت قد فهمت ما قرأت كما ينبغى ، فيجب أن أفترض أن قوى الجاذبية الكونية تتساوى تماما مع قوى الدفع بحيث يبقى الوجود أجيالا لا حصر لها فى حالة تامة من الموازنة والاستواء ، ثم يأتى الوقت الذى تضطرب فيه هذه الموازنة ، فينتهى عالمنا هذا ليحل محله عالم جديد لا يكاد علماء الفلك يعرفون عنه شيئا الا تخمينا . ولكن ما هو الشيء الذى سبب خلق الحياة ، وقد يؤدى الى اختلال قوى التوازن فى الوجود ؟ اننى لاأتمالك نفسى من الشعور بوجود خالق ، وأن الخالق الذى يستطيع أن يخلق هذا الوجود العظيم المهيب الواسع فوق ما يتصوره العقل لابد أن يكون خالقا عظيما قويا ليس كمثله شيء فى الارض ولا فى السماء .

والخالق القوى تتسع رحمته لكل مافى المخلوق من ضعف وحماقة . .

ان رجال الدين يقولون ان الناس عاطفيون ، متقلبون ، ضعاف الاخلاق ، حمقى ، بؤساء . ولكنى أعتقد أن محاولة تسليط غضب الخالق عليهم لا يتفق مع العقل والمنطق ، فانه ليس من العسير على الانسان أن يغفر أخطاء غيره ، فانت حين تضع نفسك فى موضع المخطىء ، فانه يسهل عليك أن ترى الدافع الى ارتكابه ما كان ينبغى ألا يرتكبه ومن ثم تلتمس له كل ما يسعك من الأعذار . وهناك غريزة طبيعية تثير غضبك اذا اساء اليك احد وثبتت فى نفسك الرغبة فى الانتقام وانه من الصعب على الانسان أن يقف فيما يجرى عليه موقف الاستهتار ،

وعدم المبالاة ، ولكن القليل من التأمل يتيح للانسان أن ينظر الى الموقف من زاوية خارجة عن شعوره الخاص ، وعندئذ لا يصعب عليه أن يغفر للمسيء ، ولكن العجيب انه ليس هناك أصعب من أن يغفر الانسان للناس الذين أساء هو اليهم ! ان القدرة على هذه المغفرة تحتاج الى قوة عقلية ضخمة .

ان كل فنان يحب أن يؤمن به الناس . ولكنه لا يغضب من أولئك الذين لا يقبلون ما يقدمه اليهم ، ولهذا أعتقد أن الله ، وهو الفنان الأعظم وله المثل الأعلى ، لا يغضب اذا لم يؤمن به بعض مخلوقاته ، لأنه سبحانه ، فى غير حاجة الى ايمانهم ليؤكد ذاتيته العلية ، واننى لا أستطيع أن أومن بأله يغضب منى لانى لا أومن به . لا أستطيع الايمان باله لا تتسع رحمته للجميع ، لا يدرك حقيقة آلام البشر . وقد عبر «بلونارك» ، منذ أمد بعيد ، عن هذا الرأى احسن تعبير بقوله : « اننى افضل كثيرا أن يقول الناس انه لم يكن فى هذه الدنيا شخص اسمه «بلونارك» على أن يقولوا ان بلونارك كان وضيعا مترددا ، متقلبا ، سريع الغضب ، لا يتردد فى الانتقام لأقل اساءة ، ولايتورع عن الاستياء من أقل سبب » ..

ولقد أثار كثير من الفلاسفة ألوانا من الجدل للدلالة على وجود الله . وسوف أحاول أن أقدم موجزا لآرائهم فى هذا الموضوع . فأحدهم يرى أن فى أعماق الانسان فكرة عن « الكمال المطلق » ومادام التفكير لايدور الا حول شيء موجود ، فالكمال المطلق ، أى الله ، موجود . ويرى آخر أن لكل شيء سببا ، وما دام الوجود شيء موجود فعلا ، فلا بد أن هناك سببا لوجوده ، وأن المسبب هو الله . وهناك رأى ثالث يراه الفيلسوف « كانت » وهو اوضح الآراء واقدمها واقربها الى طبيعة الانسان وتفكيره ، هو الرأى الذى ورد على لسان أحد شخوص الفيلسوف «هيوم» فى مساجلاته المشهورة « ان النظام المحكم للطبيعة والنتائج المدهشة لنهاية المسببات ، والفائدة الواضحة والفرض المحدد لكل عضو ، كل هذا دليل أكيد على قدرة الخالق الأعظم ، ولكن «كانت» ينتهى الى القول بأنه ليس هناك ما يمكن ان يقال عن هذا الرأى ، بعكس ما يمكن أن يقال عن الرأيين الآخرين . انه يقدم رأيا آخر بدلا منهما ، ومؤداه فى كلمات قليلة ، أنه بدون الله لا يمكن أن يكون لدى الانسان احساس بالواجب ، وهو الذى يضفى على الانسان شعوره بالحرية والذاتية ، ومن ثم فان الواجب يحتم الايمان بوجود الله . وقد كان صدى هذا الرأى فى عالم الفلسفة أنه يتجاوب مع طبيعة «كانت» الوثيقة أكثر مما يتجاوب مع ذكائه المتألق . أما الرأى الذى بدا لى أكثر اقناعا من غيره ، فهو الرأى القائل بأن جميع الناس منذ أقدم العصور والأصول كان لديهم نوع من الايمان بالله . وأنه لمن العسير أن نفكر فى أن ايمانا ينمو مع الطبيعة البشرية .. ايمانا يتقبله احكم الناس واذكاهم واوفرهم عقلا فى الشرق ، والفلاسفة فى اليونان ، وعظماء الفكر فى مختلف انحاء العالم على مر العصور والأجيال ، لا يكون له أساس سليم من الحقيقة . ان هذا الايمان بالله قد يبدو للبعض نوعا من الغريزة ، وربما صح هذا « وأقول ربما لأنه فى الواقع ابعد مايكون عن الغرائز » ذلك لأن الغريزة

لا توجد ما لم يكن هناك دافع على وجودها . وقد دلت التجارب على ان الايمان بعقيدة ما — مهما طال أمد هذا الايمان — ليس دليلا حتميا على صحتها ، ولكن ينبغي أيضا أن نشير الى حقيقة بديهية ، وهي أن عدم القدرة على اثبات وجود شيء لا يعنى عدم وجود هذا الشيء واقول هذا لأولئك الذين يطالبون بأدلة حاسمة على وجود الله . فهناك الشعور بالرهبة وعظمة خالق الكون ، وهناك الاحساس بالضعف والاستسلام أمام قوة أكبر ، وهناك الرغبة الملحة فى الوصول الى التجاوب التام بين الانسان والكون ، فمثل هذه العوامل — وليست عبادة الطبيعة أو الأجداد أو السحر أو المادة — هى المنابع الحقة للدين والايمان . انه ليس هناك سبب فى أن ما تعتقده يتحتم وجوده، ولكن من الصعب القول بأنه ليس من حقك أن تؤمن بما لا يمكنك اثبات وجوده ، فليس هناك اى سبب يمنعك من الاستمرار فى الايمان برغم شعورك بأن ما تؤمن به لا يزال فى حاجة الى دليل اثباته . واعتقد انك اذا كنت من هذا النوع فانت فى حاجة الى ما يخفف عنك آلام المحن ، والى حب يشد من أزرك ويبث فى نفسك الشجاعة ، وعندئذ لن تسأل عن الأدلة ، ولن تحتاج اليها ، لأنك ستجد فى نور بصيرتك ما يكفيك ويرضيك .

ان التصوف مذهب فوق الحاجة الى الادلة ، وهو فى الواقع لا يطالب بأكثر من رسوخ العقيدة . انه فى غير حاجة للاعتماد على العقائد والمذاهب الأخرى ، لأنه لا يريد أن يكون عالة عليها ، ولأن له — أى للتصوف — من القوة مايرضى كل طبيعة وفطرة . انه الشعور بان هذا العالم الذى نعيش فيه ليس الا جزءا من عالم روحى لا نهائى، ومن هذا يستمد دلالته . انه الاحساس العميق بوجود الله الذى يعيننا ويخفف عنا . وكثيرا ما تحدث الصوفيون عن تجاربهم ، وأنا شخصيا لا استطيع أن ارى كيف يمكن الانسان أن ينكرها . والواقع أننى قد مررت بتجربة لا أستطيع أن اصفها الا بالعبارات التى يصف بها الصوفى وجده وهيامه ، فقد حدث انى كنت جالسا فى مسجد خال من الناس بالقرب من القاهرة عندما شعرت فجأة باحساس من الذهول المفعم بالفرح والهيام كذلك الذى أحس به القديس اجناتيوس ليولا وهو جالس على ضفة نهر مانريزا . لقد غمرتنى احساس عنيف بقوة ومعنى الوجود ، وبشعور عميق بالتجاوب بينى وبينه ، وأستطيع القول بأننى احسست بنفسى فى حضرة الله العلية ، وهو احساس عادى بدون شك ، وقد حرص المتصوفون على الاهتمام به اذ كانت له نتائج ايجابية واضحة . وخطر لى أن شعورى يمكن أن يكون ناشئا عن أسباب أخرى لا علاقة لها بالدين ، فان القديسين انفسهم كثيرا ما إعترفوا بأن مثل هذا الشعور يغمر الفنانين فى بعض الأحيان ، وكذلك الحب ، كما نعرف ، يثير أحيانا حالة نفسية قريبة من هذا الاحساس حتى ليجعل المتصوفين يعبرون بألفاظ الحب والمحبة عن رؤاهم الروحانية البديعة ، ولم أكن أعرف ان هذا الشعور الخفى كان أعمق واقوى من ذلك الشعور الذى لم يستطع ان يفسره علماء النفس ، من اى احساس آخر سبق أن شعرت به . انه يشبه احساسك القوى بأنك فى زمن ما ، مررت بتجربة توشك أن تمر بها مرة أخرى . ان

روحانية المتصوف حقيقة واقعة ، ولكنها ثابتة لديه فقط ؛ وان المؤمن الذى يبلغ ايمانه حد التصوف ، والملحد ليتفقان معا فى انه برغم كل الجهود العقلية التى بذلت فى هذا المجال ، فانه لا يزال باقيا من الأسرار ما يند عن العقل البشرى ..

وبمواجهتي لهذا ، وبرهبتي لعظمة الوجود ، وبعدم اقتناعي بأقوال الفلاسفة وأحيانا بأقوال بعض القديسين ، كنت أعود احيانا الى الوراء الى ما قبل الانبياء والرسل : محمد وعيسى وموسى ، والى ما قبل آلهة الاغريق جيوفا وبعل ، الى الروح العليا .. روح الأرواح .. الخالقة ذاتها ، الغنية عن كل ما حولها ، التى ينطوى فيها كل شىء لأنها نبع الحيـاة فى كل شىء حى ؛ هـذه الروح لها من العظمـة والسمو ما يرضى الخيال والعقل السليم . ولكننى اشتغلت بالكتـابة طويلا بحيث أصبحت لا أخدع بما تنطوى عليه من معـان ، وانى حين انظر الى هذه الكلمات التى كتبتها لا يسعنى الا أن ارى أن معانيها دقيقة رقيقة . وفى المسائل الدينية ، فوق كل شىء ، ينبغى أن تكون الكلمات المعبرة عنها متسمة بالصدق المطلق ، ونخرج من هـذا كله بأن الاله الأوحد العظيم الرحيم موجود يقينـا كيقين الانسان بأن اثنين يزيدان اثنين ، يساويان أربعة . اما فيما عدا هذا ، فانى أعترف بعجزى عن اقتحام عالم الأسرار التى فوق مستوى العقل البشرى .

- ٦٧ -

ان الايمان بالله لا يحتم الايمان بالخلود . ولكن من الصعب أن نفصل أحدهما عن الآخر ، ذلك أن الايمان بالله يقتضينا أن نؤمن بأن الحياة الأخرى هى من أقوى الادوات التى يتعامل بها الله مع الجنس البشرى . فهذه الحياة الاخرى هى المجال الذى يثيب الله فيه المحسنين ، ويعاقب المذنبين ، ومن هذا يتبين أن الجدل حول الخلود بسيط واضح ما دام الايمان بالله قد أصبح مقررا . ولكنى مع هذا ، سأحاول أن أقدم موجزا لألوان الجدل والآراء التى دارت حول مسألة الخلود . ويقوم أحد هذه الآراء على أساس « كمال الحيـاة » . فنحن مشـوقون الى تحقيق آمالنا فى أنفسنا ، ولكن قوة الأحـداث ، وحـدود امكانياتنا يثيران فينا الشـعور بالكبت والعجز ؛ ولكن الحيـاة الأخرى سـوف تعوضنا عن هـذا الشـعور وتوازنه . وهكذا قال «جيته» الذى فعل الكثير فى هذه الدنيا ، انه لا يزال امامه الكثير مما سيفعله فى الأخرى ؛ ويشبه هذا الرأى ، الرأى الآخر القائم على أساس الرغبة : فنحن اذا كنا نتصور الخلود ونرغب فيه ، فمعنى هذا أنه موجود . ويمكننا أن ندرك سر لهفتنا الى الخلود عن طريق احتمال ما سوف يتحقق من رغباتنا ، وثمة رأى ثالث يقوم على اساس الشعور بالاستياء والاستنكار والحيرة والألم ، الذى يستبد بالأخيـار من الناس وهم يرون الظلم والقسـوة والشر الذى يسود الحياة الدنيا .

ان الأشرار القسـاة الظالمين يزدهرون فى هـذه الحيـاه ازدهار

الشجر والثمر فى فصل الربيع . والعدالة تقتضي وجود عالم آخر يثاب فيه المحسنون ، ويعاقب فيه الأشرار . ولا يمكن احتمال الشر الا اذا كان هناك احساس او ايمان بوجود عالم آخر يعوض الانسان عن هذا الاحتمال . ثم هناك الرأى المثالى القائل بأن الشعور بالوجود لا يمكن أن يخمد مع الموت ، لأن تلاشى الشعور غير معقول مادام الشعور يستطيع أن يدرك وأن يتصور هذا التلاشى فى الشعور ؟ وأحب أن أوضح هذه النقطة قليلا فأقول ان كل ما يمكن أن يتصوره العقل أو يحس به الشعور ، هو موجود، وما دام العقل يدرك والشعور يحس بعدم تلاشى الشعور ، فان عدم « التلاشى » للشعور موجود ، أى أن الشعور لا يتلاشى أو يخمد مع الموت ، ويستطرد هذا الرأى فيؤكد أن القيم موجودة ليدركها العقل ، وأنه كلما كان العقل ممتازا ازداد ادراكه لقيم الأشياء فاذا كان الله هو الحب ، فان للبشر قيمة لديه سبحانه، ومن ثم فانه لا يرضى ، وهو العقل الكامل ، ان يكون مصير البشرية هو العدم والفناء ، ولكن هناك نقطة واحدة تحتاج الى مناقشة فى هذا الرأى ، فان التجارب المعروفة لا سيما تجارب الفلاسفة ، تدل على أن الغالبية العظمى من الناس ليسوا من الأبرار الأطهار ، ومن ثم فانه من الحماقة ان يؤمن الأشرار بفكرة الخلود ، ذلك لأنهم يدركون أن معنى الخلود ، هو أنهم سينالون فيه ما يستحقون من العقاب على ما جنت أيديهم فى هذه الحياة الدنيا ، ولهذا فان الفلاسفة يؤكدون الخلود ويؤكدون ما سوف ينعم فيه الأبرار من سعادة لانهائية ، ومن ثم فان هؤلاء الابرار يقضون حياتهم المحدودة فى هذه الدنيا سعداء بالأمل فيما سينالونه من نعيم خالد فى الحياة الأخرى .

ولكن عندما نحاول أن نبحث عن الصفات التى ستكون «تصريحا» بالمرور للقلة من الأبرار الى عالم الخلود السعيد ، وجدنا أن الفلاسفة قد حصروا هذه الصفات فى انفسهم فقط ، ومن حق الانسان – عندئذ – أن يتساءل عما سوف يشغل به الفلاسفة أنفسهم حين ترسل بهم فضائلهم الى عالم الجزاء الحسن ، فان الموضوعات التى كانوا يشغلون انفسهم بالبحث حولها فى الحياة الدنيا ، سوف تتكشف لهم فى الحياة الأخرى ، أى لن يكون ثمة ما يشغلهم ، فماذا سوف يفعلون ؟ ، لعلهم سيتلقون دروسا فى الموسيقى عن بتهوفن ، أو فى الرسم عن ميكالنجلو، ما لم يكن هذان الفنانان قد تغيرا كثيرا وأصبحا غير صالحين لهذه المهمة .

ان هناك اختبارا معروفا يستطيع الانسان به ان يتحقق من يقينه فى امر ما . وهو أن يلقى على نفسه الاسئلة المختلفة التى يوازن بها كل الاحتمالات المتعلقة بموضوع أو مهمة ينوى القيام بها ، فمثلا هل يشترى الانسان بيتا – بالسمع – دون أن يكلف محاميا دراسة عقود البيع ، أو مهندسا معماريا فحص الأساس والجدران ؟ ان الآراء عن الخلود قد تكون ضعيفة اذا ناقشتها الواحد بعد الآخر ، ولكنها تبدو أكثر قوة واحكاما اذا نظرت اليها مجتمعة ، وهى تبدو فى رأيى جذابة مغرية كاعلان التاجر البارع عن سلعته فى الصحف ، ولكنى شخصيا لا أستطيع مثلا – ان افهم كيف يستمر الشعور الانسانى بعد الوفاة ،

فأنا شـــديد الايمان بالعـلاقة الوطيدة بين الجســم والعقل ، بحيث لا أستطيع أن أتصور كيف يستطيع شعورى ، أو جزء منه ، أن يبقى حيا ، بعد موت الجسم .

ان الخلود الوحيد الذى يبدو معقولا فى نظرى ، هو الخلودالكامل للشخصية الإنسانية .

- ٦٨ -

واذا حاول الانسان صرف نظره ، او فكره ، عن مناقشة وجود الله واحتمالات الخلود فانه ، حينئذ ، لن يملك نفسه من التســاؤل عن معنى وفائدة الحياة ، فاذا كان الموت يضع نهاية كل شيء أى اذا لم يكن هناك أمل فى خير أرتجيه ، أو شر أخشاه ، فلن يسعنى الا أن أتساءل عن سبب وجودى وعن كيف ــ فى هذه الظروف ــ ينبغى أن أحدد سلوكى وتصرفاتى ، والاجابة على أحد هذه الاسئلة ، تبدو ــ فى رأيى الخاص ــ واضحة جلية وان كانت غير مقبولة بحيث لايستطيع معظم الناس مواجهتها ، هذه الاجابة هى انه ليس هناك اى سبب أو معنى للحياة ، فنحن البشر المقيمين فترة محدودة على هذا الكوكب الدائر حول نجم صغير ــ أى الشمس ــ هو بدوره كوكب بين عدد لا يحصى من الكواكب فى هذا الوجود . ومن المحتمل ان يكون الكوكب الارضى هو الوحيد بين الاجرام السماوية الذى تنبض على سطحه الحياة، وقد تكون فى اماكن اخرى من الوجود أجرام سماوية أخرى لها ــ أو على سطحها ــ الامكانيات التى تكون الظروف الملائمة للمادة التى تكون منها الانسان على مر العصور . واذا صدق الفلكيون فى أحاديثهم وآرائهم ، فان الكرة الارضية ستصل فى يوم ما الى حالة تصبح الحيـاة فيهـــا معدومة تماما ، وأن الكون سيبلغ فى النهاية هذه المرحلة التعادلية التى لا يحدث فيها المزيد من الأشياء . وقبل أن يحدث هذا ، يكونالجنس البشرى قد انقرض تماما قبل عصـور لا حصر لها ، فهل من الممكن أن أعتقد انه كان لوجوده على سطح هذه الكرة الأرضية أية أهمية ، انه سيكون مجرد فصل لا معنى له فى تاريخ الوجود ، كالفصل الذى كتب عنقصص حياة وحوش ماقبل التاريخ التىعاشت فترة ما ثم انقرضت

وينبغى أن أسأل نفسى ، عندئذ ، عن اهمية هذا بالنسبة لى ، عن كيف أستطيع ان اتجاوب مع هذه الظروف ، اذا أردت أن أستفيد من حياتى بقـدر الامكان ، وان اظفر منها بقدر ما أستطيع ، ولست انا الذى اتحدث هنا ، وانما هى الرغبة العميقة الكامنة فى نفسى ، وفى نفس كل انســان ــ للاحتفاظ بالذاتية الانســانية . انها الانانية التى ورثناها منذ أقدم العصــور .. عنـدما بدأ التطور فى الماضى السحيق يتخذ سبيله المرسوم ، أنها الرغبة فى تحقيق الذات وحفظ النوع التى تكمن فى أعماق كل شيء حى لتحفظ عليه الحياة وتؤكد له بقاء النوع . انها جوهر الانسان ، وان ارضاءها هو ارضاء النفس الذى قال عنــه اسبينوزا أنه أقصى ما نطمح اليه ونأمل فيه فليس هنـاك من يحاول

أن يحفظ ذاته لتحقيق أى غرض معين » ويمكننا القول بأن الاحساس قد خلق فى الانسان ليكون اداة تمكنه من التجاوب مع الظروف المحيطة به ؛ لا لتناول المشكلات الضخمة الخاصة بتصرفاته ، ولكن يبدو أن الانسان مع مرور الزمن فاق مطالبه العاجلة ، وأنه مع نمو الخيال . راح يوسع فى المحيط الدائر حوله لكى يصل الى ما وراء المحسوسات، ونحن نعرف نوع الاجابات التى حاول أن يقنع نفسه بها عن الأسئلة التى وضعها لنفسه ٠ وقد بلغ من قوة الشعور المصطخب فى نفسه انه لم يعد فى النهاية يشك فى أهميته ، وكذلك بلغ من احساسه القوى بذاتيته حدا جعله لا يستطيع أن يتصور امكان فنائه ، وتعتبر هــذه الاجابات بالنسبة للكثيرين ، ترضية ، لأنها تمنح الحيــاة معنى وترضى كبرياء البشرية .

والكثير من الناس يفكرون قليلا . انهم يتقبلون وجودهم فى الحياة بغير تساؤل ، انهم كالعبيد المكفوفين الذين تدفعهم أعباء الحياة ــ وهى مصدر معيشتهم ــ هنا وهناك لارضاء رغباتهم الطبيعية ، فاذا خفتت حدة هذه الرغبات ، بدءوا ينطفئون كما ينطفىء نور الشمعة. ان حياتهم مجرد غرائز خالصة . ومن المحتمل ان تكون نظرتهم هذه الى الحيــاة هى النظرة الأحكم والأصح ، ولكن اذا كان شعورك قد نما وتطور الى حد كبير .. الى حد أن بعض الاسئلة المعينة سوف تثقل عليك، وأنك لا تجد الاجابات القديمة عليها كافية ، فمــاذا يمكنك أن تفعل ؟ أية اجابات يمكنك أن تقدم . ان اثنين من أحكم وأعقل الناس الذين عاشوا فى هذه الدنيا قد أجابا على أحد هذه الأسئلة على الأقل ، وأنت حين تنظر الى هذه الاجابات ، ربما لا تجــد فيها شــيئا كثيرا ؛ فاننى أنا نفسى لست واثقا من أن فيها الشىء الكبير . لقد قال أرسطو : « ان نهــاية النشاط الانسانى هو التصرف الحكيم » ، وقال جيته : « ان سر الحياة هو فيها ذاتها » . أى فى نبض الحيــاة . واعتقد أن «جيته» يعنى أن الانسان يحقق اكثر ما يمكن من الحياة حين يصــل الى تحقيق ــ أو تأكيد ذاتيته .. انه لا يشعر باحترام كبير لحياة تسيطر عليها نزوات عابرة ، وغرائز جامحة ، ولكن صعوبة تحقيق الذات البشرية ــ أى البلوغ بالحواس والتفكير الى الكمال للظفر من الحيــاة بكل ما فيها من بهجة وجمال الانفعالات والاهتمامات هو أن مطانب الناس الملحة تقيد نشاطهم فى هذا الســبيل .

ان المثاليين الذين استهوتهم هذه النظرية المعقولة، ولكن أخافتهم نتائجها قد أسهبوا كثيرا فى محاولة اثبات أن الانسان فى تضحيته وفى أنانيته ، يحقق ذاتيته تحقيقا كاملا ، ولكن ليس هذا ــ بالتأكيد ــ ما كان يعنيه «جيته» ، كما لا يبدو أنه حق ، ولكن القليل منــا من يفكرون أن فى التضحية بالذات لونا من البهجــة والرضا ، وأنهــا قد تتيح لنا ميدانا جديدا للنشاط والفرص نطور فيه جانبا جديدا من نفسنا ، وهذا قد يجعل لتحقيق الذات قيمة . ولكن اذا كنت تهدف الى تحقيق ذاتيتك عن الطريق الذى لا يجعلهــا يتدخل فى محــاولات الآخرين لتحقيق هذا الهدف نفسه ، فانك لن تصل الى شىء كثير .

ان الوصول الى هـذا الهدف يستلزم الشيء الكثير من التهور والاسراف فى الانانية وحب الذات الذى يسيء الى الآخرين ، ومن ثم الى ما يجعل الانسان يبدو متناقضا مع نفسه وأفعاله ، واننا نعرف جميعا أن أولئك الذين اتصلوا بجيته ، كانوا يستنكرون قسوته وانانيته بعنف .

— ٦٩ —

لعلى قد ابدو متعاظما لأنى لا احاول أن انهج سبيل من هم أحكم وأعقل منى ، ولكن برغم التشابه الكبير بين الناس ، فانك لا تجد اثنين متماثلين تماما « وان بصمات الأصابع هى الدليل على هذا » . وانا لا أجد أى سبب يجعلنى ــ بقدر ما استطيع ــ لا أختار طريقى بنفسى، وهـذا ، على ما أعتقد ، قد يوصف بأنه نوع من تحقيق الذاتية متبل بروح من التهكم اللاذع ، ولكن السـؤال الذى يواجهنى الآن ، والذى حاولت أن اتجنبه منذ بدات هذا الكتاب . ولكن لم يعد هناك مفر من مواجهته الا بالتراجع عنه . وانى لأشعر انى ، هنا وهناك ، قد نظرت الى ارادة الانسان الحرة على انها شيء طبيعى . لقد تحدثت كأنما لدى القدرة على أن أصب رغباتى وتصرفاتى المباشرة ونزواتى فى القالب الذى أريده ، وفى نواح أخرى ، تحدثت وكأنى أومن بالارادية ومثل هـذا التناقض « المهوش » كان يمكن أن يحتمـل لو أنى كنت اضع كتـابا فلسفيا . وهذا ما لست أزعمـه ، ولكن كيف يمكن وأنا الفيلسـوف الهادىء أن اضع الاجابة الكاملة لسؤال لا يزال الفلاسفة يديرون حوله فنون الجدل ؟. ان رجاحة العقل تشير الى انه من الأفضل ترك هذا السؤال وشأنه ، ولكن الذى حدث هو ان لهذا السؤال بالذات علاقة كبيرة بعمل الكاتب الروائى ، لانه ــ كروائى ــ يجد نفسه مدفوعا ــ برغبـات القـراء ــ الى استخدام الأسلوب الارادى ، وقد ذكرت فى الصفحات الاولى من هذا الكتاب : كيف يأبى المتفرجون على المسرحية أن يخضعوا للمؤثرات المفتعلة على المسرح : ان الانفعال مجـرد حافز لسلوك لا يكاد صاحبه يحس به . انه شبيه بذلك الالهام الذى يجعلك تحكم على شيء دون ان تعرف الاساس الذى تبنى عليه حكمك ، ولكن برغم أن للانفعال حافزه الخاص . فان جمهور المتفرجين يرفضون قبوله لانهم لا يدركون سره . ان النظارة فى المسرح . وقراء الكتاب يصرون على أن يعرفوا أسباب التصرف والسلوك . وأن يعترفوا بامكان احتمالها ما لم تكن لهذه الأسباب وجاهتها ، وعلى كل شخصـية فى المسرحية أو فى الكتاب أن تتصرف بطبيعتها ، أى أن عليها أن تتصرف بالطريقة التى يتوقعها القراء منها بعد أن عرفوا طبيعتها وأخلاقها . ومن ثم يجب أن يستعين الكاتب بالدهاء لكى يقنع القراء أو المتفرجين بقبول المصادفات والأحداث التى تصادفهم عادة فى واقع الحياة ، دون أدنى تفكير . انهم فى هـذه الحالة اراديون متعصبون . ويا لضيعة الكاتب الذى يستهتر بهذا المبدأ الذى يتعصبون له .

وانى حين اعيد النظر فى حياتى لا يسعنى الا أن الاحظ الى أى حد أثرت فى حياتى بعض الظروف التى يصعب عدم اعتبارها مجرد مصادفات . ان الاراديين يقولون لنا : ان حرية الاختيار تسير وراء خط اضعف مقاومة أو أشد حافز ، ولكنى لا أشعر انى كنت اتتبع فى حياتى خط أدنى مقاومة ، واذا كنت قد تتبعت اشد حافز فان هذا الحافز كان فكرة كونتها عن نفسى تدريجيا . ان التشبيه بلعبة الشطرنج ، برغم أن هذا التشبيه أصبح قديما مهلهلا ، هو أفضل تشبيه مناسب لحياتى ، فقد تزودت بقطع الشطرنج ، وتركت لى حرية اختيار طريقة تحريك هذه القطع فى الحدود المتفق عليها ، وكان على أن أقبل الحركات التى كان يتخذها اللاعبون معى فى الحدود المرسومة نفسها ، ولكن خيل الى أن لدى القدرة على أن احرك القطع لمصلحتى الخاصة بحرية تامة لا تخضع الا لميولى ورغباتى . لقد خيل الى أن فى مقدورى أن أبذل بين الحين والآخر جهدا يبدو انه غير مفروض على تماما ، فاذا كان هذا مجرد وهم ، فهو وهم يؤدى الغرض منه . اننى اعرف الآن ان الحركات التى قمت بها لم تكن تخلو من الأخطاء ، كما انه كان هناك من أساء فهمها ، ولكنها بطريقة ما ، أدت الغرض الذى كنت أهدف اليه ؛ ولشد ما تمنيت لو أنى لم أرتكب أخطاء كثيرة كبيرة ، ومع هذا فانى لست آسفا عليها ولا متمنيا الآن انها لم تكن تحدث .

اننى لا اظن انه غير معقول ان نستوعب الفكرة القائلة بأن كل شيء فى الوجود متفق أو متحد على ان يكون هو السبب فى كل تحركاتنا وتصرفاتنا ، بما فى ذلك طبعا ، كل تفكيرنا ورغباتنا ، ولكنك تستطيع أن تقرر ما اذا كان التصرف — بعد أن تم — مفروضا عليك أولا ، وذلك عندما تحزم رأيك فيما اذا كانت هناك أحداث أم لا ، وهى الاحداث التى قال عنها الدكتور « برود » انها « المسببات السابقة » التى ليست مفروضة تماما . لقد أوضح « هيوم » ، منذ أمد بعيد ، أنه لا توجد علاقة ذاتية بين السبب والنتيجة يمكن ادراكها بالعقل . ان مبدأ « عدم الاختيار » الذى أشار أخيرا الى أحداث معينة لم يكن لها أسباب واضحة ، قد ألقى ظلال الشك على تأثير وفاعلية القوانين العامة التى قام العلم على أساسها حتى اليوم ، وعندئذ يبدو أنه ينبغى النظر الى المصادفة بعين الاهتمام ، ولكن اذا لم تكن حقا مرتبطين بقانون السبب والنتيجة ، فمن المحتمل اذن الا تكون حريتنا الارادية وهما . ان الاساقفة وعلماء الدين قد تشبثوا بهذه الفكرة الجديدة وكأنها ذيل الشيطان الذى سيجرون به الشيطان القديم نفسه الى عالم الوجود . وقد قامت مظاهر الابتهاج الشديدة ان لم تكن فى قصور السماء ، فهى على كل حال قائمة فى قصور الأساقفة ، ومن المحتمل انهم تسرعوا فى ترديد أنشودة الاناشيد ، ومن المستحسن أن نذكر أن اثنين من أعظم أساتذة العلوم فى وقتنا الحاضر يعتبرون مبدأ هيزنبرج من المذاهب « الالحادية » فقد ذكر العالم بلا شك أن مواصلة الابحاث العلمية سوف تكتسح تماما كل مبدأ لايخضع للقواعد المحدودة . ووصف «اينشتين» كل آراء الفلاسفة القائمة على هذا المبدأ بأنها «فرع من الآداب اللغوية»،

واعتقد انه اراد أن يقول ، فى لهجة مهذبة ان هذه الآراء مجرد لغو فارغ، وعلماء النفس انفسهم يقولون لنا أن العلوم النفسية تتقدم بسرعة بحيث ينبغى لنا اذا أردنا أن نتابعها ، أن نهتم بدراسة وقراءة النشرات الدورية والمجلات التى نتناولها من قريب ، وأنه من التهور ، يقينا ، أن تؤسس نظرية على مبادىء مستمدة من علوم غير ثابتة أو مستقرة. وقد أعلن شرونجر نفسه ان اتخاذ قرار نهائى فى هذا الموضوع ، يبدو مستحيلا الآن ، ومن حق الرجل العادى أن يجلس على السياج بين هذه الآراء كلها ، ولكنه قد يكون ميالا الى أن يدلى قدميه فى ناحية « الارادية » وحرية الاختيار .

- ٧٠ -

ان قوة الحياة شديدة عارمة، وان المباهج التى تصحبها تعوض، او توازن ، كل الآلام والمتاعب التى تواجه الانسان . انها «أى المباهج»، تجعل الحياة جديرة بأن يحياها الناس ، لانها تعمل من داخل النفس الانسانية ، وتضىء بنورها الخاص كل الظروف التى مهما اشتدت قسوتها فانها تجعلها تبدو محتملة ، ان الكثير من التشاؤم ينتج من محاولة الانسان الشعور بآلام الغير ولو أنه كان فى موضعهم ، ان هذا « مع أسباب اخرى » يجعل الروايات زائفة ، فان الروائى يقيم عالما عاما من عالمه الخاص ويمنح شخوصه من وحى خياله ، احساسا ، وقدرة تأمل ، وقوة شعور ، وهى كلها من طبائعه الخاصة ، ان لأكثر الناس خيالا محدودا يجعلهم لايعانون من الظروف التى تبدو لذوى الخيال الواسع غير محتملة . فمثلا الحرمان من انفراد الانسان بنفسه كلما اراد ـ وهو الحرمان الذى يعيش فيه الفقراء المزدحمون فى المساكن الصغيرة الضيقة ـ يبدو لنا ـ نحن الذين لانطيق هذا الحرمان ـ رهيبا غير محتمل ، ولكنه لايبدو كذلك للفقراء ، بل هم على العكس يكرهون أن يتركوا وشأنهم منفردين ، ذلك لان اجتماعهم ، وتكتلهم يثير فيهم الشعور بالامن . وأن كل من أقام بينهم ليلاحظ أنهم قلما يحسدون الاغنياء ، ويرجع هذا الى انهم لايريدون الكثير من الاشياء التى تبدو لنا ، نحن الاغنياء ، ضرورية هذا من حسن حظ الاغنياء ، ذلك لان الاعمى وحده هو الذى لايرى كيف يعيش الفقراء المكافحون فى المدن الكبرى عيشة كلها البؤس والارتباك ، فانه من الصعب أن يوفق الانسان بين نفسه وبين الحقائق التى تثبت عدم وجود الاعمال الكافية لهم ، وأن هذه الاعمال عزيزة المنال، ان عليهم أن يعيشوا ، هم وأزواجهم وأبناؤهم ، على حافة الجوع وليس لهم ، فى النهاية ، الا أن ينتظروا الفاقة والعدم ، فاذا كانت الثورة ـ فقط ـ هى التى تعالج هذا الوضع ، فمرحبا بها ، ومرحبا بها بسرعة ، فاننا حين نرى القسوة التى يعامل بها الناس بعضهم بعضا ، حتى فى الدول التى تعودنا أن نسميها متمدينة ، فمن الحماقة أن نقول انهم على كل حال احسن مما كانوا قديما ، ولكن ، مع هذا كله لايبدو من الحماقة فى شىء أن نظن أن العالم الذى نعيش فيه الآن افضل من العالم القديم الذى حدثنا

التاريخ عنه ، وأن الاكثرية العظمى ؛ برغم سوء أحوالها — أقل سوءا مما كان الناس قبلا ، وان من حق الانسان أن يأمل القضاء على الكثير من الشرور الاجتماعية التى يعانيها الناس ،وذلك مع تقدم العلم والمعرفة ، ومع التخفف من أعباء الخرافات والاوهام الضارة والتقاليد البالية ، ومع ازدياد يقظة الشعور بالحب الانسانى العام ، ولكن .. لامندوحة من بقاء الكثير من هذه الشرور ، والكوارث ، فما نحن الا دمى فى أيدى الطبيعة وسوف تظل الزلازل فى جموحها المدمر ، وسوف يظل الجفاف المفاجىء فى تدميره للمحصولات ، والفيضانات غير المتوقعة فى قضائها على المنشئات العظيمة التى يقيمها العقل البشرى ؛ وكذلك ستبقى — للأسف — الحماقة الانسانية التى تشعل نيران الحروب المدمرة للدول والشعوب ، وستستمر ولادة الاشخاص الذين لايصلحون للحياة ويبقون دائما عبئا عليها ، أو تبقى هى عبئا عليهم ، وما دام بعض الناس أقوياء ، فلا بد من وجود بعضهم ضعفاء ، وسيلقى هؤلاء الضعفاء دائما الى جانب جدران الحياة ليفسحوا الطريق للاقوياء . وما دام الناس معرضون للعنة حب التملك — وستبقى هذه اللعنة على ما أظن الى نهاية الحياة البشرية — فسوف يتصارعون دائما ليظفر القوى بكل مايستطيع من أيدى الضعفاء العاجزين عن الاحتفاظ بما لديهم . وما دام لديهم ذلك الشعور بحب الذات والعمل على ارضائها ، فسوف يظلون يعملون على هذه الترضية ولو على حساب سعادة الآخرين . وعلى الجملة ، فما دام الانسان هو الانسان فعليه أن يستعد لمواجهة كل المصائب التى يستطيع أن يحتملها .

ليس هناك تفسير للشر ، ولا مندوحة من النظر اليه على أنه جانب ضرورى لنظام الوجود ، وانها لمحاولة صبيانية أن نتجاهله ، ومن الحماقة أن نبكى منه . وقد وصف « اسبينوزا » البكاء منه بأنه عمل نسائى ، وهو تعبير قاس لم يكن متوقعا من انسان رقيق صافى الروح كهذا الفيلسوف ، واعتقد انه أراد أن يقول انه لمضيعة للشعور والانفعالات أن يبكى الانسان من شىء لايستطيع أن يغيره .

اننى لست متشائما ، وانه — فى الواقع — لجحود منى اذا شعرت بالتشاؤم، لانى كنت دائما ؛ من الاشخاص المحظوظين ، وكثيرا ماعجبت ودهشت من حظى الحسن فاننى أدرك تماما أن الكثيرين ممن هم أحق منى وأجدر ، لم يظفروا بمثل ماظفرت به من حسن الحظ ، فقد كان يمكن أن تغير حادثة هنا أو حادثة هناك كل شىء ، وأن تدمر آمالى كما حدث لاشخاص فى مستواى ، وفوق مستواى بكثير ، وكانت لهم ظروفى وفرصى السانحة نفسها ، فاذا حدث أن قرأ أحدهم هذه الصفحات فانى أحب أن أؤكد له انى لااضفى على نفسى أى لون من المؤهلات فى وصولى الى ماوصلت اليه ، وانما يرجع الامر كله الى ظروف وأسباب ليس فى مقدورى تفسيرها ، فمع كل امكانياتى المحدودة ، البدنية والعقلية كنت سعيدا لانى أحيا ، ولكنى لا أحب أن أعيش حياتى مرة أخرى ، فليس هناك مايدعو لهذا ، وكذلك لن يهمنى أن امر مرة اخرى ببعض المراحل التى عانيت فيها آلاما لا تطاق ، فان احدى نقائص الطبيعة هى التى جعلتنى أعانى من آلام خياتى اكثر مما أبتهج من

مسراتها ، ولكنى بدون عيوبى الصحية والجثمانية ، اى بجسم اقوى وعقل اذكى ، لا اتردد فى أن أدخل الحياة من جديد مرة أخرى ، فان الحياة التى تمتد أمامنا فى الاعوام القادمة تبدو ممتعة ، لان الاجيال الجديدة تدخل الحياة فى وقتنا الحاضر متمتعة بمنافع لم تكن ميسرة للاجيال السابقة . ان الجيل الحاضر غير مثقل بالكثير من التقاليد والعادات القديمة ، وقد تعلم أفراده كيف يدركون قيمة الشباب ، ولقد رأيت عالمي وأنا فيما بين العشرين والثلاثين من عمرى ، عالما له طابع العصور الوسطى ، وانه كان على الشاب أن يجتاز مرحلة الشباب بسرعة حتى يبلغ مرحلة الرجولة والنضج ، وأن أطفال الجيل الجديد فى وقتنا الحاضر « بالنسبة للطبقة المتوسطة التى أنا منها ، على الاقل ــ يبدون معدين اعدادا أطيب وأفضل مما كنا من قبل ، انهم يلقنون الآن من المعلومات الكثيرة النافعة ماكنا نلتقطه بأنفسنا فيما مضى كيفما يكون، وبقدر المستطاع ، والعلاقات بين الجنسين الآن تبدو أكثر طبيعية . لقد تعلمت الفتيات الشابات كيف يصبحن زميلات فضليات للشبان ، ان من بين المصاعب التى كان على جيلنا أن يواجهها ، الجيل الذى شاهد انتفاضة المرأة ، هى : امتناع النساء عن العمل كربات للبيوت ، وبقاء الامهات فى حياة منعزلة عن عالم الرجال ، مشغولات بأنفسهن وما يهمهن ، واذا حاولن التدخل فى شئون الرجال ، أعوزتهن الخبرة والامكانيات » وعدا هذا كن يطالبن بالاعتبارات اللازمة التى يرينها من حقهن ، وهن يشعرن ــ فى الوقت نفسه ــ بأنهن أقل مكانة من الرجال، وأكثر من هذا كانت المرأة تطالب بحقوقها فى المساواة مع الرجال، وهى تعلم تماما أنه ليس فى امكانها القيام بأعباء الرجال ، بل هى تعلم انها ستكون مثار الارتباك والاضطرابات فى شئون الرجال . لقد رفضت القيام بدور ربات البيت ، ومع ذلك لم تكن تصلح لدور الزمالة الذى تطالب به ، انه ليس أدعى الى بهجة السيد العجوز اليوم من رؤيته للفتاة الشابة المعاصرة ذات الكفاية العالية ، والثقة الشديدة بالنفس : هذه الشابة التى فى مقدورها أن تدير مكتبا ، وأن تقوم بألعاب التنس العنيفة ، وتهتم بالشئون العامة فى رجاحة عقل ، وسعة اطلاع ، وتتذوق الفنون ، وتستطيع الوقوف على قدميها ومواجهة الحياة فى هدوء ، ودهاء ، واحتمال .

انني أبعد ما اكون عن الرغبة فى ارتداء مسوح الرهبان . ولكنى أرى بوضوح أن شبان الجيل الجديد الذين يقومون بأدوارهم الرئيسية على مسرح الحياة يتطلعون الى هذه الانقلابات الاقتصادية القادمة التى ستغير وجه الحضارة كلها . انهم لن يعرفوا هذا اللون من الحياة الهادئة ، الظليلة ، التى جعلت الكثيرين من الرجال قبل الحرب ينظرون الى الحياة الاجتماعية نظرة الثورة الفرنسية الى النظام الاجتماعى القديم . انهم لن يعرفوا « معنى الاستكانة الى الحياة » لاننا نعيش الآن على حافة ثورات ضخمة . ولست اشك فى أن الهيئات العمالية، التى أحست بقواها المتزايدة ، سوف تقبض فى الوقت المناسب على زمام الحكم فى قطر بعد قطر ، ولن أكف عن العجب من تصرفات الطبقة الحاكمة فى اليوم الذى تحاول فيه عبثا مكافحة هذه القوى الضخمة ،

بدلا من أن تبذل جهودها لتدريبها واعدادها الاعداد اللازم لتولى زمام الحكم فى المستقبل ، بحيث لايكون مصيرها ، مصير الطبقة الحاكمة اليوم — كمصير الطبقة الحاكمة فى روسيا بعد قيام الثورة ، لقد حاول دزرائيلى « منذ أعوام عدة أن يبين لهم ماذا ينبغى أن يفعلوه ، أما أنا ، فانى أتمنى أن تبقى الحالة الحاضرة كما هى عليه حتى نهاية عمرى . ولكننا نعيش فى عصر السرعة .. السرعة فى كل شىء ، ومن ثم لايبعد أن أشهد فى حياتى دول أوروبا الغربية قد ساد فيها الحكم الشيوعى ، لقد ذكر لى صديق من الروس البيض — المنفيين — انه حين فقد أملاكه وثروته ، استبد به اليأس ، ولكنه ، بعد أسبوعين فقط أسترد هدوءه وسكينته النفسية ، ولم يعد يفكر مطلقا فيما ضاع منه ، ولست أعتقد اننى شديد التعلق بممتلكاتى المتنوعة بحيث أحزن كثيرا أو طويلا، عند ضياعها ، فاذا حدث شىء من هذا فى أثناء حياتى ، فانى لن أتردد فى أن أتطور مع الظروف ، لكن اذا وجدت أن الحياة لم تعد محتملة ، فان الشجاعة اذ ذاك ، لن تعوزنى لان اهجر مسرحا لم اعد أستطيع أنأقوم فيه بدورى كما ينبغى ، وانى لاعجب : لماذا يفزع الناس من فكرة الانتحار ، فمن اللغو اعتباره نوعا من الجبن ، اننى شخصيا أوافق الرجل الذى يضع حدا لحياته عندما يجد أن هذه الحياة لا تمنحه الا العذاب والشقاء ألم يقل افلاطون ان قدرة الانسان على أن يموت حين يشاء هى أعظم ماوهبه الله للانسان الذى يعيش بين هذه الالوان من آلام الحياة ، فاذا صرفنا النظر عن أولئك الذين يعتبرون الانتحار اثما كبيرا لانه يتنافى مع قانون السماء ، فانى أعتقد ان سبب استنكارالناس لجريمة الانتحار يرجع الى أن الانتحار يدمر قوى الحياة ، فاذا نحن اعتبرناه أمرا عاديا ، فكأنما بذرنا أبشع بذور الشك فى قدرة الحياة على النمو والبقاء .

اننى بهذا الكتاب أضع اللمسات الاخيرة للخطة العامة التى وضعتها لحياتى ، فاذا طال بى العمر ، فسوف أكتب مؤلفات أخرى لمزاجى الخاص ، وارجو ان تتفق أيضا مع أمزجة القراء » ولكنىلاأعتقد أن هذه المؤلفات ستزيد شيئا فى السمت العام لخطة حياتى . لقد بنيت البيت .. ولكن الامر قد يحتاج الى شىء من الملحقات البسيطة مثل شرفة أطل منها على الناس ، أو قاعة خاصة طيبة أقضى فيها ساعات من التأمل والتفكير فى فصل الصيف ، فاذا منعنى الموت من اضافة هذه الملحقات ، فان البيت قد تم بناؤه برغم أن الوارث قد يضعه فى المزاد العلنى فى اليوم التالى لموارأتى الثرى ! ..

اننى انظر الى الشيخوخة فى غير جزع ولا خوف .. فعندما قتل الكلونيل لورنس صديق العرب، قرأت مقالا عنه بقلم أحدأصدقائه، قال فيه : انه كان من عادة لورنس أن يركب دراجته البخارية بسرعة رهيبة آملا أنتقع له حادثة تقضى علىحياته حتىتجنبه مهانة أرذل العمر، فاذا صح هذا ، فانى أعتبره لونا من الضعف الشديد فى نفسية ذلك الرجل العجيب ذى الشخصية المسرحية ، ان هذا دليل على نقص العقل ، ذلك أن الحياة المتكاملة ، تنطوى على الشيخوخة كما انطوت على الطفولة والشباب .

ان اشراقة الصباح جميلة ، وكذلك وهج الشمس في الظهيرة ، ولكن من الحماقة البالغة أن يسدل الانسان الأستار على نوافذه بعد الغروب ويضىء المصباح الكهربى حتى لا يرى الليل الساجى ، ان للشيخوخة مباهجها . وهى وان كانت تختلف ، فانها لا تقل عن مباهج الشباب . لقد أكثر الفلاسفة فى قولهم لنا اننا عبيد شهواتنا ، فهل ترى أن التحرر من هذه الشهوات ـ وهو ما يحدث فى الشيخوخة ـ أمر بسيط ؟ ان شيخوخة الاحمق ، ستكون كذلك حمقاء كما كان شبابه . ان الشاب يفزع من فكرة الشيخوخة لاعتقاده بأنه حين يبلغها سيظل مشوقا الى الأشياء التى كان يتشوق لها فى شبابه وهنا موطن الخطأ . حقا ان الرجل العجوز ، لن يستطيع بعد أن يتسلق جبال الألب ، كما كان يفعل فى شبابه أو يغرى فتاة حسناء على قضاء الليل معه بل انه لن يستطيع أن يثير رغبات النساء فيه ، ولكن لهذا كله جمالة .. ذلك لأنه سيصبح متحررا من آلام الحب الفاشل ومن عذاب الغيرة . ان من محاسن الشيخوخة أنها تحرر صاحبها من الغيرة ، التى تسمم حياة الشبان ، بعد أن يقضى عليها انطفاء الرغبة . ولكن هذه كلها تعويضات سلبية ، وللشيخوخة تعويضات ايجابية أيضا ، والوقت أمام هذه التعويضات الايجابية متسع برغم ما قد يبدو فى تعبيرى هذا من تناقض فعندما كنت شابا قرأت فى دمشق عن بلوتارك انه قال ان « كاتو » بدأ يتعلم اليونانية القديمة وهو فى الثمانين من عمره ، ولكن دهشتى الآن قد زالت فان الرجل العجوز يكون على استعداد لأن يقوم بمهام كان يتجنبها فى شبابه لأنها تستغرق وقتا طويلا ان الذوق العام فى مرحلة الشيخوخة ، يزداد تحسنا ، ومن ثم يمكن للشيخ أن يستمتع بالتذوق والآداب دون أن يشعر بالأغراض الشخصية التى كانت تفسد فى الشباب أحكامه . ان فى الشيخوخة رضاءها الذاتى لكونها تحققت وبلغت بالحياة الانسانية غايتها انها قد تحررت بوجه عام من قيود الانانية البشرية .. وهذا التحرر يجعل الروح تبتهج بلحظات الحياة المنصرمة دون أن تطالبها بالبقاء .. ولماذا تستبقيها وقد استكملت الحياة خطتها . لقد طالب جيته بالحياة بعد الموت لكى يستطيع ـ ان امكن ـ أن يحقق من بعض جوانب نفسيته التى لم يجد فى حياته الاولى ، الوقت الكافى لتنميتها ولكن .. ألم يكن هو القائل ان من يريد أن يستكمل شيئا ينبغى له ان يعرف كيف يحد من نفسه ! انك حين تقرأ تاريخ حياته ستدهش للاوقات التى كان يضيعها فى التفاهات وربما لو أنه استطاع أن يحد من نفسه لأمكنه ان ينمى أى شىء كان يريد تنميته فى شخصيته الخاصة ، ومن ثم لا يبقى فى حاجة الى حياة أخرى .

- ٧١ -

يقول اسبينوزا : ان الرجل الحر لا يفكر فى شىء أقل مما يفكر فى الموت ، ولكن اذا لم يكن حتما أن نركز أفكارنا فى الموت وحده ، فانه من الحماقة ـ كما يقول الكثيرون أن نرجف من كل تفكير فيه وانه ليحسن ان ننتهى الانسان الى قرار بشأنه وأنه لمن المستحيل أن تعرف ـ حتى

يواجهنا الموت ـ هل هناك مايفزعنا منه حقا ؟ لقد حاولت كثيرا ان اتصور مشاعرى لو أن طبيبا أخبرنى بأننى مريض بداء لن يتيح لى من الحياة الا أياما معدودة • لقد وضعت هذا السؤال على ألسنة الكثير من شخوصى الروائية ، ولكننى ادرك الآن أنى بهذا الوضع ، قد خرجت عن نطاق الواقع ، ومن ثم لا أستطيع أن اتحقق من أن مشاعر شخوصى الروائية تنبع حقا من مشاعرى أو من خيالى • اننى لا أعتقد أن غريزة حب البقاء قوية عارمة فى نفسى • لقد أصبت بأمراض كثيرة خطيرة ، ولكنى أحسست بنفسى ، مرة واحدة ، أنى جد قريب من الموت ، ولكن شعورى بالتعب والتهالك والاعياء طغى يومئذ على كل شعور بالخوف ، لقد أردت فقط أن أموت واستريح ان الموت أمر لامفر منه وليس من المهم فى شىء أن يعرف الانسان كيف يتلقاه ومن ثم لا أعتقد أن أحدا يلوم الانسان الذى يرجو ألا يكون عالما باقترابه ، وان يسعده الحظ فيمر منه بغير ألم •

لقد عشت كثيرا ـ منذ صباى ـ فى مستقبلى ، بحيث أصبحت الآن برغم قصر هذا المستقبل ، عاجزا عن التحرر من هــذه العادة ، وهكذا لا يزال تفكيرى يمتد الى ألوان من المباهج التى أرجو أن أملأ بها ، فى عدد معين من السنين ، بعض الثغرات البسيطة فى خطة حياتى ، ولكن كانت تمر على لحظات أشعر فيها بالشوق الملح الى الموت بحيث كنت على استعداد لأن ألقى بنفسى بين ذراعيه كما تلقى الشابة المدلهة بنفسهـا بين ذراعى حبيبها • لقد كانت هــذه اللحظات تثير فى نفسى الانفعالات الممتعة التى طالما أثارتها الحياة فى أيام الشباب • اننى منتش بخمرة التفكير فيه •

وانه ليخيل الى أنى سأجد فى هذا الموت الحرية الكاملة ولكننى ، برغم هذا ، على استعداد لأن أبقى فى الحياة أى عدد من السنين اذا ضمن لى الاطباء صحة معقولة ، اننى أستمتع بمنظر العالم ويهمنى أن أعرف ماذا يخبئه المستقبل له • ان انتهاء حيــاة الكثيرين من الذين كانت حياتهم تجرى فى مستوى واحد مع حياتى ، تزودنى بوقود دائم من التأملات ، وأحيانا بتأكيد النظريات التى كونتها لنفسى منذ زمن بعيــد • لسوف أشعر بالأسى حين أفارق أصحابى • اننى لن أستطيع ان أبدو غير مهتم بمصير أولئك الذين وجهتهم وحميتهم من أرزاء الحياة ، ولكن يحسن بهم طبعا بعد أن اعتمدوا على كل هذه السنوات أن يستمتعوا بحريتهم بالطريقة التى ترضيهم • ولما كنت قد احتللت مكانتى فى الحياة طويلا ، فانى لا أجد بأسا من أن يمثل غيرى هذه المكانة بعدى •

ان الفكرة فى رسم خطة الحياة هى ـ على كل حال ـ العمــل على اتمامها فاذا تمت ولم يعد هناك ما يضاف اليها ، فليس أمام الانسان الا أن يتركها كما يترك الفنان اللوحة التى فرغ منها •• واذا حاول أحد أن يسألنى عن الفائدة من هــذه الخطة ، قلت له • ليس ثمة أية فائدة فيها انها مجرد شىء رسمته فى حياتى ، أو لحياتى ، لانى روائى ؛ وقد رسمته لارضاء نفسى ، ولمتعتى الشخصية ، ولأجعل من حياتى قصة لها بداية ، وموضوع ونهاية ، كما فعلت مع كل من التقيت بهم هنا وهناك ، وجعلت من ألوان حياتهم قصة ، أو مسرحية ، أو رواية • ان الانسان ثمرة طباعه

وأهوائه ؛ واعتقد أنى لم أرسم خطة حياتى كأحسن ما خطر لى ، أو حتى كما أردت أن تكون ، وانما رسمتها لكى تكون شيئا معقولا مقبولا ، فهناك خطط كثيرة لأنواع من الحياة أفضل من حياتى ، وانى أعتقد ـ لا لأنى كاتب خيالى ـ وانما عن يقين بأن أفضل أنواع الحياة ، هى حياة الزارع الذى يفلح أرضه ، ويجنى محصوله ، ويستمتع بما يبذله من جهد ، وبما يظفر به من فراغ وبما ينعم به من حب ، وزاوج ، وأبناء .. ثم يموت ..

وعندما لا حظت حياة المزارعين فى الأراضى الخصبة المباركة التى تنتج الكثير فى غير جهد كبير ، وتحدث فيها المباهج والآلام كما تحدث مع بقية البشر ، بدا لى أنها هى الحياة المثالية الكاملة .. ذلك أن حياة المزارع ، كالقصة الجيدة ، تظل من البداية الى النهاية فى خط مستقيم .

- ٧٢ -

ان حب الذات يجعل الانسان غير ميال لقبول فكرة فقد الحياة ، وهو حينما يجد نفسه ـ للأسفـ عاجزا عن الوصول الى المعنى الحقيقى للحياة فانه يحاول أن يبحث عن معنى يضفيه عليهـا ، وذلك بأن ينشىء قيمـا خاصة ليس لها شأن بمصالحه المباشرة . وقد اختارت حكمة القرون ثلاثا من هذه القيم التى تعتبر أكثرها أهمية .. ويبدو أن استهداف الوصول اليها يزود الحياة بشىء من المعنى . ورغم أنه من الصعب الشك فى أنهـا أيضا ذات فائدة حيوية ، فان لهاـ أى هذه القيم ـ مظهرا مصطنعا من عدم الاهتمام بحيث يتوهم الانسان من خلالها أنه ينجو من الروابط البشرية . ان سمو هذه القيم يشد من احساسه بالارتياب فى معنى وجوده ، وأيا كانت النتيجة ، فان التعلق بها يبدو كأنه جدير بما يبذله من جهود . ان الانسان الذى لا يعرف لرحلته فى هـذا الوجود نهاية ، يرى فى هـذه القيم ، واحات فى صحراء الوجود الشاسعة ، فهو يقنع نفسه ـ على أية حال ـ بأن الوصول اليها جدير بما يبذله من جهد ، وانه سيجد فيهـا الراحة على الأقل والاجابة على اسئلته وهذه القيم الثلاث هى : الحق ، والجمال . والخير .

يخامرنى الظن بأن الحق يتخذ مكانه بين هذه القيم لاسباب بيانية فان الانسان يخلع عليه صفات سامية ، كالشـجاعة ، والشرف ، وقوة الروح ـ وتبرز هذه الصفات حقا فى كل متمسك بالحق ، ولكن ليس لها فى الواقع أية علاقة به ، ولما وجد الانسان فيه ـ فى الحق ـ مناسبة رائعة لتأكيد ذاتيته ، فانه لم يعد يتردد فى القيام بأية تضحية من أجله ، ولكن اذا كانت للحق قيمة ، فانما قيمته فى حقيقته . لا فى شجاعة الانسان وهو يتحدث به .

ان الحق صفة قضائية ، ومن ثم يعتقد الانسان أن قيمته تكمن فى أحكامه التى يحققها أكثر مما تكمن فى ذاته . ان القنطرة التى تربط بين مدينتين كبيرتين ، أعظم أهمية من قنطرة تصل بين حقل أجرد وآخر . واذا كان الحق احدى القيم الهـامة الثلاث ، فان من العجب أنه لا يكاد

يدرك أحد ما هو على وجه التحديد ، والفلاسفة لا يزالون يتجادلون في تحديد معناه واصحاب النظريات الفلسفية المختلفة المتعارضة — يوجهون كل منهم الى الآخر اقوالا ساخرة لاذعة . وفي مثل هذه الحالة لا يسع الرجل العادى الا أن يترك للفلاسفة عملية الجدل حول تحديد معنى الحق الفلسفي ، ويكتفي لنفسه بحق الرجل العادى · وهذه مسألة متواضعه كافية لتأكيد مجرد الاحساس بالوجود انها مجرد تقرير واضح للحقائق ، فاذا كان الحق على هذه الصورة احدى القيم الثلاث فلا مندوحة من الاعتراف بما تعرضت له هذه القيمة من الاهمال · فقد قررت حكمة القرون منذ أمد بعيد أن الحقيقة الكاملة ليس لها مكان في عالم البشر ، ذلك أن الانسان تعود دائما التضحية بالحقيقة أمام كبريائه وراحته وفائدته الشخصية ، انه لا يعيش بالحقيقة وانما بمحاولة اصطناعها وخداع الناس بها ، وانه ليبدو لى أن مثله العليا ، ليست الا مجهودا لنقل مميزات الحقيقة الى الاوهام التى اخترعها ليرضى غروره الذاتى ·

- ٧٣ -

ولكن موقف الجمال أحسن حالا ، فقد بقيت أعواما عدة وأنا أعتقد أن الجمال وحده هو الذى يعطى الحياة معناها ، وانه الغرض الوحيد من تعاقب الاجيال — جيلا بعد جيل — هو اتاحة الفرصة بين الحين والآخر لظهور فنان عبقرى · وكنت أعتقد أن العمل الفنى هو ذروة انتاج الطاقة البشرية ، وأنه التبرير الاخير لكل ما تعانيه البشرية من بؤس وشقاء متصل ، وجهود لا تنتهى · كنت أعتقد أنه لا بد من أن يخلق ملايين الملايين من البشر ، وأن يعيشوا ، وأن يعذبوا وأن يموتوا ، لكى يظهر فنان مثل ميكل انجلو يرسم صورا رائعة على سقف معبد سستين بروما ، أو عبقرى كشكسبير ليكتب قصصا شعرية معينة ، أو شاعر مثل كيتس لينظم بعض الاهازيج وبرغم انى خففت ، فيما بعد ، من هذه المغالاة باضافة جمال المعيشة الى الأعمال الفنية التى تمنح وحدها معنى للحياة ، فان الجمال نفسه هو الذى ظللت أقدسه ، ولكن هذه الاعتقادات كلها تخليت عنها منذ أمد بعيد ·

فقد اكتشفت من جهة أولى أن الجمال نقطة نهاية ، فانى حين أفكر فى الأشياء الجميلة ، أجد أنه ليس ثمة فيها أكثر من النظر اليها والاعجاب بها ، وبرغم بهجة الانفعالات التى يثيرها الشىء الجميل فى نفسى ، فانى لا أستطيع الاحتفاظ بهذه الانفعالات فترة طويلة ، كما لا أستطيع أن أجعلها تتكرر دائما ، فان أجمل الاعمال الفنية فى العالم لا تلبث ، مع تكرار النظر اليها ، أن تثير فى نفسى الملل · وقد لاحظت أنى أستمتع بشعور من البهجة أطول وأعمق عند النظر الى الاعمال ذات الصبغة التجريبية ·

ان هذه الاعمال التى لم تبلغ حد النجاح الكامل : هى التى تتيح نطاقا أوسع لنشاط الخيال ، أما الاعمال الفنية العظيمة التى تحقق فيها

كل شيء ، فانى لا أجد فيها مجالا لانطلاق الخيال · وهكذا أشعر بالسأم من مجرد الاعجاب والتأملات الخامدة ويخيل الى أن الجمال كأعلى مكان فى قمة الجبل ، فاذا أنت وصلت اليهــا لن تجد أمامك شيئا الا الهبوط مرة أخرى · ان الكمال الفنى لا يخلو من الاملال ولعلها احدى سخريات الحياة ان ذلك الكمال الذى نسعى للوصول اليه ، ينبغى علينا أو يحسن بنا ، ألا نصل اليه أبدا ··

أعتقد أننا نعنى بالجمال ذلك الشيء ــ الروحى أو المــادى ، وفى الأغلب المادى ــ الذى يرضى احساسنا الفنى · ولعلى بهــذا التعبير أشبه الذى يفسر الماء بقوله انه بلل !! لقد قرأت كثيرا من الكتب لأعرف أقوال المتخصصين ، ولاجعل الامر أكثر وضوحا · وقد عرفت عن قرب شديد كثيرا من الأشخاص الذين كرسوا حياتهم للفن ، وأخشى أن أقول اننى لم أجد بينهم ، أو فى الكتب التى قرأتها آية فائدة تذكر فى هذا السبيل ومن الاشياء العجيبة التى اضطررت الى ملاحظتها أنه ليس ثمة حكم دائم فى مسألة الجمال ، وأن المتاحف الزاخرة بالأشياء التى كانت تعتبرها أعظم الاذواق الفنية فى عصرها جميلة تبدو لنــا الآن تافهة · وقد رأيت فى مراحل حياتى كيف يتبخر الجمال من القصائد واللوحات ــ التى كانت رائعة فى نظرى منذ عهد غير بعيد ــ كما تتبخر قطرات الندى تحت أشعة شمس الصباح · وأيا كان رأينا فى أنفسنا ، فاننا لا يمكن أن نعتقد ان احكامنا على الاشياء الجميلة ستظل باقية ، وليس من شك فى أن ما نراه الآن جميلا ، سوف يكون موضع السخرية ، والاحتقار فى أجيال أخرى وان ما نحتقره الآن قد يرتفع الى ذروة التكريم فى تلك الاجيال . ان التفسير الاخير الوحيد ، هو أن الجمال يتوقف على علاقته بمطالب جيــل معين ، وانه لا جدوى من فحص الاشياء التى نراها جميلة لنهتدى الى ما قد يكون فيها من صفات تبلغ بها حد الكمال ، فاذا كان الجمال احدى القيم التى تعطى الحياة معنى ، فانه شيء دائم التعبير ولا يمكن ــ من ثم ــ تحليله لاننا لا نستطيع أن نشعر بالجمال الذى كان يشعر به أجدادنا ، تماما كما لا نستطيع أن نشم الزهور التى كانوا يشمونها ·

لقد حاولت أن أعرف من الكتاب المتخصصين فى الشئون الفنيــة شيئا عن ذلك الاحساس الموجود فى الطبيعه البشرية الذى يجعل فى امكاننا أن نشعر بتأثير الجمال علينا ، وما هو على وجه التحديد كنه هذا الشعور ؟ لقد تعودنا الحديث ببساطة عن غريزة الاحساس الفنى ، وهو تعبير يبدو كأننا وضعنا هذا الاحساس فى عداد الغرائز البشرية كالجوع ، والرغبة الجنسية ، وفى الوقت نفسه تضفى عليه صفة سامية ترضى نزعة الفلاسفة نحو الوحدة الغرائزية ، وهكذا استطاع كتاب الشعور الفنى أن يستمدوا من التعبير الغريزى ، غزارة من الصفات التى يضفونها على هذا الشعور الفنى فيقولون انه حيوى ، ونابض ، واحساس بالكمال وما لا أدرى ، أما أنا فأحب القول بأن هذا الشعور الفنى ليس غريزة على الاطلاق وانما هو حالة من التفكير البدنى نشأت على أساس من غرائز معينة قوية ، ولكنها ممتزجة بالخصائص الانسانية التى هى نتيجة عملية النشوء والارتقاء كما انها أيضا نتيجة الظروف الطبيعية للحياة أما علاقاتها الاكيدة بالغريزة الجنسية

فانها تتضح أمام هذه الحقيقة ـ المعترف بها من الجميع ـ التى تثبت أن هؤلاء المتمتعين بالاحساس الفنى يكونون عادة من ذوى الشعور الجنسى الرقيق . وقد يكون فى التركيب الطبيعى للتفكير البدنى شىء يجعل لبعض النغمات أو الأوزان الشعرية ، أو الألوان المعينة جاذبية خاصة فى نظر بعض الناس ، ومن ثم يكون هناك سبب عضوى تقوم على أساسه العناصر التى نعتبرها ـ فى مجموعها ـ جمالا ولكننا أحيانا نجد الجمال فى أشياء لانها تذكرنا بأشياء أخرى ـ كالناس والاماكن ـ سبق أن أحببناهم أو لأن مرور الزمن أضفى عليها لونا من القدسية أو المزايا العاطفية . اننا نرى الجمال فى الاشياء لاننا نعرفها ، وبالعكس ، نرى الجمال أيضا فى الأشياء لأن جدتها تدهشنا ، وكل هذا يعنى أن العلاقة ـ علاقة المشابهة أو المخالفة ـ ذات اتصال دقيق بالشعور الفنى . ان مثل هذه العلاقة هى وحدها التى تفسر القيمة الفنيه للشىء القبيح ولست أعرف أحدا درس تأثير الزمن على خلق الجمال ، فاننا فقط لا نزداد اعجابا بجمال الاشياء كلما ازددنا معرفة بها ، وانما يرجع جانب كبير من بهجتنا بجمالها الى ما أضفته الاجيال المتعاقبة عليها من ألوان الاعجاب . وهذا ، فى رأى ، يفسر : لماذا لم تسترع بعض الأعمال الفنية التى تظفر بأشد اعجابنا الآن ـ حين برزت للعالم أول مرة ـ اهتمام الناس الى حد كبير . ويخامرنى الظن بأن أهازيج « كيتس » اليوم أكثر جمالا مما كانت يوم كتبها . لقد توافرت لها أسباب الجمال فى مشاعر أولئك الذين وجدوا فى عذوبتها العزاء والأمل واذن ليس هناك أبعد من التفكير فى أن الاحساس الفنى مسألة بسيطة واضحة ، لأنى أعتقد أنها أعقد ماتكون ، وذلك بسبب تكونها من عناصر مختلفة متناقضة . وليس من حق المتخصصين فى موضوع الشعور الفنى أن يقولوا لك انه لا ينبغى أن تتأثر بجمال صورة أو نغمات سيمفونية ، لانها تثير فى نفسك انفعالا عاطفيا عميقا ، أو تفجر من عينيك الدموع ، أو تذكرك بشىء مضى فالواقع أن سر جمال الصورة أو النغم ، يرجع الى هذا كله ، لان مثل هذه المشاعر والانفعالات هى جزء لا يتجزأ من الشعور الفنى بجمال الاشياء .

ولكن ماهو ، على وجه التحديد ، شعور الانسان أمام العمل الفنى العظيم ؟ بماذا يحس الانسان ـ مثلا ـ حين يتأمل لوحة تيتيان « وفن المسيح » فى متحف اللوفر ، أو حين ينصت الى مقطوعة موسيقية لموسيقار نابغ ، اننى أعرف شعورى الخاص . انه انفعال يزودنى باحساس من النشوة الروحية الممتزجة بالرغبات الجسدية .. احساسى بانى أمام شخصية قوية حرة متحررة من الروابط البشرية .. وفى الوقت نفسه ، أشعر فى أعماق نفسى باحساس رقيق مفعم بالعطف الانسانى ، وأشعر بالراحة ، وبالسكينة وأيضا بالعزلة الروحية، بل انى ، فى بعض الأحيان ، عندما انظر الى بعض اللوحات أو التماثيل المعينة ، أو أنصت الى قطعة موسيقية خاصة ، أشعر بانفعال قوى عارم اكاد أصفه بالألفاظ التى يصف بها الصوفيون نشوة اتصالهم بروح الله ، وهذا ما جعلنى اعتقد أن حالة الهيام الدينى قد تنتج من أسباب أخرى غير التفانى فى العبادة والتنسك والصيام ، ولكنى كثيرا ما سألت نفسى : مافائدة هذا الاحساس ؟ طبعا ان فيه ألوانا من المسرات والمباهج ،

ولكن ماذا فيه يجعل ألوان هذه البهجة أروع من أية ألوان من المباهج الاخرى بحيث يكاديخرجهاعن نطاق المباهج المعروفة ؟ هل كان جيريمي بنتام مخطئا ـ اذن ـ في قوله ان أي نوع من البهجة لا يختلف عن أي نوع آخر ، وان تساوى البهجة في هذه الحالة يجعل خيال الظل مساويا للشعر ؟ ان الاجابة التي يقدمها الصوفيون على هذا السؤال صريحة واضحة ، فهم يقولون ان نشوة الهيام لا قيمة لها مالم تقو الشخصية، وتتيح للانسان القدرة على حسن التصرف .. ان قيمتها تكمن في الجانب العملي منها .

ولقد كان من نصيبي أن اعيش كثيرا بين أشخاص من ذوى المشاعر الفنية ولست أتحدث الآن عن الفنانين الخالقين ، فهناك ـ في رأيي ـ اختلاف بين خالقي الفن وبين المتمتعين به . ان الفنان ينتج فنه لأنه مدفوع الى هذا بالقوى الداخليه التي ترغمه على ابرازه واخراجه الى عالم الوجود ، وانها لمصادفه أن تكون هذه القوى المنتجة ـ أي العمل الفنى ـ ذات جمال ، فقلما يكون الجمال هو هدف الفنان الخاص في انتاجه ٠٠ ان هدفه الأساسي هو تحرير روحه من ذلك العبء الضاغط . فيستخدم القلم ، أو الالوان ، أو الصلصال ـ وهي أدوات ميسورة بطبيعتها ـ للتخاص مما ينوء به روحيا ، انني أتحدث الآن عن أولئك الذين يتخذون من التأمل والاعجاب بالفنون عملا أساسيا في حياتهم ، ولم أجد فيهم مايثير الاعجاب الا القليل ، وجدتهم تافهين مغرورين لاكفاية عندهم للقيام بالشئون العملية في الحياة ، وجدتهم يحتقرون أولئك الذين يؤدون ـ في تواضع وصبر ـ الأعمال التي فرضتها عليهم الأقدار ، انهم يعتبرون أنفسهم فوق مستوى البشر لأنهم قرءوا كتبا كثيرة ، أو شاهدوا أعمالا فنية متعددة انهم يستغلون الفن للهرب من واقعية الحياة ، وهم ـ باحتقارهم الدنيء للاشياء الطبيعية العادية ـ ينكرون قيمة النشاط البشرى العام . انهم في الواقع ليسوا أحسن حالا من المدمنين على المخدرات ٠٠ وربما كانوا أسوأ ـ لأن المدمن على المخدرات ـ ايا كان حاله ـ لايضع نفسه على منصة عالية ينظر من فوقها باحتقار الى زملائه من بني البشر . ان قدسية الفن . مثل قدسية الشعور الصوفي ٠ تكمن في تأثيره الواقعي ، فاذا كان الفن يثير البهجة فقط ، مهما تكن روحانيتها ؛ فليست له قيمة كبيرة . أو على الأقل ـ لن تزيد قيمته عن قيمة طبق فاخر من الطعام مع قدح لذيذ من الشراب ، فاذا كان سببا للعزاء وسكينة النفس . فهذا ماينبغي . لأن الحياة مفعمة بالشرور التي لا نعرفها . ومن المستحسن أن يجد الانسان منابة ظليله يلجأ اليها بين الحين والآخر ليستجم فيها ويتأمل لا ليهرب ، بل ليستجمع أشتات قوته ليعود الى مواجهتها . لأن الفن ـ اذا أردنا اعتباره احدى مقدسات الحياة ـ يجب أن يعلم الناس التواضع ، وقوة الاحتمال ، والحكمة والتعاطف .. ان قيمة الفن ليست في جماله . وانما في معاونته للانسان على حسن التصرف ٠

واذا كان الجمال هو احدى مقدسات الحياة . فمن العسير اذن القول بأن الاحساس الفني الذي يساعد الانسان على تذوقه . يجب

ان يقتصر على طبقة خاصة من الناس ، فليس من المحتمل أن تكون قيمة ما ــ لاتفهمها غير طبقة خاصة ــ من ضروريات الحياة : ولكن هذا مايدعيه المتخصصون فى الشعور الفنى ، وينبغى الاعتراف بأنى ، فى أيام طيش الشباب ، أى عندما كنت أعتبر الفن « بكل ألوانه الطبيعية والصناعية » هو ذروة الطاقة البشرية لتبرير وجود الانسان فى الحياة: كنت أحس بلون خاص من الرضا وأنا أعتقد أن تذوقه مقصور على القلة المختارة من بنى البشر ، ولكنى تخليت عن هــــذا الاعتقاد منذ أعوام طوال ، فانى لم أعد أستطيع أن أومن بأن الجمال خاص بالقلة المختارة ، بل اميل الى الاعتقاد بأن الانتاج الفنى ذا المعنى الخاص للذين مروا بلون معين من التدريب ليست له قيمة ولا لهذه القلة التى تتذوقه ٠

ان الفن لا يكون عظيما ، ولا مفهوما ، مالم يستمتع به الجميع . ان الفن « الخاص » كلعب الصبيان . ولست أدرى : لماذا تقوم الفوارق بين الفنون الحديثة والأخرى القديمة ؟ فليس ــ فى القديم والحديث ــ غير الفن . ان الفن حى ، ومحاولة اضفاء الحياة على عمل فنى لأنه يتمتع بمميزات تاريخية أو اثرية أمر لاجدوى فيه ، انه ليس من المهم فى شىء أن يكون التمثال منحوتا بأزميل فنان اغريقى أو معاصر ، وانما المهم هــو أن يزودنا بين الحين والآخر بذلك الاحســاس الفنى الذى يثير انفعالاتنا ويدفعنا الى العمل ،فاذا كان عليه أن يزودنا بما هو أهم من البهجة الذاتية والرضا النفسى ، فيجب أن يقوى شـــخصياتنا ويجعلها أصلح للقيام بما ينبغى من واجبات ٠ ان الحكم على العمل الفنى يجب أن يتوقف على ثمرته ، فاذا لم تكن ثماره طيبة ، فلا قيمة له ، ومن الحقائق الشاذة التى لا مفر لنا من أن نتقبلها ــ كما نتقبل بعض الظواهر الطبيعيةالتى لا نعرف لها تفسيرا ، أن الفنان ينجح فى انتاج العمل الفنى المثمر حقا ، عندما لايكون متعمدا هذا الانتاج ، ان الموعظة تكون أشد تأثيرا عندما يلقى بها الانسان غير متعمد الوعظ والارشاد . والنحلة تنتج الشهد لاغراضها الخاصة ، دون أن يخطر ببالها عظيم منفعته للناس .. !

ومن الواضح اذن انه من المستحيل القول بانه لا الحق ولا الجمال لهما قيمة ذاتية ، فماذا عن الخير ؟ ولــكن ، قبل أن أتناول الحـديث عنه ، سوف أتحدث أولا عن الحب . ذلك لأن هناك فلاسفة يرون انه ــ فى شموله لكل أنواع الخير ــ أعلى القيم فى الحياة الانسانية . لقد اتفقت الافلاطونية والمسيحية على أن للحب دلالة صوفية ، وان المعانى التى تنطوى عليها كلمة « الحب » تثير فى النفس مشاعر تجعله اشد تأثيرا من مجرد الخير العام ٠ ان الخير العام اذا قورن بالحب لا يخلو من الغموض ، ولكن للحب معنيان : الحب الخالص البسيط ، أى الحب الجنسى ، والحب الآخر الذى ينطوى على الحنان والشفقة والعطف ، ولست أعتقد انه ــ حتى افلاطون ــ قد ميز بينهما بمثل هذا التحديد، فانه يخيل الى انه أضفى النشوة ، والاحساس بالقوة ، والشعور بتزايد الحيوية التى تصاحب كلها الحب الجنسى ، على الحب الآخر الذى سماه الحب « الروحى » وانى أفضل تسميته الحب « الشفقى » ، وهو

بعمله هـــذا قد لوثه بادران « الحـــب الجنسي ، ذلـــك أن الحـــب يمضي .. ويموت . ان مأساة الحياة ، العظمى ، ليست في موت الانسان، وانما في توقفه عن الشعور بالحب ، وليست أقل مسـاوى الحياة ــ وهي من المساوى التي لابد للانسان فيها ، أن تحب انسانا لم يعـد يحبك ، وعندما تبين الفيلسوف لاروشيفولد آن هناك نوعا من الحب من جانب واحد ، قال انه لا يجوز بأيه حال من الأحوال أن يتخذ الانسان من الحب أداة لتعذيب الغير ، وايا كان استنكار الناس لهذه الحقيقة أو غضبهم منها ، فانه لا مندوحه من الاعتراف بأن الحب ــ أى حب ــ يقوم على أساس معين من نشاط خاص لبعض الغدد الجنسية ، وهـــذا النشاط لا يستمر الى ما لانهاية مع الغالبية العظمى من الناس ، كما لا يثار بنفس الاشياء . وهو لا يتوقف تدريجيا مع تقدم السن ، ويلجأ الناس الى النفاق الشديد في هـــذا الموضوع حتى لا يواجهوا هـــذه الحقيقة . انهم يخدعون أنفسهم حين ينطفىء الحب في نفوسهم ، بقولهم انه تحول الى مودة « خالدة » لم يبق فيها مزيد لمستزيد ، وكأنما للمودة علاقة بالحب ! . ان المودة بنت العادة .. بنت الاهتمامات المشتركة .. بنت الرغبات والأمزجة المتفقة بعضها مع بعض . انها أقرب الى الارتياح منها الى الاحساس بالنشوة . فنحن مخلوقات من التقلب ، والتقلب هو الجو الذي نتنفس فيه ، ومن المحتمل أن تكون أقوى غرائزنا الا واحدة ــ غير خاضعة لقانون ، فنحن لسنا أشخاص السنة الماضية أنفسهم ، وكذلك من نحبهم . وانها لمن المصادفات السعيدة أن نستمر نحن المتغيرين ، في حبنا لشخص متغير . ولكن المرجح ــ وقد تغيرنا ــ اننا نبذل كل مانستطيع من جهد لكي نحب ــ في الشخص المتغير ــ الشخص الذي سبق أن أحببناه . ذلك لان قوة الحب ــ حين تستبد بنا ــ تبدو من العنف بحيث نقنع أنفسنا انها ستبقى الى الأبد ، فاذا هدأت سورة الحب ، شعرنا بالخجل ، ثم انحنيا على أنفسنا باللائمة بسبب ضعفنا ، في حين كان الواجب أن نتقبل تغير قلوبنا على انه شيء طبيعي في انسانيتنا . ان تجارب الجنس البشرى قد جعلتهم ينظرون الى الحب على انه مشاعر متشابكة . وأن الريبة لتخامرهم في أمره ، وانهم كثيرا مايلعنونه كما يمتدحونه ، ذلك لان النفس الانسانية ، في كفاحها للتحرر ــ ترى فيما عدا أوقاتا قليلة ــ أن الاستسلام للحب لون من بركات السماء . وقد تكون السعادة التي يثيرها الحب في النفس الانسانية اعظم انواع السعادة في الحياة . ولكنها نادرة ، والنادر لا حكم له . ذلك ان الحب يكتب قصه تنتهى عادة بخاتمة محزنة . وأن الكثيرين قد استنكروا استبداده بهم . وحاولوا بكل قواهم ان يرفعوا نيره عنهم . انهم بعد أن احتضنوا سلاسله وقيوده ــ ادركوا انها سلاسل وقيود على كل حال ، فكرهوها أيضا . وليس الحب دائما أعمى ، وليس هناك ماهو أدعى الى الشقاء ــ الا القليل ــ من أن يحب الانسان بكل قلبه انسانا آخر يعلم أنه غير جدير بالحب .

ولكن الحب الشفقي ماون بتلك الصبغة الوقتية التي نعتبر من عيوب الحب التي لا علاج لها . انه حقا غير مفعم تماما بالعنصر الجنسي . انه كالرقص .. فالانسان يرقص من اجل البهجة المستمدة من الحركة

الايقاعية . وليس من المحتم ان يمضى الراقص مع شريكته فى علاقة جنسية ؛ وقد تكون هذه العلاقة أدعى الى البهجة مالم تنته باحساس من التقزز والاشمئزاز ان الغريزة الجنسية فى الحب ـ الشفقى ـ أو الروحى ـ تتسم بطابع التسامى ؛ ولكنها تضفى عليه شيئا من حرارتها وحيويتها . ان مثل هذا الحب الروحى هو أجمل جوانب الخير . انه يزود جوانبه الجافة بالرقة والعذوبة ، ويجعل الانسان أقدر على ممارسة هذه الفضائل البسيطة ، كضبط النفس ، وكبت الرغبات . والصبر ، والنظام والاحتمال ، وهى كلها فضائل لاتخلو من جفاف وليس فيها الكثير من مباهج عناصر الخير . ان الخير هو القيمة الوحيدة التى تبدو فى عالمنا هذا المبنى على المظاهر ، ان لها نهاية فى ذاتها ، انه جزاء الفضيلة فى ذاتها ، وانه ليخجلنى أن أصل الى مثل هذه النتيجة العادية ، فانني بغريزتى المسرحية ، كنت أحب ان انهى كتابى هذا برأى مثير مفاجىء أو بعبارات تهكمية تثير فى نفوس القراء الضحك كعادتى معهم ، ولكن يبدو أنه ليس لدى ما أقوله أكثر مما يوجد فى كتاب مدرسى ، أو مما يسمع على منبر الوعظ . لقد قمت بدورة طويلة عريضة لأكتشف أن كل ماأعرفه لايجهله أحد .

ان شعورى بالاحترام قليل ، وفى العالم منه أكثر مما ينبغى ، بل ان كثيرا من الاشياء والاشخاص الذين لايستحقونه يطالبون به ، وهو فى الواقع لايعدو أن يكون لونا من التقدير الظاهرى نقدمه للاشياء التى لا نريد أن نقوم نحوها بعمل ايجابى ، وان أعظم تقدير يمكن أن نقدمه لعظماء الماضى كدانتى ، وتيتيان وشكسبير واسبينوزا ، هو أن نعاملهم لا باحترام ، بل بالألفة التى ينبغى أن نعاملهم بها لو كانوا معاصرين لنا . وبهذا نضفى عليهم أعظم تقدير فى وسعنا . ان معاملتهم بهذه الألفة اعتراف بوجودهم أحياء بيننا ، ولكننى حين أعثر بين الحين والآخر بلون من الخير الحقيقى ، أجد مشاعر الاحترام تجيش طبيعيا فى نفسى ، واننى حيئنذ لا أهتم أبدا حين أجد هؤلاء القلائل من صانعى الخير الحقيقى ليسوا فى المستوى الثقافى أو الفكرى الذى كنت أتوقعه أو كنت أتمناه لهم ، وعندما كنت غلاما صغيرا ، بائسا ، تعودت ان احلم ليلة بعد ليلة . بأن حياتى المدرسية كلها حلم ، وأنى سوف أستيقظ منه لاجد نفسى فى البيت مع أمى . لقد تركت وفاتها فى نفسى جرحا لم يندمل وظل خلال خمسين عاما ، ولكنى لم أعد أرى هذا الحلم منذ أمد بعيد . ولكنى لم أنس الشعور بأن حياتى هذه ليست الا سرابا أفعل فيه هذا أو ذاك لأنه لا مفر من أن أفعله ، ولكننى ، مع هذا ، وحتى وأنا أقوم بدورى لا أستطيع الا أن انظر اليها ، الى حياتى ، من بعيد ، وأعرف أى نوع من السراب هى ، وحين أعيد النظر الى حياتى ، بما فيها من نجاح وفشل ، وبأخطائها التى لا حصر لها ، وبما فيها من أوهام وحقائق ، ومن مباهج وأحزان ، تبدو لى كأنما تنقصها ـ للعجب ـ كل عناصر الحقيقة .انها غامضة ، مائعة . وقد يرجع السبب فى ذلك الى أن قلبى، وقد وجد الراحة فى مكان ما ، ينطوى على شوق وراثى عميق الى الله، والى الخلود الذى لم يستقر عقلى على شىء بشأنه ، انه يبدو لى أحيانا، وأنا أهفو الى ماهو أحسن ، اننى قد أتظاهر باقناع نفسى بأن الخير

الحقيقى الذى لم ألتق به الا نادرا فى هذه الحياة الدنيا ، سوف ألتقى به كثيرا وأنا فى طريقى الى تلك الحياة الفضلى · ومن المحتمل أن أجد فى هذا الخير الحقيقى . لا سببا للحياة أو تفسيرا لها ، وانما التخفف من عبئها . ان هذا الخير . فى هذا العالم الذى تحيط شروره بنا من المهد الى اللحد ، قد ينفع ــ لا كأداة للتحدى أو الاجابة ، وانما لتأكيد شعورنا بالاستقلال الذاتي ، انه الرد الذي ستقدمه الروح الانسانية انساخرة على تصرفات القدر الغريبة الأليمة ، أن فى مقدوره ــ بعكس الجمال ــ أن يكون متكاملا فى نفسه دون أن يكون مملاً ، وهو أعظم من الحب ، لأن الزمن لا يطفىء مباهجه . ان الخير الحقيقى يبدو أوضح مايكون فى جمال السلوك ، أو حسن التصرف ، ولكن ما المعنى الحقيقى لجمال السلوك أو حسن التصرف فى هذا العالم الذى لا معني له ؟ · لقد أوصى أفلاطون ــ كما نعلم ــ صاحبه الحكيم بأن يهجر حياة التأملات الجادة ، ويستبدل بها حياة الكفاح فى الشئون العملية ، ومن ثم يضع الشعور بالواجب فوق السعادة .وانى أعتقد أننا جميعا فى بعض المناسبات ، اتخذنا طريقا معينا لأننا رأينا الطريق الصواب ، برغم علمنا بأنه لن يحقق لنا سعادة فى الحاضر أو فى المستقبل ، فما هو اذن حسن التصرف أو جمال السلوك ؟ فى رأيى أن أفضل اجابة أعرفها هى التى أجاب بها على هذا السؤال « فراى لويس دى ليون » . واستطيع بهذه الاجابة أن أختتم كتابى « أن جمال الحياة ليس الا هذا .. على كل انسان أن يتصرف طبقا لما تمليه عليه طبيعته وواجبات عمله .. »


تم بحمد الله



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤





مطابع الدار القومية

١٠٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٥١ الثمن ١٧ قرشا
